القنطالي

بقلم

نهى جميل الحاج

(رواية)

الإهداء

لكل غريب يبحث عن موطنه

لكل عاشق تجتاحه الذكرى البعيدة

لكل حالم يسافر بأمله نحو البراح

لكل هؤلاء الذين حاربوا الألم والدموع والفراق

إلى هؤلاء .. الغرباء

إلى أبي الراحل عن الدنيا

الباقي بقلبي .. طبت حيًّا وميتًّا

إلى أمي

عقلي وصوتي .. وداعمتي .. أبقاك اللّه

إليهما

(١)
ماتا ألوس إيريخس

انتصف النهار، واستوت الشمس فوق الرؤوس ساخنة ملتهبة، أتى صيف هذا العام بلا رائحة المشمش والدراق، اختلف الجو رغم أن الكروم ما تزال تتسلق، وتمتد على العرائش المثقلة بالعناقيد!

احتميتُ بالجدار المطل على الساحة الواسعة الممتلئة عن آخرها، توافد الناس منذ الصباح الباكر، أناس مثلي، لهم هيئتي، ولكنتي، وأصولي! ألتفتُ إليهم همسًا بحروف أصبحت بين عشية وضحاها من المحرمات!

أهمس:

- السلام عليكم!

فيأتيني الجواب مرتعشًا، يتلفت القوم حولهم خشية أن يضبطوا بالجرم المشهود، تتلاقى العيون فتطل التساؤلات: من سيكون التالي؟

ربما أنا أو أنت، ربما هذا الذي يلوح هناك مبتعدًا، ربما سمعني ذاك البعيد وأنا ألقي السلام، فأكون هنا غدًا؛ متهمًا بالهرطقة والكفر،

معرَّضًا للحرق في ميدان الرملة، أو معلقًا على شباك كنيسة سان سلفادور!

أدور بعيني بين الجمع فألمح سليمًا عند الزاوية، كعادته إذا أعلنوا عن يوم المحاكمة، أتى مبكرًا يقف عند الزاوية نفسها، ترتعش خلجاته، ويزداد شحوبه كلما علت الطبول منذرة باقتراب الموكب، أراه يتمتم كعادته، ليتني أعرف هل يتلو آيات من القرآن، أم يتمتم بتراتيل الكنيسة المبجلة!

يقترب قرع الطبول، تلوح الأعلام الملونة بالأحمر والأصفر، تتوسطها الصلبان الكبيرة باللون الأحمر الدموي الفاقع، الصلبان الخشبية الكبيرة بأيدي الملثمين المتقدمين الموكب الكبير، والقساوسة بملابسهم البيضاء والقرمزية يتقدمون الموكب، يشيرون بأيديهم نحو الجمع المتدافع بالساحة، فيرسمون صليبًا كبيرًا في الهواء!

ينحني الجميع عند مرور القساوسة، ويتلمسون طريقهم؛ لعل المبجل إيزادور رئيس القسس يلقي عليهم بعض بركاته، يمشون في خشوع مصطنع كالعادة، ووجوههم شمعية لا تشي بشيء، يليهم صف طويل من المذنبين المقرَّنين بالأصفاد: هياكل آدمية تمشي بصعوبة، تجر أقدامها المثقلة بالسلاسل، في رهَب وذعر شديدين!

لمحتها في الصف، التفتت إلي، تشبثت عيناها بي تكادان تستنطقاني! لم تكونا تدمعان أو تبرقان! عينان جوفاوين مطفأتين، كعيون الموتى؛ بلا حياة إلا من تحركات مفاجئة، تجفل مع كل قرع للطبل، لتعود فتذهل ثانية.

فتاة لم يستدر جسمها بعد، طفلة قُدر لها أن تولد بهذا الزمان، فتُساق وسط صف المذنبين، تقف عندما يأمر الحاجب بذلك!

يعتلي القساوسة الثلاثة المنصة المنصوبة لهم، يرفع إيزادور كبير القساوسة رأسه الصغير المحلوق من منتصفه، ويدور بعينيه في وجوه الحاضرين، وهو يفتح الكتاب المقدس الموضوع فوق الطاولة، يرنم في خشوع، وبصوت رخيم مرتعش:

«طريقُ الخُطاةِ مفروشٌ بالبلاط، وفي منتهاهُ حفرةُ الجحيمِ. وَكَمَا لَمْ يَسْتَحْسِنُوا أَنْ يُبْقُوا الرب فِي مَعْرِفَتِهِمْ، أَسْلَمَهُمُ اللهُ إِلَى ذِهْنٍ مَرْفُوضٍ، لِيَفْعَلُوا مَا لاَ يَلِيقُ؛ مَمْلُوئِينَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ وَزِنًا وَشَرّ وَطَمَعٍ وَخُبْثٍ، مَشْحُونِينَ حَسَدًا وَقَتْلًا وَخِصَامًا وَمَكْرًا وَسُوءًا، نَمَّامِينَ مُفْتَرِينَ، مُبْغِضِينَ للهِ، ثَالِبِينَ مُتَعَظِّمِينَ مُدَّعِينَ، مُبْتَدِعِينَ شُرُورًا، غَيْرَ طَائِعِينَ لِلْوَالِدَيْنِ، بِلاَ فَهْمٍ وَلاَ عَهْدٍ وَلاَ حُنُوٍّ وَلاَ رِضىً وَلاَ رَحْمَةٍ».

صمت القس قليلًا حانيًا رأسه في خشوع كاذب، وفي عينية لمعة تشفٍّ وقسوة لا تخفى، وهو ما يزال ممسكًا بالكتاب المقدس.

يتقدم الحاجب منه، ويسلِّمه ورقة مطوية بعناية، يُغلق ضفتي الكتاب، ويرفع رأسه، يدور بعينيه في وجوه الحاضرين، ثم يوجه نظره تجاه صف المذنبين، يفض الورقة، ويقربها من عينيه الصغيرتين، ويعلو صوته فجأة بحماس يجعل الجميع يصمتون؛ إلا من همهمات بين الحين والآخر، أو نحيب مكتوم، جاهد صاحبه في إخفائه؛ خشية افتضاح أمره!

تتوالى الأسماء:

- أليخاندرو، ماريا، لوسيا، دييغو، أومار، ثارا، فاتيما!

أجفل وأرتعش بينما تخرج الحروف في هلع، وتتعالى أصوات القشتاليين بالفرح، أحاول أن أخفي دموعي المنسابة، أدور بعيني أبحث عن سليم!

ما يزال هناك عند الزاوية، زاد شحوبه، وتعلقت عيناه بماريا، يتقدم المذنبون نحو القس، وقد تهاوت البقية الباقية من عزائمهم، يركعون في توسل وصراخ يملآن الدنيا من حولي! الصراخ المكتوم الدامي من قلوب المتهمين المدانين سلفًا، وصراخ القشتاليين المهووس العالي:

- ماتا ألوس إيريخِس .. كيمالوس .. كاتالوس .. ماتا .. ماتا .. ماتا(*).

يعلو صوت القس بالأحكام، وماريا الصغيرة المفزوعة تنكمش على نفسها، تجر قدميها المتورمتين من التعذيب، تتقدم نحو المنصة، وعيناها تتابعان المشهد العبثي، يساق الصف الطويل نحو الساحة، حيث الأعمدة الخشبية المنصوبة وسطها.

يتابع القس تلاوة الأسماء بحماس، تتعالى صيحات الفرح! يبدأ الملثمون بربط المذنب بالعمود الخشبي، ماريا تتابع بلا فهم، تساق كما يساقون، يحررون يديها المربوطتين خلف ظهرها، فترفعهما لتخفي وجهها عن العيون، يدفعها الملثم فتسقط، ليعاجلها بضربة بهراوته، تتعثر ثانية بثوبها البالي الممزق، ثم تنهض مذعورة، مهرولة نحو الأعمدة الخشبية، يشد وثاقها بالعمود، يجمع كومة الأخشاب تحت قدميها، ويبدأ في إشعال النار!

تدور عيني بين سليم وماريا، يختفي فجأة، أحاول أن أعثر عليه وسط كل هذه الأجساد المتلاحمة، المكان خانق، والدخان يُدمع عيون الجميع، الصرخات تتعالى، النيران تلتهم الأجساد، والقساوسة يرتلون ترانيمهم في نشوة غريبة، والحشد يتعالى صياحه

(*) اقتلوا المهرطقين، أحرقوهم .. اسلخوهم .. اقتل .. اقتل .. اقتل!

الفرح، بينما أبحث عن سليم بلا فائدة، أُولي ظهري للساحة وصورة ماريا الصغيرة أمامي، صرخاتها المكتومة، وصيحات القشتاليين الفرحة تتصاعد من حولي:

أحرقوا الساحرة! كيمارون أَ لا بروخا! كيمارون أَ لا بروخا!

(٢)
كيمارُون إ ماريا(*)

- كان اليوم عظيمًا.
- ليتهم يجعلون المحاكمات كل يوم، لنتشفى بهؤلاء الآثمين.
- -نعم، المبجل إيزادور كان محقًّا عندما أمر بحرق تلك الفتاة الصغيرة الكاذبة. فليحفظنا الرب، لم تهتز وهي تساق للمحرقة! ألم تسمع المبجل إيزادور بعظة الأحد، وهو يحذرنا من هؤلاء السحرة؟
- نعم كان أمرها عجيبًا حقًّا، تمشي نحو المحرقة بثبات، وكأن الشيطان يدعوها لمضاجعته.

كانت الأصوات الفرحة تتداخل وتبتعد، وأنا أقف خارج الساحة، أبحث بعيني عن سليم!

الجثث ما تزال تتدلى من فوق منصة الإعدام، وألسنة النيران تلتهم ما تبقى من الأجساد المصلوبة فوق الأعمدة! ورائحة احتراق اللحم مرعبة، حفلة شواء بشرية مجنونة، من أناس خلت قلوبهم من

(*) أحرقوا ماريا.

الآدمية، يرقصون ويهتفون على صراخ الذين تُشوى لحومهم في انتشاء غريب!

الصمت يخيم على الساحة الآن؛ إلا من فرقعة الحطب كل فترة، تتراقص المشاهد أمام عيني: ماريا تستنجد بي بعينين مفزوعتين، ماريا الصغيرة تحبو، ماريا الصغيرة تلعب عند باب الدار، ثم تحيلها أنوثتها فتاة غضة بعينين بلون اللوز، وشعر بني طويل منسدل، تختبئ كلما رأت سليمًا عند أطراف الحارة، كان دومًا يعنفها إذا رآها تلعب خارج البيت.

تعدو نحو دكاني بمشية خجلَى، ثم تعود لتحمل الدقيق نحو الدار، تتوقف قليلًا تثرثر مع صويحباتها، ثم تنطلق مسرعة تخاف أن تعنفها أمها، أو يراها سليم فيرفع صوته عليها وسط الطريق، أتذكر ذلك اليوم الذي تشاجر مع القشتالي الذي حاول أن يغازلها، ضربه سليم بحجر وشج جبهته، ولولا تدخل كبار التجار ما كان الأمر ليمر بسلام!

ترى أين ذهب هذا الولد، أخاف أن يورط نفسه بمشكلة جديدة، يكفينا ما نحن فيه!

خلت الساحة إلا من بعض الجنود والملثمين، يدورون حولها، يزيدون النيران ضرامًا، وستبقى الجثث معلقة ومصلوبة ثلاثة أيام، لتراها المدينة كلها! تحوم فوقها الغربان، وتنهش ما تبقى من

لحمها، ثم يحملونها فوق العربات الخشبية، ويلقونها خارج المدينة، لتنهش الضواري ما تبقى منها!

يا الله، ترى، هل تألمت ماريا وهي تحترق؟ أم فقدت وعيها من الأدخنة المتصاعدة؟ هل تلت ما لقنتها إياه من آيات القرآن وهي صغيرة؟ هل دعت الله أن يخفف عنها؟ هل رددت الشهادتين حين رأيتها تتمتم؟ أم كانت تلك ارتعاشات مرتعب، يساق للموت دون جريرة؟!

أفيق على جلبة في أطراف الساحة، أعدو ثانية نحو الدخان المتصاعد بكثافة تحجب الرؤية! أراه هناك يتجه مسرعًا نحو الحراس، أنجح في الإمساك به، والابتعاد عن الساحة، المجنون عاد يحمل سكينًا؛ ليطعن بها أحد الجنود!

مشكلة جديدة يا سليم؟!أعنفه ثم أعود لأضمه! أخذ ينوح كالمرأة، تلاشى اندفاعه وجنونه، وعاد الطفل الذي علمته صغيرًا، بانكسار عينيه ورعشاته، وتكومه على نفسه! ظل يهذي وينتحب ويصرخ صرخات مكتومة ملتاعة، يصفع صدره ووجهه، ينهال بلوم نفسه:

- أنا جبان، أنا لست رجلًا؛ لم أنقذها، جبنت، ضعفت!

يعود ليصرخ بوجهي:

- لمَ منعتني من أن أطعن الجندي النجس؟ لمَ منعتني من الانتقام؟ أحرقوا ماريا أمام عيني وأنا أقف متفرجًا؛ كهؤلاء القشتاليين الحمقى عديمي المروءة!
- سليم يا بني ما الجدوى من طعن الجندي الآن؟ هل سيعيد ذلك ماريا؟ ستساق مثلها للمحاكمة، وستعلق على المشنقة، ولن تستفيد سوى لوعة أبيك وأمك! اصبر يا بني عسى الله أن يبدل تلك الأيام بيسر من عنده.

نظر لي بعينين زائغتين وكأنه لم يستمع، وكأنه غائب عن العالم، قام مبتعدًا وهو يصرخ:

- سأنال منهم! حتمًا سأنال منهم!

(٣)
المُبجَّل

ترجل المبجل إيزادور من عربته الفخمة، المحلاة بنقوش ذهبية بارزة وغائرة، تعلوها الصلبان المتوهجة تحت أشعة شمس خوليو الحارة، مسح حبيبات العرق عن جبهته بمنديل حريري، ثم اتجه نحو القاعة الكبرى بكنيسة سانتا ماريا.

توجه كبير القسس نحو التمثال العظيم القائم عند زاوية القاعة، جثا القس على ركبتيه، ولمس أقدام صنم السيد المسيح، أحنى رأسه وأخذ يرتل أدعيته:

- «أيها الرب خيسوس المسيح، يا من قال لكل من يعصيه: تعال اتبعني، إننا نسألك أن تُبارك أُسرنا المسيحية، وتحبب إليها الكهنوت والرهبانية، لكي تزدهر بها كنيستك، أيها الرب خيسوس المسيح. يا من قال لرسله: «أنا اخترتكم»، إنّنا نطلب إليك أن تُثبت الذين اخترتهم في دعوتهم المقدّسة، وفي سعيهم لتقديس نفوسهم. أيها الربّ خيسوس المسيح، يا من دعا لرسله، قائلًا لأبيه السماوي: «يا أبتِ، قدّسهم في الحق»، إنَّنا نلتمس منك أن تمنح

كنيستك كهنة ورهبانًا وراهباتٍ قدّيسين، ليكونوا «ملحًا للأرض ونورًا للعالم» .. آمين».

قام المبجل بعد أن أنهى صلاته وخرج من القاعة، يتبعه صف القسس الأصغر سنًّا ومرتبة، سائرين نحو الغرفة الفسيحة المطلة على الهضبة الواسعة، اتجه نحو النافذة، في حين دخل الخادم بكؤوس الماء البارد والشراب، ناول أحدها المبجل الذي ارتشفها بهدوء، ولمعت عيناه وهو يوجه حديثه للقساوسة، بصوته الرفيع المرتعش كعادته:

- اليوم أستطيع أن أقول لكم -أيها المبجلون- إننا نمشي بخطًى جيدة في نشر المسيحية الكاثوليكية، كما أراد البابا المقدس سيكستوس، والملكان العظيمان فرناندو وإيزابيلا، قدس الرب أرواحهم جميعًا. وإننا ماضون في عملنا هذا؛ على الرغم من قسوته على النفس؛ فإن تعليمات القس الأكبر توماس دي تركيمادا -قدس الرب روحه- لا بدَّ أن تُنفَّذ؛ حتى يتم تخليص المملكة جميعها من شرور هؤلاء المهرطقين. اليوم رأيت فرحة المخلصين من أتباع ربنا خيسوس المسيح، بحرق الكفرة والمرتدين، ولكنني رغم هذا الإنجاز ما أزال أرى أن الطريق طويل وشاق، وأن هؤلاء الموريسكيين يتبعون حيلًا كثيرة لإخفاء عقيدتهم، غير المسموح بها على الإطلاق، فوق تلك

الأرض المباركة. أيها المبجلون إنها حرب صليبية؛ لا كروثادا لإعلاء كلمة السيد المسيح المخلص، ورغم أن هؤلاء المستعمرين دنسوا أراضينا طوال ثمانية قرون، فإن الرب العظيم أراد لنا في النهاية أن ننتصر؛ لذا فإن ما أريد أن أقوله لكم الآن: احرصوا على زيادة المراقبة، ومتابعة الهراطقة الكفرة، وتوسعوا في تجنيد العيون وفرق التفتيش، فإن لدينا مهمة مقدسة كلفنا بها الملك فيليب الثاني باركه الرب، وأرى أن التقارير الأخيرة لم تكن على المستوى المطلوب!

أنصت القساوسة جميعهم للحديث، وهم يهزُّون رؤوسهم بين حين وحين، حتى أنهى كبير القسس حديثه، وأذن لهم بالانصراف!

نادى على خادمه وأمره بألا يزعجه أحد في خلوته التعبدية، توجه لغرفته الواقعة آخر الممر، وأغلقها عليه جيدًا، جلس على المكتب الكبير وتناول ريشته، وغمسها بالحبر، وشرع يكتب:

«المبجل البابا الأعظم حفظه الرب وقدس عمله، أكتب لقداستكم لأعلمكم بجهودنا المتوالية والحثيثة في انتزاع الكفر والهرطقة، وتخليص المملكة من هؤلاء الذين رفضوا الرب المخلص، لذا سأرسل لك تقريري المفصل قريبًا، ملتمسًا من قداستكم زيادة المنحة المقدمة لكنيستنا الفقيرة؛ حتى تستطيع أن تقوم بواجباتها على أكمل وجه في خدمة الصليب المقدس والملك والبابا، حفظهم الرب، آمين».

ابتسم المبجل بزهو وإحساس بالانتصار، وهو ينهي الرسالة ويدفع بها لخادمه ليرسلها لقداسة البابا، ثم عاد ليفتح خزانته المخفية وراء اللوحة الكبيرة لماري دي لا كاريداد، عذراء المحبة، ملقيًا نظرة على العملات الذهبية المرصوصة بعناية، ابتسم بنشوة، ثم عاد ليغلقها وهو يتمتم:

- شكرًا للرب على عطيته التي أعجز عن التعبير عنها.

(٤)
البيازين

تركني سليم ومشى باتجاه النهر سريعًا؛ حتى قبل أن أتمكن من تهدئته! جلست مكاني مبهوتًا، أحداث اليوم ما تزال تفتك بعقلي؛ صراخ الضحايا، ونظرات الهلع الطافح من عيون فقدت بريقها، نظرات التشفي والانتشاء في عيون تلمع بمكر وخسة!

تكومتُ عند أطراف الساحة، وانعطفتُ على ذاتي في مرارة لا توصف، حلَّ الليل سريعًا، لعله يعرف أن أيامنا ستكون ليلًا طويلًا بلا نهار يأتي ليبدد ظلمة الخوف بداخلنا!

دخلت البيازين أجر قدميَّ، البيوت الصامتة الحزينة، المنطفئة قناديلها، لم يكن ليل البيازين بهذه الكآبة من قبل، كانت الأبواب المغلقة على ساكنيها دومًا تشي بالفرح مع اقتراب الصيف؛ حيث يستعد الجميع لموسم الأفراح، تتهيأ النسوة للزيارات المسبوقة بأحاديث هامسة في طرقات الأسواق، أو عند ساحات الدور وقت العصر، وشراب اللوز يدور بينهن، تبدأ كل واحدة في عرض ميزات بنتها، تتغزل بجمالها، وتحكي عن مهارتها في تدبير شؤون الدار!

لم تكن أم ماريا بعيدة عن تلك الجلسات، ولكنها دومًا كانت تعرف أن ماريا لن تتزوج بغير سليم، الولد الذي تشاجر مع نصف البلدة من أجلها! كان سليم –رغم حداثة سنه– محط إعجاب الجميع، ومع تهوره أحيانًا وافتعاله للمشكلات، فإن ماريا لم تكن لترضى بغيره!

عاتبه أبوه كثيرًا، حاول أن يهذِّب ذلك الطبع المتهور داخله، والذي جلب عليه وعلى أبيه الكثير من المشكلات، خصوصًا بعد أن سافر أولاده، ورحلوا نحو فاس، ولم يتبقَ غير سليم!

كان أبوه يأمل أن يكون له سندًا في أواخر أيامه، ولكنه برعونته زاد الشيخ همًّا فوق هم.

قلت له وأنا أراجع حفظه:

- يا سليم، لا يجدر بك أن تكدر صفو أبيك هكذا، الرجل لا يحتمل كل تلك المصائب، وهو الذي تجاوز السبعين، ارفق به وبأمك، ودعك من أمورك الصبيانية تلك، وتهورك لأتفه الأسباب، أنت ترى أن الأوضاع ليست على ما يرام، والديوان يفتش، ويتربص لأتفه الأسباب، فلا تكن سببًا في شقاء والدك!

نظر لي سليم يومها ولم يُجب، نكس رأسه ثم رفع عينيه بحذر، تلعثم قليلًا، وانحشرت الكلمات بفمه، ثم نطقها مرة واحدة:

- أريد الزواج بماريا، هل يمكن أن تتوسط لي عند أبي يا شيخي؟! إنه لا يستمع لي، يظن أني ما أزال صغيرًا ومتهورًا، وأني سأكون سببًا للمشكلات بينه وبين أبيها.

بدا الهمُّ مرسومًا على وجهه، كانت كلماته أشبه بتوسل طفل من أجل قطعة حلوى ظل يشتهيها، كنت أعلم جيدًا كم يحب ماريا، ولكنني كنت أخاف نزقه وجنونه ومشكلاته التي لا تنتهي، لم أُجِب، فقط هززت رأسي موافقًا، وأردفت:

- ولكن يا سليم لتعلم أن الزواج ليس لعبة تريدها اليوم وتملُّها غدًا، والبنت تحبك؛ فلا تكسر قلبها بأفعالك وجنونك، ولتعلم أني إن قبلتُ التوسط، فلأني أعتبرك ابني وهي ابنتي، ولن أرضى لها الحزن بسببك!

قفزت السعادة لعينيه وقام يقبِّل رأسي، دار حول نفسه وأخذ يصيح فرحًا، ثم توجه نحو الباب مسرعًا! وقبل أن يغادر هتف بحماس:

- فليكن اليوم يا شيخي، سأخبر أبي أنك تود لقاءه!

ابتسمت متعجبًا من اندفاعه وأنا أقول:

- إن شاء الله يا ولدي.

(٥)
طقوس التَّقِيَّة

ماريا الجميلة هي النصف الآخر من سليم، الهادئة، الجميلة، الحالمة، بُرعم الفل وعقد الياسمين، رغم أنهما مختلفان؛ جنون وعقل، نزق وحكمة، تهور وتأنٍّ، ورغم أن سليمًا يسبقها في العمر فقد كانت أعقل منه؛ كثيرًا ما اختلفا، كان تهوره يغيظها، ولكنها أبدًا لم تبتعد، لم تتصور أن تتزوج بغير سليم، تربَّيا معًا؛ فالدار لصيقة الدار، والأهل لا يفترقون تعلما معًا، لقنتهما تعاليم الإسلام بعيدًا عن أعين رجال التفتيش، كان بيتي مفتوحًا لأطفال الحي، يأتي بهم الآباء سِرًّا، فألقنهم بعض آيات القرآن والحديث، أعلمهم الصلاة وحروف اللغة العربية، ثم يخرجون للطرقات والمدرسة والأسواق، ومع الأقران في الحارات يتحدثون القشتالية بمهارة، ويخفون كل ما تعلموه؛ بل ويتحدثون عن قداس الأحد، ومراسم التعميد بوعي شديد، وكأنه قد كُتب على هؤلاء الصغار أن يمارسوا طقوس التقية مبكرًا جدًّا.

(٦)
الصليبُ فوق أسوارِ الحمراء

كنت طفلًا وقت الكارثة، لم أتجاوز العاشرة، هرعت مع أبي كما هرع الجميع صوب الساحة المطلة على القصر، اليوم المشهود الذي جاء بعد حصار دام تسعة أشهر، حصار خانق مميت، أطلقوا ثلاثين ألف رجل على الحقول الممتدة حول غرناطة، أتلفوا كل شيء، حطموا الطواحين ومخازن الغلال، وأحرقوا الدور والكروم وعروق الزيتون، حتى مَلقة لم تسلم من أذاهم، حاصروها كما حاصرونا حتى توقف مددها إلينا، جاع الصغار، وهلك الشيوخ جوعًا، ذبحنا الأحصنة والقطط، أكلنا أوراق الشجر، واختبأنا في الأطلال القديمة، والقرى الخالية البعيدة، وفي بطون الغابات، وعلى رؤوس الجبال، وفي المغاور.

لم يكن دوي المدافع يتوقف، كنا نعزي أنفسنا بالدعم الذي سيأتينا من البحر! انتظرنا وانتظرنا، وكأن القاهرة بعيدة، والدولة العلية العثمانية لا تسمع بنا، صرخنا في جوف الليل: يا الله.

انقسمنا لأول مرة؛ بعضنا قال: لا مفر من الاستسلام، وبعضنا قال: سنقاوم حتى النهاية، والأطفال جياع، والمدافع تضرب رؤوسنا،

حتى استيقظنا على يوم الرحيل، ومفاتيح غرناطة بأيدي فرناندو وإيزابيلا، وأبو عبد الله يولي ظهره لملكه بلا عودة، على الأقل قاوم للنهاية، لكنه اضطر أن يسلمهم المفاتيح، مقابل معاهدة تضمن حياتنا وحقوقنا، أو هكذا كنا نعتقد!

كنت أعدو كالمجنون نحو الساحة الكبيرة، والموكب يأتي من بعيد، والبيارق الملونة بالصلبان ذهبية الخيطان ترفرف فوق عربات تجرها الخيول المكسوة بالحرير.

البرد قارس، والكل يرتجف، وأنا أتصبب عرقًا، رغم أن الثلوج تتساقط من حولي، أزاحم الجمع لأطل على المشهد الدامي؛ الملكان المنتصران يتقدمهما البابا الذي ينازعهما السلطة والنفوذ والتأثير، الصلبان المرفوعة فوق العربات وبأيدي الفتية والعبيد، القشتاليون الملوِّحون على الطرقات بغصون الزيتون وباقات الورود، المسلمون المبهوتون بالمشهد!

الكل غير مصدق، والبعض جاء ليعود لأهله فيطمئنهم بأن المدينة صامدة، وأن التسليم شائعة يريدون بها أن ينالوا من عزيمتنا، أبوعبد الله يقف رافعًا رأسه رغم الأسى المرسوم على وجهه، الطبول تقرع، وصوت يعلو ببنود المعاهدة يتلوها الحاجب بالقشتالية، المفاتيح الآن بأيدي إيزابيلا الماكرة المتعالية، أبو عبد الله يولي

ظهره لمدينته العامرة ويرحل، فترتفع الترانيم، ويجثو الملكان تحت أقدام البابا، فيمسح رأسيهما ببركاته، ويسجدان شكرًا!

تسقط الأعلام المرفرفة المنقوش فوقها لا غالب إلا الله، ليرفع الكاردينال مندوزا صليبًا كبيرًا فوق أسوار الحمراء.

(٧)
السرداب

توقفت السيارة أخيرًا، خمس ساعات تنهب الأرض، والأجساد المحشورة ترتج، أغفو وأصحو على أنين يسري بلا توقف، أدير بصري وأحاول أن أتفحص الوجوه حولي، الضوء المنساب من النافذة الوحيدة قرب السقف لا يسمح بأن أراهم جيدًا، الكل صامت، مبهوت، والسيارة تتأرجح، يزداد ألمي وأشعر بأن روحي ستخرج قريبًا، أحاول أن أتنفس بعمق فيضغط الهواء على ضلوعي، أئن من الألم فتخرج أناتي مكتومة، أضع يدي فوق ضلوعي، أتفحص مكان الألم، يبدو أن الضلوع كُسرت، التنفس الآن أشبه بمعركة كبرى، حاولت أن أحصي عددنا: خمسون، سبعون، ربما اقترب العدد من مائة، مائة شخص ينحشرون داخل هذا الجحيم المتحرك!

الساعات لا تنتهي وكأننا نسير في الفراغ، هل سنصل؟ هل لنا وجهة محددة؟ هل سيلقون بنا في الصحراء ويرحلون، تاركين مائة شخص تنهشهم الذئاب؟

لم ينتهوا من استجوابي بعد، رأسي يدور، تفكيري مشوش، الأسماء، نعم الأسماء .. كل ما يهمهم هو الأسماء؛ من تحادث، أقرباؤك، جيرانك؟ لمَ تتأخر في الجامعة بعد محاضراتك؟ لمَ لا تلتزم بتعبئة استمارات الأمن كل عام؟ لمَ تقرأ؟ لمَ تكتب؟ لمَ؟ لمَ؟ لمَ؟

أجيبُ وأجيبُ وأجيبُ، وتعود الأسئلة تدور واللكمات تنهال، وزبانية العذاب يقفون فوق رأسي، يتلذذون بصرخاتي، تتسع أعينهم من الفرحة كلما سال الدم من جسدي، أفقد وعيي فأحمد الله أن العذاب انتهى، لأفيق والماء البارد ينصبُّ على رأسي، أشهق وأعود لأجيب عن أسئلتهم السخيفة!

صرخت أخيرًا:

- لماذا أوقفتموني؟

لم أزد عن هذا السؤال، وكان ذلك كفيلًا بتلقي ضربة بأمعائي لأسقط على ظهري، ينحشر الحذاء الثقيل بمعدتي، وتهوي الهراوات علي من كل جانب! أحاول أن أحمي وجهي!

يصرخ الصوت الأجش:

- من سمح لك بالتحدث يا ابن الزانية؟ أنت هنا لتجيب فقط على أسئلتنا.

ينهال السباب والإهانات سيلًا لا يتوقف، أسقط بلا حراك، أغيب طويلًا، كأن الموت يقسم علي ألا أفيق، يسحبون جسدي المتورم، ككومة نفايات، ثم يلقون بي بسرداب عفن!

أستيقظ على اهتزازات السيارة والأنفاس تحيط بي، نحو المجهول أمضي، ربما أمضي لحتفي، أو لألتقي زبانية التعذيب من جديد.

(٨)
الربُّ خيسوس

مرَّ شهران على اختفاء سليم المفاجئ! أدور كل يوم بالمدينة أبحث عنه، أسأل كل من أعرف ومن لا أعرف، طفت البيازين، وانحدرت لسوق الحدادين وسوق الحرير، سألت أصدقاءه، تتبعت الأخبار عن طريق من يعملون بديوان التحقيق، لم أعثر له على أثر، وكأنه ذاب وسط المدينة الكبيرة الثائرة كل يوم، أطرق باب بيته فيأتيني وجه أمه المتعب الباكي، تعاود السؤال، وأعاود الإجابة نفسها، أدخل الدار الفسيحة، أتجه لغرفة أبي سليم، الراقد فوق الفراش من يومها، يزداد هزاله كل يوم! شيخ تجاوز السبعين، بعينين زرقاوين انطفأ بريقهما، رحل أبناؤه تباعًا خوفًا من البطش، عبروا البحر نحو فاس؛ هربًا بدينهم وعقيدتهم.

ظل أبو سليم يتمسك بأمل كاذب كل يوم، لم يستطع أن يبارح أرضه، ذهب مكرهًا نحو الكنيسة -وقد تجاوز الخمسين- ليركع تحت أقدام القس، فينثر الماء المقدس بوجهه وفوق رأسه، ويعلنه تابعًا مخلصًا للرب خيسوس!

رد تحيتي بصوته الهزيل المرتعش، حاول الاعتدال فلم يستطع، انتابته نوبة سعال شديدة حتى اعتقدتُ أنه سيموت بين يدي، جلستُ على طرف السرير أنظر لهذا الشيخ المفجوع بغياب أولاده، ورحيل أحبته؛ لأراه يواجه أيامه الأخيرة وحيدًا؛ إلا من عجوز تقاسمه اللوعة والفقد!

تنفس الشيخ أخيرًا فخرج صوته متحشرجًا يعلو وينخفض، كان يجاهد من أجل أن يتم جملته، يسأل عن سليم مجددًا، يُعيد عليَّ نفس أسئلة الأمس؛ لعله يجد أجوبة جديدة، فيأتيه وجهي الذي لا يشي بشيء فيصدمه ثانية، فيعاود الاستلقاء موليًا ظهره لي، يردد في وهن وارتعاش:

- لا غالب إلا الله .. لا غالب إلا الله.

(٩)
لمَّا تبدأ الحفلة

صوت الريح يعوي خارج السيارة المظلمة، انفتح الباب أخيرًا: الظلام يلف المكان، وعواء الذئاب الجائعة يتناهى إلى سمعي! يأمرنا الحارس بالنزول، الأقدام المتسلسلة ببعضها تعوق حركتنا، يقترب الأول من حافة السيارة فيدفعه الحارس الواقف عند بابها ليسقط، فنسقط جميعًا، تتعالى التأوهات، وتتعالى الضحكات، ويتعالى السباب!

نتعثر فيملأ التراب أفواهنا، نحاول أن نتماسك، نقف في صف طويل متعب، نمشي نحو بوابة ضخمة، كئيبة المنظر، والحراس من حولنا يشهرون الأسلحة، وكأن الواحد منا سيتحول لمارد في لحظة، يفك قيد رجليه ويهرب!

دلفنا من البوابة الكبيرة نحو ساحة رملية واسعة، تتناثر الحصباء على أرضها، حصباء مدببة، ملأت أرض الفناء الواسع، نوع آخر من العذاب، لا أكاد أدوس بباطن قدمي الملتهب من أثر هراوات الأمس، فيزداد ألم قدمي المتقرحة!

الجو بارد، والهواء يخترق ثيابي الرقيقة، ويلسع جسمي بكيةٍ من صقيع! أرتجف وأرتجف، والوقت يمر ونحن ما نزال ننتظر بالباحة الواسعة، الجو ساكن والظلام يلف المكان، أدير عيني لعلي أحاول أن أعرف أين أنا! السماء مظلمة إلا من بريق نجمات تشي بأننا بعيدون عن أي أنوار لمكان مأهول، المبنى عتيق، كئيب بطلائه الأصفر الباهت، الساحة مظلمة إلا من بعض المصابيح عند المدخل والبوابة الداخلية، ألتفت فألمح برجي الحراسة عن يمين ويسار البوابة الضخمة، تعلوها الكشافات التي تدور كل بضع دقائق، كاشفة الساحة والأسوار العالية، أكاد أسقط من التعب وألم قدمي وجروحي النازفة، ضلوعي المكسورة تنغرز بصدري كلما حاولت أن أشهق!

علا الصوت الأجش الآمر يأمرنا بالاعتدال، لمحت ضابطًا برتبة كبيرة يقف عند البوابة الداخلية، يقترب الحارس منه ويؤدي التحية، ثم يسلمه ورقة كبيرة، يلقي الضابط نظرة سريعة عليها، يرفع سبابته بإشارة، ثم يولي ظهره لنا ويدلف من البوابة، يأمرنا الحارس بالسير نحو الداخل، نجر أقدامنا المتعبة المتورمة، كان صوت السلاسل يذكرني بعبيد القرون الوسطى، تخيلت نفسي عبدًا مملوكًا لإقطاعي، أقف على منصة عالية، والنخاسون يعرضون بضاعتهم من الرقيق، انفجرت ضاحكًا فجأة، ثم تعالت ضحكاتي الهستيرية

المدوية، المختلطة بدموعي ونحيبي المليء بالقهر والإحباط، لتنهال الهراوات فوق جسدي، والسباب يملأ ساحة المكان، ليتردد صدى السباب عاليًا:

- أين تظن نفسك يا ابن العاهرة؟ لم تبدأ الحفلة بعد! سنرى كيف تضحك بعد قليل ..

(١٠)
يَا سَالبَ القَلبِ مِنِّي

تعالت الضحكات الصاخبة خارج الحانة الخافتة، عند بابها تراقصت القناديل الملونة معلنة للقادم عبر الطريق الضيق عن وجودها، ما إن تدلف عبر الباب الخشبي إلا وتجد عالمًا جديدًا حافلًا بالصخب! لا أعرف لم قادتني قدماي إلى هنا، عند الطريق المنحدر من عند هدرة* الذي يتفرع لأربعة اتجاهات، أحدها يقودك للبيازين، ذلك الطريق الذي قطعته آلاف المرات نحو الدار، عند هذا المفترق وقفت كثيرًا هذه المرة، ما الذي يدفعني أن أذهب نحو الحارة، سأمر بدار ماريا، وسيشتعل قلبي ما إن أمر بباب بيتها الموصد، سيتناهى صوتها لمسامعي، أغنيتها الشجية التي كانت دومًا تترنم بها، وتختمها ببحة أنثوية تهزني هزًّا:

- اسقني .. واملأ الكاسات .. سات!

تنتظرني عند الباب كالعادة، تمسك أطراف أصابعي بأصابع كأنها خُلقت من الحرير، تشد على يدي وتجرني كطفل! أضحك من

(*) (El-darrorio).

عفويتها وأتبعها، تجري نحو غرفتها وتعود حاملة عودها الصغير المستدير، أجلس عند طرف البئر، وتفترش الأرض أمامي، تضم العود بذراعيها، تحتضنه برفق وتغمض عينيها الواسعتين، فتنسدل أهدابها مخفية هذا السحر العجيب، تبدأ بتحريك ريشتها فوق الأوتار، لتصعد بها وتهبط بمهارة عجيبة، أتابع أصابعها الصغيرة وهي تكرر حركتها، تعيد المقطع ثم تعتدل وتفتح عينيها، فتشع منهما ومضة كنت أراها دومًا عندما تبدأ بالغناء، يبدأ صوتها الناعم كالهمس، ثم ما إن ترتفع النغمة حتى يعلو رويدًا! يهتز الجسد النحيل مع النغمة يمنة ويسرة، يميل جذعها للأمام والخلف، تتمايل الرأس فتنسدل خصلات شعرها البني فوق جبينها العريض، أغيب مع صوتها والليل يلفنا، وصوتها يدندن لي:

يا سالب القلب مني عندما رمقا
لم يبق حبك لي صبرًا ولا رمقا
لا تسأل اليوم عما كابدت كبدي
ليت الفراق وليت الحب ما خلقا
ما باختياريَ ذقتُ الحب ثانية
وإنما شاءت الأقدار .. فاتفقا

وكنت في كلفي الداعي إلى تلفي
مثل الفراش أحب النار فاحترقا
يا من تجلى إلى سري فصيرني
دكًّا . . وهز فؤادي عندما صعقا
انظر إلي؛ فإن النفس قد تلفت
رفقا على الروح إن الروح قد زهقا

أهمس لنفسي: بل رفقًا أنت يا ماريا، رفقًا بي، ورفقًا بأعصابي المنهارة وقلبي المشتعل، وعقلي الذي توقف منذ الصباح على صورتك، رفقًا بسليم المبعثر، المنهك منذ ثلاثة أشهر، يوم اقتادوك دون أن أعرف السبب، دون أن تعرفي أنت كذلك، وقبل أن نفيق كنت هناك عند المحرقة يغتالون جسدك وقلبك، يغتالون ماريا الجميلة، الطفلة التي تمنيت أن تستدير أنثى ببيتي، وبين ذراعي، رفقًا يا صورة ماريّا المشوشة، فلم أستفق بعد من صدمتي برحيلك معهم مكبلة الأيدي، تقاومين!

أهرع إليك من ناحية السوق بعد أن علمت بالخبر، أراك هناك عند أطراف الحارة يسوقونك، وأمك تهرول خلفك تلطم خديها وتصرخ؛ ولا مجيب، تجمعت البيازين يومها على صراخها، عند أبواب البيوت أطلت العيون خائفة، حانقة، متشبثة بالمزاليج؛ تخاف أن تفتح الأبواب فتساق مع ماريا، أطلت النسوة من خصاص

النوافذ، أكاد أسمع نحيبهن، وصراخ الأطفال الفزعين، والعيون المتسائلة: لمَ أتوا ليأخذوا ماريا؟

اندفعت كثور حرون نحو المتدثرين بالسواد، بملابس الديوان، الملثمين فلا يظهر سوى عيون متشفية باردة، يسحبون ماريا، تقاوم، يضربونها بالهراوات، تستغيث، تتساءل، تصرخ! أعدو وأعدو، يحملونها فوق العربة الخشبية ويرحلون!

أحاول اللحاق فيمنعني الرجال الذين تجمهروا، يتكوم الثور الذبيح عند مصطبة الدار بلا حراك، ويتساءل: لمَ ماريا دون كل البشر؟

قبلها بعدة أيام كنت على موعد مع أبيك، كنا على موعد معه، أنا وأبي والشيخ، وافق أبي أخيرًا، أسرعت لبيتك لأخبرك! أقف تحت ياسمينتك المتدلية خارج السور، أهم بطرق الباب ثم أتراجع خجلًا! أهمس لنفسي: اصبر قليلًا يا سليم! اليوم سنتحدث، سيمد أبي يده لأبيك، سيطلب يدك، وستصبحين زوجتي بعد أيام، ستكتسي الدار بالفرح أخيرًا، ستلمع القناديل عند باب الدار أكثر، ستتهادى أنوارها الحية مع نسمات الليل، وسترسل ضياءها الخافت نحو شرفة غرفتنا، ليسقط الضوء على وجهك الجميل المستدير كبدر التمام، وأنت تجلسين عند حافة السرير المزدانة حوافه بنقوش الورد البارز، تختلسين النظر إلي من تحت خمارك

الزهري الشفيف! أرى عينيك الجميلتين تبتسمان بخجل ودلال ودعوة، اقترب منك وأرفع خمارك فيأتيني السحر مباغتًا، وكأني أراك أول مرة، وكأني لم أر قبلُ تِلكُما العينين وهاتين الشفتين المكتنزتين، المصبوغتين بحمرة الكرز، المحشوتين بنكهة التوابل القوية، وكأني أراك الآن أنثى كاملة بهية، قد خرجت من ثوب الطفلة التي كنت أقاسمها اللعب عند الحارة!

أفقت من شرودي وأنت تدخلين بشراب اللوز البارد، تنظرين بطرف خفي، تبتسمين وأنت تديرين البصر بيننا، تلتقي أعيننا، فألمح ذلك البريق الآسر الذي يسكن أهدابك الطويلة، يتقافز قلبي، وأنا أمد يدي لآخذ الكأس منك، تستديرين وتنسحبين مسرعة نحو الداخل، وعلامات الخجل ترتسم فوق وجهك المستدير كبدر، وأنا أتابع خطواتك المبتعدة نحو الرواق!

تمنيت أن يسمح لي أبي بالانصراف، فأعدو نحو ساحة بيتك أجلس عند طرف البئر، وتأتين مسرعة كعادتك كلما مررت بداركم، وتهمسين بصوتك الذي يسكر أعصابي، سليم:

لم تأخرت هكذا؟

(١١)
خيتانا(*)

هنا حيث لا أحد يستطيع أن يكتشف حزنك، هنا حيث صوت الصخب يعلو فوق نحيبي، ما الذي دفعني لأدخل هذا المكان، الناحية الأخرى من البيازين، حيث الوجه الآخر لغرناطة الغارقة هناك في الحزن، الغارقة هنا حتى الثمالة في نشوة الانتصار!

هنا تهجم على أعصابي رائحة الخمر المنبعثة من الأفواه، وعرق الأجساد المترنحة على وقع الدفوف والعيدان، وسط عيون تلتهم أجساد النساء العارية المتمايلة، أرتمي فوق الكرسي الخشبي، يدور الساقي بكؤوس الخمر، أتناول أحدها وأبتلعه دفعة واحدة، يحرق جوفي فأسعل عدة مرات، يدور رأسي أكثر!

دخان الأراجيل يجعلني كمن يتراقص في حلقة ذكر صوفي، يقترب بي من الشجن أكثر وأكثر، وقع الدفوف والنايات والعيدان يذكرني بوجهك الصبوح المستدير كبدر كامل، ماريا العزيزة، الحبيبة، أين أنت؟

(*) غجرية.

يتراءى لي شاحبًا وسط وجوه النسوة المليئة بالأصباغ، وجه كبدر ماريا المستدير!

تقترب، وتتمايل على وقع الطبل، نحيفة العود، بثوب أصفر فاقع، فيه دوائر سود كبيرة، وأسفله الواسع جدًّا قد حُلي بثنيات متتابعة، فإذا دارت دار معها معاكسًا الاتجاه، ليدور معه رأسي وكياني كله، بينما يدق كعبها الأرض مع رنات العود في إيقاع آسر خلاب! خيتانا تتلاعب بالنفوس بحركاتها الرشيقة!

تطاير شعرها الأجعد الطويل فغطى ظهرها المكشوف، تتمايل كغصن نشوان قد استخفه الطرب، ولينته الخمر، يميل جذعها للأمام والخلف، وتتناثر خصلات شعرها الأسود فتغطي وجهها! ترتمي على الأرض وتتلوى، تعود لتقف كغصن البان الممشوق، تدق بكعب حذائها الأرض الخشبية، وتهتف:

- أولاااا .... Holaaaa!

تتسارع الوتيرة المجنونة، تهتز، ترتعش، تتثنى، وتعود غصن البان الممشوق، بعودها المشدود ترفع يمناها لأعلى، وتمسك يسراها بذيل ثوبها الواسع، تدور أخيرًا لتنهي رقصتها الغجرية المجنونة! تتقدم صوبي فجأة، وتميل بجذعها نحوي، تغمز لي بعينين مملوءتين سحرًا، وجمالًا وفتنة!

أطلت النظر بوجهها الملائكي الصغير المستدير كبدر، وجه ماريا يتجسد أمامي، اقتربت أكثر، التصقت بي، تكاد أنفاسها الحارة تخترق صدري، تحرق ما تبقى من مقاومتي المنهزمة، تهمس بدلال:

- وجهك ليس مألوفًا أيها الصغير! هل هذه أول مرة لك هنا؟!

صامت أنا كحجر سقط ببركة، تدور حولي الدوامات، تتسع وتبتعد لتبدأ من جديد، صوتها يأتي هامسًا بعيدًا مشوشًا:

- اسمي ماريا! أرقص هنا كل ليلة! رأيتك تتابعني كأنك لم تشاهد أنثى جميلة من قبل! هل أعجبك ما رأيت الليلة؟!

تضغط على الحروف أو هكذا يهيؤ لي! تضحك، ترفع كأس الخمر وتتجرعه بسرعة. رأسي يدور أكثر، والكلمات تتباعد بينما يغيب وجه ماريا وسط غلالة الدخان!

أفيق على وجع رأسي الثقيل، ووجهها المستدير كبدر يقاسمني الوسادة.

(١٢)
خبز أمي الساخن

أقف عاريًا، وجهي للحائط كما أمرنا الحارس الضخم ذو الشارب الكث، كان صوته أشبه بصافرة الإنذار، عندما تلقانا عند البوابة الداخلية. يقف عند منتصف الممر الطويل، الإضاءة الخافتة رسمت ظله عملاقًا ضخمًا يجثم فوق الجدران، الأبواب الحديدية تصطف على جانبي الممر، أبواب مصمتة إلا من شباك صغير بالأعلى، ساقونا للغرفة الأولى على اليمين، غرفة باردة، مظلمة، عطنة، كل شيء هنا بارد ومظلم وقاس، واجهنا الحائط الرطب، نزعوا ملابسنا، انهالت علينا الركلات، الأيادي الغليظة تفتش جسدي، تعبث بكرامتي، الهراوات تنهال علينا، السباب يغطي أجسادنا العارية، أغطي سوأتي بيد، أغطي وجهي بيدي الأخرى.

آه من قهر الرجال!

آه من الذل حين تجد نفسك مقيدًا، والأنذال الذين لا مروءة بهم يتلذذون بتحقيرك والتندر عليك!

أغالب دموع الرجال المتحجرة، أغالب رغبتي في البكاء، أغالب رغبتي في الصياح، أتكوم، أنهار، تنزف جروحي، أتحول لبالون منتفخ من الألم والوجع والقهر!

تنتهي حفلة التعذيب والفجر يحاول أن يخترق المكان المعتم، ألملم ثيابي المبعثرة، أستر جسدي، ويثقل رأسي!

أنام أو أغيب، الأصوات تبتعد، ليأتيني صوت أمي محملًا برائحة خبزها الساخن.

(١٣)
البيك ينتظر

العتمة مؤلمة، والنور موجع، والجسد يتألم، والعقل متوقف تمامًا عن التفكير، وأنا عالق هنا منذ خمسة أيام، رهين القبو البارد!

كان صوت أمي آخر ما سمعت، فتحت عيني على ظلمة حسبتها القبر فتنفست بعمقٍ قطعه ألم ضلعي المكسور، ليس في القبور ألم، ليس في البرزخ إلا نعيم لأمثالي، ليس بعد ما ذقته عذاب!

أفتح عينيّ على اتساعهما، تزداد الظلمة ويزداد الألم، أحاول أن أكتشف معالم المكان، أتحسس الأرض والجدران، أتلمس بعضًا من الضوء الهارب من أسفل الباب، الأرض الرطبة الباردة الصلبة، المنغرسة نتوءاتها بجسدي المتورم، ذاكرتي المتعبة ترتعش كمصباح يحاول الصمود، وسط عاصفة هوجاء، ومضات تضرب عقلي وتختفي!

أين أنا؟ أهو كابوس سقطت فيه؟ الآن سأفتح عيني، الآن سيعود النور، الآن سيختفي الألم والبرد، الآن سأصحو ممددًا فوق سريري، عند الزاوية تحت النافذة، والصبح يشق الأفق، حيث الفازة التي تضم بضع بنفسجات شديدة الغموض والإبهاج ..

الآن سأسمع صوت العصفورين اللذين ينقران زجاج شباكي يوميًّا، ويوقظانني بزقزقتهما العابثة، لأفتح الستائر، وأتمطى في تلذذ..

الآن ستدخل أمي حاملة الجريدة وفنجان القهوة، عند السابعة تمامًا ككل يوم، أستطيع أن أشم رائحة قهوتها من تحت البطانية الثقيلة، قهوتها المطبوخة على مهل، أخرج رأسي كطفل مدلل لن يكبر أبدًا، أعتدل بنصف عين مغمضة، وأمي تبتسم كعادتها، وتطبع قبلتها الحانية فوق جبين الطفل الكبير، تضمني برائحة الأم التي ما شبعت منها يومًا، أقبل يدها وأنا أعتدل وأفرك عيني وأتثاءب.

تناولني قهوتي فأرتشف رائحتها على مهل، أرتشف رائحة أمي مع كل رشفة، تجلس عند طرف السرير، تحمل فنجانها المكسورة حافته، فنجان أبي الراحل! رغم كل هذه السنين ما تزال تحتفظ بذاكرتها وهي ترتشف رائحة قهوته، مع أول رشفة تنساب ذاكرتها كشلال، تبدأ في الحكايات الممزوجة بحنين وبريق دمعات تتردد في الإفصاح، تسهب وتعود لتبتلع بعض كلمات، تخفيها بمهارة عجوز تصارع ذكرياتها المنسابة بلا هوادة تطرق عقلها، تحتل ذكرى أبي، وكلمات أبي، وأحاديث أبي، وصورة أبي كل الذكريات، كل القصص التي تتلوها كل صباح، وكأنها تقتات على ما تبقى من تلك الأحاديث المحفورة داخل عقلها وقلبها!

تسرح بعيدًا نحو صورته المعلقة بجدار الصالة، تبدأ في سرد حكاياتها الممزوجة بحب ظل حبيس قلبها لا يبرح، حتى بعد وفاته بسنوات طويلة، لم يفتر حبها، ولم يتزحزح قيد أنملة عن مكانه!

كنت كثيرًا ما أراها ساهمة أمام صورته، وكأنها تناجيه أو تسر له بحكاياتها اليومية، عن ثرثرة الجارات، وحديث البائع، ونشرة الأخبار، وسالم الذي بدأ يكبر، ويخشن صوته!

كانت كمن انتهى عالمها عند باب بيته، وبدأ عالم جديد داخله، عالم حدوده وجه أبي، وصوت أبي، وقلب أبي، كنت أراها تبدل بنفسجاتها كلما ذبلت كأنه قد أهداها لها الآن! طقس لم تتركه منذ أن كان يأتيها بباقة البنفسج كل أسبوع، أمي التي لم تغير طقوسها منذ رحيله، والتي أغلقت عالمها علي بعد فقده، أمي التي لا أعلم عنها شيئًا الآن!

ترى هل هي بخير، أم تراها الآن تصارع مرارة فقده وفقدي، وحيدة تجلس عند طرف سريري، ترشف قهوتها المرة وحدها، وتنساب عبراتها.

تبتعد صورتها وأنا بين الحلم واليقظة! ويأتيني صوت السجان الغليظ ويده الخشنة تهزني بعنف:

- قم يا ابن الزانية، البيك ينتظر!

(١٤)
الـغـوص بـلا هـوادة

آلام الرأس لا تحتمل، أفتح عيني ببطء فأجدها مغمضة العينين بجواري، شعرها الأسود الفاحم الطويل ينسدل فوق وجهها، وجهها المستدير كبدر، أتأمل الوجه لأول مرة، أغوص في تفاصيل الوجه النائم ببراءة لا تتفق مع تلك التي كانت تعربد بالأمس:

- ما الذي أتى بي هنا! ما الذي أتى بماريا هنا بجواري؟ هل تزوجنا؟! هل عقد لنا الشيخ، ودعا بالبركة والذرية؟ هل عانقني أبي، ومسح على رأسي، وقبلني بين عيني؟ هل احتضنتني أمي، وأخذت بيدي نحو ماريا الجالسة وسط الغرفة، بخمارها الزهري المنسدل فوق وجهها والفتيات حولها؟ هل أخرجت أمي هديتها الثمينة، الملفوفة بقماش مخملي أحمر، وأهدتها ماريا، والفتيات ينظرن، والنسوة يهزجن وهن ينقرن الدفوف؟!

رأسي الثقيل لا يتذكر سوى الحفلة الصاخبة ليلة أمس، ورقصها المجنون، ولهيب أنفاسها وهي تقترب، ثقل جسدي بعدها، وكأنما سرى به خدر لذيذ، خدر لم أعهده من قبل!

أكان ذلك بفعل كاسات الخمر، أم إن لهيب قبلاتها كان أقوى؟! جذبتني وأنا بين الحلم واليقظة نحو السلم المفضي لدهليز طويل، حيث أبواب الغرف المغلقة لا تمنع الصخب المنبعث من خلف أبواب لا تحجب شيئًا كثيرًا! خلف كل باب ربما ماريا أخرى، كتلك التي تدفعني نحو غرفتها بآخر الممر!

أسير مدفوعًا بالخمر الذي أدار رأسي وأشعل جسدي، وبهذا الجسد الريان الذي جعلني أنسى ما حل بي اليوم، جسدها العاري الممدد يدعوني لأن أغوص بلا هوادة، أن أنسى بها ماريا، أن أنتقم من القشتاليين من خلال هذا الجسد البض الريان!

أرتمي بجوارها طفلًا يتعرف على نفسه لأول مرة، تبادرني هي باقتدار، تنفث بجسدي كل أنوثتها بما تضج به من الرغبة المحمومة، فيمسي الطفل بين يديها رجلًا كاملًا، وفحلًا قديرًا يطفئ رغبة نفسه، ورغبتها!

(١٥)
مـا اسـمـك يـا صـغـيـر؟

هل يعود الموتى؟ أراها الآن تتمدد بجواري، أنفاسها المنتظمة تخبرني أنها نائمة وليست بميتة، يرتفع صدرها ويهبط، تعتدل كل فترة، تزم شفتيها المكتنزتين، وتعود لتقطب جبينها! ترى أي حلم ينتابها؟ هل تحلم بأنها عند الساحة وزبانية العذاب فوق رأسها؟! هل تحاول الهرب؟ هل تبحث عني وسط الجموع المتلهفة لحفل الشواء البشري الرهيب؟

أتأمل الوجه فأسرح في التفاصيل: ماريا الطفلة، ماريا الأنثى ممددة بجواري، أحقًّا عادت من الموت؟

ربما كنت أتخيل أنهم أحرقوها عند الأعمدة المنصوبة وسط الساحة، ربما كان كابوسًا مر بي، الجمع، والصراخ المحموم، والقس شمعي الوجه، والنار تلتهم جسدها الصغير.

تفتح عينيها، تبتسم الابتسامة نفسها، فتنفرج الشفتان عن أسنانها الصغيرة المستوية، تبادرني بالسؤال:

- ما اسمك يا صغير؟

أجفل من سؤالها المباغت!

- ألا تعرفين سليمًا؟ نسيت إيرناندو يا ماريا! معقول؟! أنت تمزحين لا شك!

أتردد وأمد يدي أتحسس وجهها، أتأكد من وجودها، يرتفع صوتها بالضحكات المباغتة:

- أي ماريا هذه التي تناديني باسمها منذ أمس؟ قلت لك إن اسمي إيثابلا، لماذا تصر على مناداتي بماريا؟ ومن تكون تلك الـ ماريا إذن؟ حبيبتك، أم أختك؟

أنتفض! أترك الفراش وأنا شبه عارٍ، أبحث عن ملابسي الملقاة بلا اكتراث فوق الأرض، أهم بالمغادرة فتلحق بي، تنتصب واقفة أمامي كهرة تتمسح بسيدها، عارية، جميلة، جسدها الناهد يدعوني، تقترب أكثر، تحاول أن تجذبني للفراش، يعلو صوتي، أصرخ بها، ثم أعود لأضمها وأنا أبكي.

- ماريا، هل تتهربين مني؟ أعلم أني لم أستطع أن أنقذك، سامحيني يا ماريا، سامحيني.

(١٦)
الانتحاب المكظوم

صوت النحيب الخافت ينبعث من خلف أبواب الدار الموصدة، النسوة المتشحات بالسواد يتحلقن حول أم سليم، ينتحبن بصوت خافت لا يتعدى أسوار البيت المنخفض!

أقف فوق رأس الشيخ أصب الماء فوق جسده النحيف المسجي، الجسد الذي ذهب دون أن يودع ولده الهارب، دون أن يعرف خبرًا يبل ريقه قبل الرحيل، ترتفع نبرة النحيب فينهر الرجال النسوة:

- لا نريد أن تكشفنا الآذان والعيون ونحن نغسل الجسد، إنها عندهم خطيئة كبرى!

أنتهي من الغسل، وأقف لأتلو آيات القرآن بهمس ودموعي تنهمر!

أتلعثم مع كل طرقة على الباب، أقطع القراءة وأرفع الصليب الخشبي وألوح به، لأعود لقراءتي عندما أطمئن أن الطارق من أهلنا، ممن جاء يودع الميت، ويواسي العجوز المفجوعة بفقد الزوج، ورحيل الابن المفاجئ!

أنتهي من الترتيل، فيدخل القس حاملًا الكتاب المقدس بيمينه، مقطبًا جبينه في خشوع، يقف عند رأس الشيخ، ويفتح الإنجيل ويتلو:

- «فيرجع التراب إلى الأرض كما كان، وترجع الروح إلى الله الذي أعطاها».

يرفع الصليب ويلوح به في الهواء فوق المتوفى، يشعل الشموع عند رأسه، ويأمرنا بترتيل المزامير، يتمتم في سره بأدعية لا أسمعها!

ينهي ابتهالاته ويتجه لأم سليم يضع يده فوق رأسها ويقرأ أدعيته، ينتهي فتقبل يده، والدموع تملأ عينيها، ينصرف القس وهو يردد:

- فليقدس الرب روح الفقيد.

ما أقسى الوداع حينما نضطر أن نحزن في دواخلنا، ونستخفي بأوجاعنا، حين نلعق آلامنا سرًّا، نتلو الآيات سرًّا، نغسل الجسد غُسله الأخير ونحن نرتعش، نبكي ونردد: إنا لله وإنا إليه راجعون، والعيون تتلفت، والآذان تسترق السمع؛ خوفًا من رجال الديوان القساة البطاشين غلاظ الأكباد، لقد ضنت علينا الأيام بالكفن والأدعية وصلاة الجنازة!

يتوافد الرجال فرادى، يصلون فرادى: صلاة خوف ووجل، صلاة بتكبيرات سرية، وعيون دامعة لا تملك إلا الدعاء خفية، يتوافد الرجال فيحملون الشيخ المفجوع آخر عمره بفقد دينه وأولاده، ضنت الأيام بجنازة تليق بشيخ آثر البقاء بأرضه ولم يهرب!

تشبث بدينه كالقابض على الجمر، واستخفى به، وذهب يقبل يد القس الأعظم ويطلب بركته، ليعود فيكبر ويصلي صوب القبلة، صوب القبلة يفرش بساطه الذي أهداه إليه أحدهم يومًا ما عائدًا من رحلة مباركة لأرض مباركة، عندما كنا نذهب صوب الكعبة نطوف ونجلب الهدايا للأحباب، ماء رقراقًا شافيًا، ومسبحة.

ضنت الأيام بدعاء فوق رأس الذي يرحل بلا عودة! ضنت ببيت مفتوح للعزاء ثلاثة أيام!

تتوافد النسوة بأطباق البائية(*) والمرق واللحم، بالرجال يفترشون الباب والحوش، والقارئ يتوسط الجمع ترتفع حنجرته بالتلاوات والصلاة على الرسول!

ضنت الأيام إلا بتابوت منقوش عليه الصليب الخشبي، نتجه به نحو الكنيسة الكبيرة، يرتل القس صلواته ويترنم الخدام بالتراتيل، يحرقون البخور وينثرون الماء المبارك فوق وجه الشيخ، نحمل التابوت نحو المقابر، بعيدًا عند الناحية الجنوبية من المقبرة، بعيدًا عن قبور القشتاليين بدمائهم النقية!

ضنت الأرض حتى بقبر يليق بنا، وبقبلة نولي وجه الشيخ نحوها!

(*) البائية (paella) أكلة أندلسية معروفة حتى اليوم.

ينزل التابوت نحو الأرض ويستقر في القاع؛ لنهيل فوقه التراب، نتمتم:

- لا إله إلا الله!

نولي نحو المدينة الصاخبة ويرتفع الصليب شاهدًا فوق القبر.

(١٧)
أين كنت؟

لم أعد أحصي الأيام، كم مر عليَّ هنا، لا أعرف، شهر، اثنان، ستة أشهر، لا يهم، فالأيام تمر بأحضان ماريا! ما الذي أريد أكثر من هذا؟!

كل ما ينغص عيشي هو هذا الليل الكابوس، الذي يبدأ بتوافد زبائن الحانة، تلك الوجوه الكريهة، وجوه القشتاليين الحمراء، وعيونهم الزرقاء الزجاجية الباردة، وشعرهم الأحمر كالدماء التي يريقونها كل يوم!

تبدأ احتفالاتهم الصاخبة، ترقص ماريا بجنون كل ليلة، تخفي وتبدي، وما تبدي أكثر وأكثر! تثير جنونهم بضحكتها الغجرية اللعوب، تصطنع الدلال والعيون تلتهمها، والدم يغلي برأسي!

أجذبها بعنف بعيدًا عن الأيادي الممتدة والعيون المتلصصة، أفتعل المشكلات، يبدأ الشجار من جديد، يتذمر صاحب الحانة، يطلب مني المغادرة، تهدد ماريا بالرحيل إن رحلت، فيتراجع الرجل، كيف ترحل من تهدي إليه الذهب كل ليلة، حتى لو نشبت المشاحنات،

كل الحانات كذلك، عندما تلعب الخمر بالرؤوس، يبدأ الجميع بالشجار.

أنا الذي لم أعد أحتمل تلك الليالي الماجنة، لم أعد أحتمل رقصها المجنون، وعيون السكارى سهام نحو الخصر والنهدين والردفين المثيرين، لم أعد أطيق أن تتفلت من أحضاني لتذهب وسط الحانة، فتتمايل كالأفعى الناعمة المسمومة!

ما الذي يدفعني أن أبقى، أحب تلك الفتاة، أعشقها بجنون، منذ كانت في المهد وليدة بوجه صغير مستدير كبدر وأنا أحبها، ولكن ما الذي يدفعها لترقص كل ليلة للغرباء كريهي الرائحة، لماذا تغيرت ماريا، لماذا تصر على أن تطلق على نفسها اسم إيزابيلا؟

أجذبها -ككل ليلة- نحو الأعلى، فتنصاع لي في استسلام، تصعد الدرج والمخمورون يتصايحون من الحنق، ثم ينشغلون بالفتيات اللاتي يدفعهن صاحب الحانة نحو الطاولات!

أبدأ شجاري اليومي معها:

- لمَ ترقصين؟ لمَ تتمايلين، لمَ؟ ولمَ، ولمَ؟

أصرخ في وجهها:

- ماريا كفي عن الرقص والعمل هنا، دعينا نرحل، نذهب لبيتنا، نعود للبيازين!

تتمدد عارية فوق السرير غير مبالية بصراخي، تشيح بوجهها، أهم بضربها فتصيح:

- لست ماريا يا رجل، أرجوك اصحُ من وهمك، قلت لك هذا ألف مرة، أنا إيزابيلا، الراقصة، القشتالية، لمَ تصر على تسميتي بماريا؟ لقد خاطرت من أجلك كثيرًا، وكذبت على صاحب الحانة، وادعيت أنك قريب لي جاء من الشمال، فلا تكن أحمق وتفسد كل شيء، دعنا نعيش هنا، وسنجد لك عملًا مناسبًا، ألا تعلم أني أحبك إيرناندو، أرجوك لا تطلب مني أن أكف عن الرقص، فهذا مستحيل.

أترك الغرفة وأنزل الدرج مسرعًا، تنادي عليَّ فلا ألتفت، أترك الحانة مغاضبًا، لا ألوي على شيء، أعدو باتجاه النهر، أسلك الطريق الصاعد نحو البيازين، قلبي يخفق بشدة، أنوار المصابيح تهتز من بعيد، ترسم ظلالًا، أحسبها أحدهم يتبع خطواتي، البيوت المتراصة والحواري الضيقة المبلطة أراها تبتسم لعودتي!

أقترب بحذر والليل يواري خوفي، والسكون يكاد يفضح دقات قلبي المتسارع، أقترب من باب بيتنا فأمر ببيت ماريا، ألحظ المصابيح الخافتة من خلف السور الواطئ، يلوح باب بيتنا بلونه الأزرق الباهت، والحفر البارز الذي تجمعت عليه الأتربة فزاد لونه شحوبًا، الزيتونة المتدلية من فوق السور بأوراقها المصفرة الهزيلة!

ما لها جفت! أم أني أتوهم هذا؟ كأنها تريد الموت؛ رغم أنها دائمة الخضرة! البيت مظلم، هل نام أبي؟ لم يكن لينام قبل أن يطمئن عليَّ، الباب مفتوح، ساحة الدار متربة، أوراق الزيتون الجافة تفترش الأرض، الظلام يلفني، وصوت بومة ينعق فوق الشجرة، ويد تلمس كتفي فأجفل، وصاحبها يهمس:

– سليم، هداك الله! أين كنت كل هذه المدة؟

(١٨)
رائــحــة الــتفاصيــل الصغــيرة

وضعوا العصابة فوق عيني، واقتادوني نحو الأعلى، صعدت سلمًا مكونًا من ثلاثين درجة!

عندما تضطر للبقاء في الظلام، ستجتهد في المعرفة، ستلتفت كل حواسك الأخرى من أجل النجاة، تسمع دبيب النمل، وصوت حفيف الأشجار البعيد، وحتى همهمات الأنفس المعذبة هنا مثلي تحادث نفسها كل ليلة! تسمع مناجاة القابع بزنزانة بعيدة ربه، وهو يغلق عينيه يصارع من أجل البقاء، يرجو الله أن تكون تلك الليلة هي آخر عهده بهذا السجن الخانق!

عندما يتعين عليك البقاء في الظلام ستجتهد في أن تعرف ما الذي يقدمونه على العشاء هنا، الوجبة الوحيدة التي تبقيك حيًّا؛ مزيج من الخبز القاسي والحصى، وسائل لا أعلم له طعمًا!

هنا ستجتهد في أن تُبقي رائحة من تحب داخل روحك وقرب أنفك، ستجتهد في أن تتذكر كل شيء، حتى التفاصيل الصغيرة التي كانت تمر عليك فلا تعيرها اهتمامك، كلمة أمك العابرة وأنت تهم بغلق الباب خلفك:

- انتبه لنفسك يا بني، لا تنس المظلة والمعطف؛ فالجو غائم بالخارج!

نظرات ليلى لك من وراء نافذتها تنتظر عودتك بقلق، وما إن تدخل الحارة حتى تبتسم ارتياحًا، وتلوح لك بفرح، لون البنايات، وصوت المذياع، ورائحة الصباح ودفء الشمس، وأصوات الباعة، وصخب الأطفال، وضجيج السيارات! حتى هدوء الفجر، وصوت المؤذن يقطعه، أشياؤك الصغيرة المنسية القابعة بعيدًا بذاكرتك، كلها تجتهد في استحضارها، حيث لا معين هنا سوى روائح الأحبة وأصواتهم، وأحلام تأتي بهم.

أهمس في داخلي: يا الله أنقذني، ما لهذا السلم اللعين لا ينتهي؟ قدماي متورمتان، وعضلاتي تيبست من النوم فوق الأرض الخشنة، والجب العفن!

(١٩)
قِــف وارقُــص

السلم لا ينتهي، قلبي يخفق بشدة، مشهد يعيدني خمس سنوات للخلف!
كنت أرتقي الدرج وقتها والعيون تلمع نحوي، والأكف تصفق مأخوذة بنشوة النجاح، وأمي هناك تطل دموع الفرح من عينيها، وهي تتمتم في سرها بالمعوذتين!
أصعد نحو المسرح الممتلئ بالأساتذة والطلاب، أستلم شهادتي!
كنت دومًا الأول، النابغة كما كانوا يلقبونني، صعدت الدرج نحو الأستاذية، كنت أصغر محاضر، أصغر النوابغ!
كنت أرى الاندهاش وأرى الغيرة في عيون أقراني! كنت أرى الحماسة في عيون التلاميذ، كنت أرى وجهًا واحدًا فقط، الوجه الجميل لكل شيء!
لم أكن أعلم أن للحياة وجوهًا أخرى ما أزال أجهلها، كنت مندفعًا بحماس الشباب، وبراءتهم، ولم ألتفت يومًا لنزال جانبي يعرقلني!
هل أخطأت عندما رفضت توقيع تلك الورقة اللعينة؟ كنت أعتقد أن نبوغي سيحملهم على التراجع، فاجأهم اجتيازي لكل الاختبارات، فاجأهم حصولي على المركز الأول، فاجأهم رفضي التخلي عن حلمي لصالح فاشل وضعه أبوه مكاني الآن!

التهمة كانت معلَّقة، التُّهَم دومًا حاضرة، الشهود يمكن شراؤهم بالمال أو التخويف أو كليهما، أذهب أنا نحو الجب، ويرتفع غيري نحو السماء!

ما نفعُ النبوغ إن لم يكن معه مال وسلطة؟ ما نفع كل ذلك لو ملك منافسك ما لا تملكه؟!

السلم لا ينتهي: خمس وعشرون، ست وعشرون، تسع وعشرون، ما الفائدة من جعل الدرج على هذا النحو، وسيلة أخرى للتعذيب، الجسد المحنط لأيام بقبو عفن، والأقدام المتورمة من التعذيب، ثم يجبرونك فجأة على ارتقاء درج لا ينتهي، هل ينتهي عذابي عند نهاية السلم، أم إنه بداية لعذاب جديد ينتظرني؟!

دفعني الحارس، دومًا يدفعوننا، وكأننا نتلكأ، ألا يعلمون أن الأرض تلتهب تحت قدميَّ المتورمتين! أنا لا أبطئ خطواتي، كل ما في الأمر أني لا أستطيع السير!

أحسست أنني دخلت غرفة أخرى من تلك الغرف الحجرية الرهيبة: دخان السجائر يملأ المكان، السكون يلفني، أقف مكبل اليدين خلف ظهري والعصابة فوق عيني، الصوت الخشن يأتي من خلفي، الأصوات تتداخل الآن، صوت وآخر وثالث، وصراخ يأتي من بعيد، ربما من غرفة مجاورة، ربما لمسكين مثلي يعذب الآن!

الصوت يأمرني أن أجلس، أحاول الجلوس فأسقط على الأرض، يضحكون بصوت عالٍ، يتناهى لسمعي صوت أحدهم يحدث الآخر بصوته الجهوري:

- دعنا نستمتع قليلًا قبل أن يأتي البيك.

يضحك بسخرية ويبصق على الأرض، يبادر الآخر:

- فلنجعله يرقص، هيا يا رقم سبعة، هل تستطيع أن ترقص؟ نريد أن نتسلى قليلًا، هيا قف الآن وأرنا رقصك، سمعت أنك تتمايل جيدًا كالنساء، هههههه.

الصوت الخشن ينهرني، وحذاؤه الثقيل يغوص بمعدتي!

- ألم تسمع سيدك يا ابن الزانية، هيا قف وارقص .. هيا!

الضحكات تتعالى، السباب ينهمر وأنا أحاول الاعتدال، أقف بصعوبة، الأرض تدور، عقلي لا يستوعب، أي كابوس هذا!

أقف أتمايل كما يأمرونني، تتحجر الدموع بعيني، يضحكون، يصفقون ويتعالى الصفير، يُفتح الباب فجأة وصوت آخر يأمرهم بالتوقف:

- كفى الآن، دعونا نستجوبه.

(٢٠)
العم عبد الملك

وسط العتمة ربما يهز أحدهم بمصباحه فترى ارتعاشاته من بعيد! وسط العتمة يد تربت فوق كتفي، أستدير فأراه، العم عبد الملك، كما هو؛ إلا من بضع شعيرات بيض غزت لحيته، كما هو بهدوئه وصوته الرخيم، كأنه يتلو القرآن علينا ونحن صغار، كما هو؛ إلا من مسحة حزن زادت بعينيه الحزينتين دومًا! يردد السؤال وأنا ذاهل:

- أين كنت يا سليم، تركتني وسط الساحة، واختفيت، ستة أشهر!!

أترك ساحة الدار لأعدو نحو الرواق، لم أستمع لبقية حديثه، الدار مظلمة، أتحسس خطواتي وسط تلك العتمة العجيبة، أين هم؟ أنادي على أبي، أمي: أين أنتما؟ يلحق بي بخطوات متسارعة، يحمل قنديله ويتبعني:

- توقف يا سليم، دعني أشرح لك!

أعدو وسط الدار، أتخبط كطفل يحاول المشي فيسقط عدة مرات ويتعثر، أتجه لغرفة أبي! الضوء المنبعث من القنديل الوحيد بيد العم عبد الملك يرسم ظلالًا فوق الجدران، أخطف القنديل

وأخطو داخل الغرفة المظلمة، السرير النحاسي المرتفع بقوائم لامعة فقدت بريقها، الغطاء المخملي المتدلي من حافة السرير بلونه القرمزي والنقوش الذهبية عند حافته، النسيج الحريري الكبير المعلق فوق الجدار، وكلمة التوحيد مشغولة فوقه بخيوط الذهب، حمله جدي قبل ستين عامًا من أرض الحجاز، خبأه أبي بعد أن طواه بعناية، ولفه داخل كيس من الكتان، ثم أصر فجأة على أن يخرجه ويعلقه فوق جدار غرفته أمام سريره رغم تحذيرات أمي!

- رجال الديوان يحضرون فجأة يا أبا سليم، لا تجلب علينا المشاكل!

لم يستمع أبي، ولم تكف أمي عن الكلام كل يوم! أحببت نقوش اللوحة الحريرية، كنت أتأملها كل يوم، أتماهى مع الخط الأندلسي المتعرج، تداخلات الحروف والزخارف، تمايل الكلمات والنقوش المتعرجة، لا إله إلا الله البارزة فوق القماش، واضحة، جلية، لامعة، هنا كل شيء كما عهدته، حتى رائحة أبي فوق الوسادة، خمار أمي الزهري بوردات صغيرة بيضاء، مكانه بالضبط فوق الأريكة، ينتظر يدها لتحكمه فوق رأسها، أكاد أشم أنفاسهما، أتلفت فلا أجد إلا الفراغ والعتمة حولي، لا شيء قد تغير إلا السكون الذي هبط وسكن، وملأ البيت الخالي، أتساءل بعينين

دامعتين، لعل أبي آثر الرحيل أخيرًا، فلحق بإخوتي هربًا من الجحيم هنا، أين هم؟

- تأخرت يا سليم، غبت كثيرًا، طالت غيبتك على شيخ تجاوز السبعين ولا معين له سواك، انتظرك كثيرًا، جاب الأزقة يبحث عنك، لم يمنعه مرضه من السؤال، كان يستند عليَّ كل يوم نطوف بالبلدة ويتعب وأتعب، نجلس بالساحة الكبيرة أو قرب السوق نتفحص الوجوه العابرة، تسرب اليأس لروحه، وعندما تيأس الروح يا بني، فلا حاجة للجسد وقتها، ذهب دون أن يراك، أدار ظهره لنا ببساطة وذهب، بعده بأسبوع لحقت به أمك، خلى الدار واحترنا نحن فيما نفعله، تركنا كل شيء كما كان على أمل عودتك، وها أنت تقف أمامي بعد ستة أشهر من رحيلهما الموجع، أين كنت يا ولدي كل هذه المدة؟ لِمَ لَمْ تسأل عن أبيك؟ أهان عليك الشيخ وهانت أمك، أم كنت تهرب بلا داع؟!

(٢١)
صفير الريح

هل زاد الظلام فجأة أم أنا من يتخيل أن الظلمة حلت كثيفة خانقة!

أحاول أن أشهق أن أدخل الهواء لرئة تستغيث، مادت بي الأرض فجأة، وبدأت الجدران في الاهتزاز كأنها ستسقط فوق رأسي! أستند على الجدران المتمايلة فيزيد ترنحي، يمسك بي العم عبد الملك، يمنعني من السقوط، ويجلسني على طرف الأريكة المتربة الممددة وحيدة في الرواق، الأريكة التي شهدت جلسات العصر، وأمي تتسامر مع الجارات، تزفر حين يعاودها الحنين لأولاد رحلوا صوب الشاطئ في الجنوب، بلا عودة، تنساب الحكايا بين الجارات موجعة تارة، وطريفة أحيانًا، فتدمع أمي من فرط الضحك، يفتر ثغرها عن أسنانها اللامعة، وطابع الحسن يزين وجنتيها!

جميلة كنت يا أمي، ورثت منك زرقة العينين وشعرك البني الداكن!

يتأملني أبي دومًا وهو يردد:

- لم أر يا سليم أحدًا يشبه أمه مثلك!

فترد باسمة:

- ولم أر أحدًا يشبه أباه في الطباع مثلك، أنت خليط يا ولدي من حسن أمك واندفاع أبيك، وهو في مثل سنك!

يمعن أبي النظر لي، يشيح بوجهه نحو باب الدار وكأنه ينتظر أبناء رحلوا بلا عودة، يزفر ويقوم نحو غرفته، يردد الآيات! أسمع صوته الرخيم يرتل: ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾.

ها أنا عدت يا أبي متأخرًا، ربما غبت ستة أشهر، هل كانت كافية لترحل بلا وداع، ستة أشهر فقط يا أبي، هربت من نفسي، وارتميت في أحضان إيزابيلا، ستة أشهر كانت كفيلة بعودتي لأجد الدار خاوية؛ إلا من صفير الريح، وأوراق الزيتونة المصفرة؟!

أفيق على صوت العم عبد الملك يهتف بي:

- هيا يا سليم، قم معي للدار لتغتسل وتأكل شيئًا وتستريح، هيا يا ولدي؛ يكفي هذا!

أخرج معه والنسيج الحريري بيدي، وأوراق الزيتونة الجافة تخشخش تحت أقدامنا.

(٢٢)
النَّصل

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد عندما سمعت باب الدار يغلق بقوة أفزعتني من نومي، تحسست فراش سليم فلم أجده، دافئًا ينم عن رحيله للتو، يا الله، أين ذهب هذا الولد مرة أخرى؟ هل عاد لداره، أم تراه عاود الاختفاء من جديد؟ لا حول ولا قوة إلا بالله، ماذا عساني أفعل؟ هل أخرج وراءه باحثًا عن شبحه وسط الطرقات؟ أم أنتظر عله يرجع مجددًا، ليته يعود! الولد العنيد المتهور، ليته فقط يبتعد عن المشكلات!

هنا وسط الطريق المظلم إلا من بعض القناديل المرتعشة، وخيوط الفجر تحاول أن تشق الظلام، هنا وسط المدينة النائمة، إلا من أغنيات السكارى المترنحين كل فترة يعبرون أمامي لا يلقون بالًا لي، أو بعض الفلاحين، يبكرون نحو حقول الكروم المترامية عند القصر، يجدُّون السير قبل أن ترتفع شمس الصيف الحارة، الوقت وقت قطاف العنب، والكل متعجل لعصر الكروم وتعتيق النبيذ، الكل يختفي فجأة يختفون وسط الطرقات ونحو الحقول، ليعود السكون يلفني من جديد.

إلى أين يا سليم؟ ما الذي أيقظني الآن لأندفع نحو الشارع بلا وجهة؟ وهل غمض لي جفن منذ ليلة أمس؟ سمعت العم عبد الملك يتمتم بأدعية قبل أن يغط في نومه، حاولت النوم فجاءني أبي

متعكزًا على كتف أمي الهزيل، جاءني بعينين هزيلتين تشتكيان، جاءتني أمي تنتحب فتحول بياض عينيها لحمرة كلون الدم!

جاءتني ماريا بشعرها الكستنائي الطويل، ووجهها المستدير كبدر، وعينيها بلون اللوز، أو ربما جاءت بعينين كحيلتين كعيني إيزابيلا، ثم تحولت إلى أنثى بلا عينين، وبجسد حجري أشبه بأجساد الموتى!

اختلطت الصور والأصوات وعلا النحيب، حاولت أن أغمض عيني، فاقتحموا الظلمة، واخترقوا جفوني، وواصلوا التغلغل نحو عقلي!

هربت من كوابيس أبت أن ترحل، فتحت الباب وانطلقت نحو الطريق، هربت بعيدًا عن البيازين كلها، أعدو نحو الحانة، أريد أن أرتمي بحضن إيزابيلا الدافئ، أريد لأنفاسها أن تربت على وجعي، أريد أن ألتهم شفتيها وأغوص في خلاياها، لأتوه هناك فلا أعود، أريد أن أبكي فلا يسمعني غيرها، أن أقص عليها كل الحكاية دون أن أواري خوفي عنها!

أرتقي السلم بقفزة واحدة، الحانة ما تزال مزدحمة بالسكارى، لم يلحظني الخمَّار المشغول بالزبائن، أقترب من الباب المغلق فيأتيني صراخها المكتوم، وصوت جلبة تنبعث من الغرفة، أندفع كثور حرون، فأراه فوقها يصفعها فيسيل الدم من فمها، تصرخ وتغرس أظفارها بجسده العاري، أهجم بلا تفكير فأنتزعه من فوقها، تقوم مسرعة تلملم بقايا ثوبها الممزق، يترنح هو من هول المفاجأة،

أباغته بلكمات عنيفة فاجأته وأفقدته تركيزه؛ أتناول سكينًا من فوق الطاولة وأغرسه بصدره، يغوص النصل، وتندفع نافورة الدماء نحو الأرض، يسقط، جثة هامدة ممددة بلا حراك أمامنا، تصرخ إيزابيلا فأضع يدي فوق فمها:

- هيا فلا وقت لدينا، تلك الجلبة بالتأكيد ستثير شكوكهم، هيا اجمعي ملابسك وارتدي شيئًا يسترك، هيا أسرعي قبل أن يصعد خوسيه الكريه إلى هنا.

نتسلل عبر النافذة نحو الأسطح المجاورة، ومنها للشارع الخلفي، نعدو مسرعين تنقطع أنفاسنا، تصرخ ماريا بي فجأة:

- أيها المجنون! ما الذي فعلت؟!

(٢٣)
كوال إس إيستا دِليما؟!

-لِمَ توقفت؟ هيا إيزابيلا، هيا حبيبتي؛ لا بد أن نختفي قبل أن يعثروا علينا.

- أيها المجنون، لِمَ طعنت الرجل؟ كان يكفيك أن تؤدبه! سيكتشفون أمرنا، ولن ننجو عندها من الإعدام.

- لن يلحقوا بنا، هيا لنختفي بضعة أيام وسط الزراعات، ثم سأتدبر الأمر، لا تقلقي.

- لن أهرب، وما الفائدة؟ سيعثرون علينا اليوم أو غدًا، ألا تعلم رجال الديوان، إنهم منتشرون وعيونهم في كل مكان، لا بد من حيلة، دعنا نفكر في حل، غير الهرب.

- الوقت يمر حبيبتي، إن اكتشفوا الأمر فسيكونون هنا في غضون دقائق، هيا.

تحتد وهي تقول:

- قلت لك لن أهرب.
- كوال إس إيستا دِيلِما؟! ما هذه الورطة؟ انتظر .. انتظر من فضلك .. لحظة .. دعنا نعود، سأتسلل ثانية وأختلط

بالموجودين وسط الحانة، وسأفتعل مشاجرة مع أحد المخمورين فينتبه خوسيه، ثم أغضب وأصعد السلم نحو الغرفة أمامه، وأنا ألعن الحانة وصاحبها، سأتمايل وأدَّعي أني مخمورة، ثم أدخل الغرفة، وأصرخ بهستيريا: قتيل بغرفتي، وأعدو نحو الأسفل ثانية، هذا هو الحل بدلًا من الهرب، فقط يجب أن يحدث سريعًا قبل أن يكتشفوا غيابي! اختفِ أنت بعض الوقت، ثم ادخل الحانة وكأنك لا تعلم شيئًا، هيا!

لِمَ تتعقد الأمور هكذا؟ ما الذي دفعني لأطعن الرجل؟ كان يكفيه بضع لكمات وينهار بفعل الخمر، أتمنى أن تصل إيزابيلا في الوقت المناسب، قبل أن يكتشف أحدهم غيابها، أتمنى ذلك.

(٢٤)
يـا أمَّ الـنُّـور .. أغِـيـثـيـنـي

أصرخ فيضع يده فوق فمي، يدفعني نحو الحائط البارد، يعصر جسدي، أحاول أن أصرخ ثانية، يدفعني نحو الأرض، جسده الثقيل يكاد يخنقني، تتحسس يده رقبتي وتهبط نحو نهدي فيعتصره بشراسة، أقاوم فيصفعني، يرفع طرف ثوبي لأعلى، أغيب وسط دموعي وصرخاتي المكتومة، وعيني الشاخصة نحو السقف المرتفع بنقوش العذراء، والملائكة تحمل الوليد بطوق النور حول رأسه!

يا أم النور أغيثيني، أيها الرب خيسوس خلصني! يده تتسلل أكثر، يبعد ساقي، أقاوم، أستغيث ولا مجيب، أبكي! أتوسل فلا أجد إلا الصفعات! أغيب عن وعيي، والدم يسيل من فمي ساخنًا يحرق حلقي، وماء ينهال داخلي، وثور يخور فوقي ثم يبتعد.

أفيق من كابوسي المتكرر على وجه سليم وأنا أرتعد، أتحسس وجهه بيدين مرتعشتين، والدموع تنهمر من عيني، أندس بين ذراعيه فيجفل على منظري الباكي، وأنا أقول:

- لا بد أن تعرف السر، سأقص عليك كل شيء.

(٢٥)
لعنة الأب

هل يمكن أن يكون الأب لعنة عليك، أن تظل عمرك تدفع الثمن لأنك ابن شخص ما، اختارك القدر من بين كل البشر! هربت أمي ذات صباح ولم تعد، ضاقت بهذا الحيوان الذي يصفعها من أجل شهوة مسعورة، رجل يعاقر الخمر طيلة اليوم، وفي المساء ينهش جسدها، وهو ينهال عليها بالصفعات! يتركها والدماء تسيل منها!

طالما رأيتها بعينين متورمتين، والزرقة تصبغ وجهها، كانت تكذب فتدعي أنها سقطت! كنت أصدق رغم الصرخات المنبعثة من غرفتها!

كبرت وعرفت أنها لم تسقط أبدًا، هو من سقط بنظري، وذهبت صورة الأب بلا رجعة، ولحقت به أمي التي تركتني أواجهه وحدي، وحش حين تأخذ الخمر بعقله، فينهال علي ركلًا دون سبب، يقذفني بالكأس أو بأي شيء قريب من يده إن تأخرت في الرد!

كانت حياة أشبه بالعيش مع وحش خارج عن السيطرة، ماذا تفعل بنت لم تتجاوز الثالثة عشرة؟ ليس لها أحد، حاولت الهرب مرارًا، فأغلق الأبواب دوني، إلى أن جاء اليوم الذي نجحت فيه بالفكاك من قبضته!

هربت نحو الكنيسة أحتمي بعقل طفلة بها، تضرعت عند أقدام خيسوس، وانتظرت القس الأكبر حتى أطلب حمايته، انشغلت بصورة العذراء المرسومة فوق الجدران تطالعني وكأنها تربت علي! انفتح الباب وهرولت نحوه أستغيث لأجده أمامي! شيطانًا يرتدي زي القساوسة، ويرسم فوق وجهه علامات الصلاح، ويتدلى الصليب الخشبي الكبير فوق صدره، فيهزه فوق رؤوس الحمقى وهو يرتل.

هنا تحت سقف الكنيسة المبجلة ضاعت آخر أحلامي، لم يسمعني الرب خيسوس، أو يمد لي يدًا! لم تستجب مريم العذراء، وأشاحت بوجهها عني!

صمت الجميع وتركوني فوق الأرض الباردة أصارع عاري وحدي، أصارع ما تبقى من إيمان ظل يخبو حتى حملني نحو حانة خوسيه الكريه!

ما الذي سأخسره أكثر من ذلك؟

(٢٦)
خوسيه الكريه

في الحانة تعلمت كيف أواجه وأدافع وأقاتل من أجل نفسي، لم يلحظ أبي غيابي، أو ربما لاحظ وحمد الشيطان أني اختفيت، تهت بالشوارع هاربة من بيت أبي ومن بيت الرب، تهت فتلقفتني العيون الجائعة، والعيون الناهشة!

حلَّ الليل يومها سريعًا جدًّا؛ ربما لأني كنت وحيدة وخائفة وضائعة، ربما لأني كنت كافرة بالرب، كنت لا أعلم لِمَ لَمْ ينقذني! أشاح عني وأنا أُنتهك تحت سقف بيته، فلم يمد يده لي! تركني ضائعة بالشوارع والليل البارد يخيفني!

تهت وسط المدينة الصاخبة، بين الحانات المشتعلة بالرقص والغناء والدخان وأصوات المخمورين!

رأيت نسوة في الطرقات عجيبات، نساء لسن كأمي وجاراتنا، نساء بدينات ونحيفات، صغيرات ممشوقات وعجائز يحاولن هزيمة العمر بمساحيق لا تخفي ندوب الزمن فوق الوجوه، وملابس أدركت بعدُ أنها تشير لمهنتهن القذرة!

اقتربن بعيون خبيرة، ولسان معسول، وحجج لا تقاوم، دخلت الحانة وأنا طفلة باكية مرتعبة، تمسَّك بي خوسيه، بعد أن برعت في

الرقص الذي جذب الزبائن أكثر، كنت ضائعة بلا ثمن، والآن أنا ضائعة، ولكنهم يدفعون جيدًا، هذا ما جعل الجميع لا يشك بي وأنا أصرخ:

- قتيل بغرفتي!

هل شك خوسيه الكريه؟ وحتى إن فعل فهل يمكنه أن يتخلى عنى! أنا دجاجته التي تبيض ذهبًا! رأيته يدفع للجنود الذين قدموا للتحقيق، الأمر مر بسلام لأنه لا يريد أن يفقد منجم الذهب، نعم تبدَّلت نظراته قليلًا من يومها، أصبح يسأل كثيرًا، وينهر أكثر من المعتاد، ولكننا نجونا على كل حال!

- سليم، أنت الوحيد الذي يعرف سري، سألوني كثيرًا ولم أجب، كنت فقط أدعي بأني يتيمة ولا أحد لي على الإطلاق، فقدت أهلي كلهم بحريق التهم بيتنا ونجوت أنا! فلا تتخل عني الآن وترحل!
- دعك حبيبي من فكرة الرحيل تلك ولنبقَ هنا، ولنجعل خوسيه يدبر لك عملًا مناسبًا.

(٢٧)
أخو الشحطة

كيف لي أن أجيب عن تلك التساؤلات السخيفة؟

كيف بهؤلاء الحمقى أن يفترضوا أشياء، وينسجوا التساؤلات حولها؟ يصرون على إجابة واحدة بعقولهم، يبدو أنها جاهزة ومكتوبة لديهم، وتحتاج فقط لمن يوقع عليها؟!

الأصوات هنا كلها متشابهة، كلها غليظة وباردة وآمرة، الأصوات تزيد صوتًا جديدًا، يبدو أنه أكبرهم، يلتزمون الصمت عند دخوله ويلقبونه بالبيك، أشعر بحركتهم حولي: اثنين أو ثلاثة، وقع أقدام البيك يتجه بعيدًا إلى داخل الغرفة، صوت الكرسي يتحرك من مكانه، يجلس بسطوته في مواجهتي الآن، يعبث ببضع أوراق، يقلب بها ثم يوجه حديثه لي:

- اسمع يا سالم، تعرف أن تهمتك عظيمة، ونحن لا نريدك أن تبقى معنا هنا وقتًا طويلًا! فقط تعاون معنا من أجل أن تخرج، أمك المسكينة ما تزال تبحث عنك، نحن لا نريدها أن تموت حزنًا عليك!

- سيدي أنا لا أعرف تهمتي، تم اقتيادي من البيت، عصبوا عيني، استجوبوني ولم أفهم! حملوني نحو سيارة مكتظة اهتزت بنا نحو خمس ساعات، جئت هنا، وتم ضربي وإلقائي بغرفة مظلمة وحيدًا، لا أعلم كم يومًا غبت عن الوعي فيها، والآن سيادتك تقول إني أعرف تهمتي، سيدي أرجوك، لِمَ أنا هنا؟

- يبدو أنك تصر على الإنكار، نحن لا نريد أن نؤذيك، يمكنك أن تخرج بسهولة، فقط تعاون معنا، نريد أسماء شركائك، فقط أسماء.

- أي أسماء؟ وشركائي في ماذا؟!

- أنت زعيمهم، أليس كذلك؟

- سيدي أرجوك، أنا لا أفهم شيئًا، أي زعيم؟ أنا أستاذ جامعي، ربما أبدو صغيرًا ولكني كذلك، كنت أول دفعتي، لا أعرف عن ماذا تتحدث، وما التهمة الموجهة لي.

- إذن فإنك تصر على الإنكار، ربما بعض الشحنات ستنعش ذاكرتك، هيا أنعشوا ذاكرة أخو الشحطة قليلًا، فربما يحتاج لبعض الإثارة!

يضحك بصوت عالٍ، وهو ينادي على الواقفين حولي، هيا ابدؤوا الحفلة!

(٢٨)
حبيبتي ماريا إيزابيلا

هل تشعل الورقة وتراها تحترق أمامها، وتلتف حول نفسها، وتلتهم كل السطور التي كتبها طيلة الليل كما يقول؟ هل تنزل للحانة الآن ترقص كما لم ترقص من قبل، وتتجرع عشرة كؤوس لتغيب وتنسى! هل تدور على الطاولات فتدعو أكثرهم وسامة، تقضي معه ليلتها، علَّه ينسيها إيرناندو وقصته وحياته كلها؟

دارت كالمجنونة بالغرفة، ارتمت فوق الوسادة تتشمم رائحته!

كيف يرحل هكذا، فجأة بلا إنذار، بلا وداع، مجرد خطاب هزيل بخط مرتعش، متى كتبه؟ لا تعلم، ربما استغل نومها، وتسلل من حضنها، وأشعل السراج، وخط تلك الحروف!

أفاقت من النوم على جلبة الحارة المعتادة، تحسست مكانه البارد بجوارها، فزعة تنهض تنادي عليه، تفتش الغرفة، وتفتح الباب لتنظر في الرواق، ترتدي ثوبها سريعًا وتنزل للحانة الخاوية إلا من الكراسي الخشبية المقلوبة فوق الطاولات، والصبي الأشقر ينظف الأرضية الخشبية بهمة، وهو يدندن!

تسأله فيلتفت لها مندهشًا حين يراها شعثة، لم تنفض غبار النوم بعد، يهز رأسه بالنفي، فتصعد الدرج بسرعة نحو الغرفة، تدخل كالمجنونة تروح وتجيء بلا داعٍ!

ما الذي يقلقها؟ ألم تعتد غيابه المفاجئ وظهوره المفاجئ؟
ما الذي يفزعها تلك المرة؟ أخوفٌ هو من رحيله بلا عودة! تهز رأسها الجميل وتسرح بعينيها نحو الشرفة المفتوحة على الحقول البعيدة وتتساءل: أين هو؟ هل قرر رحيلًا بلا عودة؟
تهرع للزجاجة تصب منها شيئًا، وتقذف السائل الحارق نحو جوفها فيزيد اشتعالها، تلمح طرف الورقة المطوية تحت الزجاجة، تفضها وتشرع تقرأ الخط المتعرج المرتعش:
«حبيبتي ماريا إيزابيلا الآسرة المستحوذة: كيف أبدأ حكايتي؟ التزمت الصمت طيلة أشهر! كنت تسألين ولا أجيب، كنت أكتفي بإجابة واحدة، برد واحد لم يشبع فضولك يومًا، أعلم أني كنت غامضًا، مريبًا بعض الشيء، منفعلًا ومحتدًّا، أعلم أنك ربما تكرهينني بعدما تنهين السطور التي كتبتها على عجل، وأنا أتفحص وجهك المستدير كبدر، يتراقص ضياؤه على ضوء القنديل المرتعش!
دعيني نور عيني أقص حكايتي، ولتغفري لي ما أخفيته عنك، فقد خفت أن أفقدك، أن أفقد ملاذي الأخير، فلتسمعي حكايتي للنهاية، وإن كنت لا أعلم هل نهايتها قاربت، أم إنها بداية لحكاية أكبر».

(٢٩)
موريسْكو إستا سوثيو

لم يكن لي ملاذ وقتها، عندما دخلت الحانة أول مرة ليلًا، خائفًا، مشتتًا، ضائعًا! تاهت يومها معالم الطرقات أمامي ووجدتني أمامك، غجرية سلبت عقلي من أول وهلة، اختلطت عليَّ الأسماء والوجوه، اختلط عليَّ وجهك بوجهها، تراقصت فهزت مشاعري المتأججة يومها، يوم محاكمة ماريا.

هل تعلمين ما المحاكمة؟ هل تدركين بشاعة أن يُساق المرء بلا جريرة، بلا تهمة، يختفي فندور نبحث عنه، نطرق الأبواب، أبواب أناس ربما، يعرفون أناسًا، ربما يعرفون من يعمل بالديوان، حاجبًا أو كاتب عدل؟ وأين العدل فيما يحدث؟

صبيحة اليوم المشؤوم، اقتادوها نحو المجهول، هرولت خلفهم بلا جدوى، لحقتهم فركلوني، ومنعني الشيخ، دفعني بعيدًا، فاقتادوها وحدها، اتهموها بالسحر والهرطقة، ماريا الجميلة الوادعة تمارس السحر؟!

كنت أدور كل يوم أبحث عن مخرج بلا جدوى، سليم الموريسكي المحتقر، والبيازين المحاصر المنبوذ، يمرون علينا فيبصقون، تتناهى إلى مسامعنا:

- موريسْكو إستا سوثيو! موريسكي قذر!

نشأت لا أعرف من أنا، في البيت ينادونني سليمًا، وفي الخارج إيرناندو، أخفي اسمي ولغتي، تعايشت وذهبت للكنيسة، وصليت عند أقدام المسيح الصنم، بداخلي كتمت كلمات أبي عن الرب الواحد الأحد، والنبي العربي الأمجد، كلنا تعايشنا تحت الحصار المضروب حولنا، حتى ماريا كانت تذهب لتجثو هناك، فيباركها القس ويرسم الصليب فوق رأسها!

لِمَ اقتادوها إذن! لِمَ أحرقوها أمام عينيَّ؟ ثم لأجدها متجسدة مرة أخرى ترقص بعفوية واندفاع، مهرة تقترب فتحرقني، هي أنت!

العزيزة الآسرة إيزابيلا، نعم، كنت أنت ماريا، تصورت للحظة أنها عادت تحتضن ما تبقَّى مني، نجت من الموت والنار والعذاب، عادت ترقص منتشية بالنجاة!

ماريا كانت كل شيء، لم تكن مجرد حبيبة يشتعل القلب حين يراها، كانت رفيقة أيامي منذ عرفت أن للدار بابًا لصيقَ بابهم، وأن للحارة عبقًا يختلف كلما مررت عند سور بيتهم، بياسمينة تتدلى من فوقه، تدعوني برفق لأطرق الباب وأراها.

والآن لن أستطيع البقاء أكثر، لن أستطيع أن أراك ترقصين كل يوم، لن أجرؤ على العودة ثانية بدم بارد، أشاهد السكارى يتناولون لحمك كل ليلة على مائدة شهوتهم، فتثيرهم رقصاتك وتفتح شهيتهم أكثر، تتمنعين فتثيرينهم أكثر، وها أنت قد رأيت ما حدث، وقتلي الرجل من أجلك، نجونا تلك المرة، ولكن من يدري؟ سيغلي الدم برأسي كل ليلة، وكل دقيقة تمر علينا هنا هي بمثابة محرقة لي، كما أحرقوا ماريا.

أنا هناك في البيازين، هناك ستجدينني منتظرًا، سأعود لبيتي، إن أردت اللحاق بي فسأكون في انتظارك.

(٣٠)
سقطت أوراق التوت

ما أعجب الحفلات هنا! صاخبة مجنونة على طريقتهم! الصرخات تنبعث من كل الغرف، من الأقبية، من الجحور، من تشققات السقف وطلاء الجدران المتساقط، الصرخات هنا طويلة مدوية، مفزعة أو هزيلة، تئن ثم تخبو رويدًا حتى تختفي!

الحفلات هنا لا تتوقف! ليلًا ونهارًا، ظهرًا وفجرًا! وعندما يتسلل النوم لعينيك أخيرًا بعدما تتغلب على الآلام والكوابيس، يفتحون الباب ويجرونك ثانية، لتبدأ حفلة جديدة!

الملاعين يتفننون كل مرة في أساليبهم، يبدو أنهم لا يريدون لنا أن نشعر بالملل! بدأت حفلتي في العاشرة مساء، ما تزال العصابة فوق عيني، وما تزال يداي خلف ظهري! اختلفت الحفلة هذه المرة، اقتادوني لغرفة أخرى، كانوا ثلاثة على ما أعتقد، دومًا كانوا يخفون أسماءهم، ينادي بعضهم بعضًا بحروف فقط، حروف غير مكتملة، حتى إني ربطت حرف كل منهم بصوته وهيئته بعقلي!

الغرفة تنبعث منها رائحة حفل شواء لحم بشري، ما تزال عالقة بالهواء، لكزني «ص» بعدما أمره «ع» بأن يتوجه بي نحو الطاولة التي تقبع بمنتصف الغرفة على ما أظن!

دفعني فاصطدمت بحافة باردة مسننة، غاصت بجنبي الأيمن فتأوهت، علت الضحكات الساخرة! مددوني فوق الطاولة المعدنية التي أتصورها محفَّة الطوارئ في المستشفيات، التفوا حولي، أشم أنفاسهم الكريهة فوق رأسي، نزعوا سروالي، تغامزوا، بدت سوأتي أمامهم، سقطت كل أوراق التوت هنا، عبثوا بي، أوصلوا أسلاكهم اللعينة بخصيتي، ثبتوا ساقي، عاد الصوت الآمر من خلفي:

- هيا أعلى فولت!

أنتفض وأصرخ صرخات مدوية، تهتز عروقي، تنتفض أوردتي، يرتعش قلبي، أغيب وأنا أردد:

- الله .. لا غالب إلا الله!

(٣١)
شوية كهرب

الوجع وحشٌ كبيرٌ، يبتلع البشر والحجر، ويهز بصرخاته الجدران المتهالكة المتصدعة، الماثلة هنا منذ عشرات السنين تسترق السمع، تهتز كلما دوت صرخات المعذبين، ترتعش مع ارتعاشاتهم، فتزيد شقوقها، يرتفع السقف المجوف للداخل ويهبط، يتنفس الغضب معنا، ثم يزفره رائحة كريهة تملأ المكان!

أفتح عيني ببطء يليق بوجعي، يليق بجفوني الثقيلة كأكياس ملح يشق عليَّ تحريكها، ولا تنفرج إلا عن ضوء شحيح ولكن، أين أنا؟ هل تحت التراب أرقد الآن، وتحوطني زبانية الجحيم بصحف فيها اسمي وعملي، هل تبدأ محاكمتي الآن؟

ربما تشفع لي تلك الندوب التي علت جسدي، ربما تشفع الدماء التي تسيل مني، والقروح التي تنز صديدًا ساخنًا!

ما أزال أشعر بطعم الدم بفمي، يبدو أني لم أمت منذ فترة، هل طوحوا جثتي بمؤخرة الشاحنة، هل تناوبوا السخرية من جسدي الملقى بلا حراك، وظلوا يتفاخرون، ويقرعون أكواب الشراب فوق رأسي! ربما حملني أحدهم، وألقى بي بلا اكتراث بحفرة صنعوها على عجل، وسط الصحراء؛ حيث الشمس التي لا تغيب!

تساقط عرقهم الكريه وهم يحفرون لحدي فسبني «ص» بصوته الأجش، ثم انهال التراب الساخن فوق وجهي، ملأ فمي وأنفي، وسرى ببطء نحو شراييني الباردة المتصلبة، ولكن ما لي لا أشعر إلا بطعم الدماء بحلقي، وغصة جعلتني أسعل مرات عديدة؟!

كيف لميت أن يسعل ويشعر؟!وهل مِت من قبل يا سالم حتى تعرف كيف يشعر الميت!

- لَكْ فُوء يا خو الشليتة، شو هاد؟! قاطع النفس من شوية كهرب؟ شكلك جديد هون!
- إيه أبو رامي، هاد الزلمة اللي شرف من أسبوع، مع هادول الدفعة الجديدة!
- مشان هيك ما قادران يفوق! صب عليه شوية ماي، بدنا نخليه يفتح عيونه!

الأصوات تأتي من بعيد، الفرجة تزيد على ضوء شحيح، ووجوه تطل عليَّ، يتحدثون فألتقط بعضًا من حديثهم، لست بميت على كل حال، أحاول أن أبتسم فتتقلص عضلاتي، وأشهق في ألم، تتناولني الأيدي، تتحسس نبضي، يقترب أحدهم من صدري، ويلصق أذنه فتستجيب نبضات قلبي الضعيفة، يبتسم الرجل ويحاول أن يكلمني، تصل حروفه مشوشة وغير مفهومة، أشهق ثانية:

- أين أنا؟

(٣٢)
أبو رامي

يأتي الصوت من وراء الرؤوس المتجمعة فوقي، يقترب بطوله الفارع وشاربه الكث ورأسه الحليق، يبتسم بحنو أب، يقترب فيجثو بجانبي، تتسع ابتسامته عن أسنان سقط بعضها، اقترب ليجلس في مواجهتي، ومد يده مصافحًا، وهو يسأل:

- كيف حالك الآن، ظننا أنك مت، يبدو أن الحفلة كانت قوية، وأنت لما تعتد على حفلاتهم بعد.

أهز رأسي المثقل وأنا ابتسم، أخيرًا أنا وسط أناس يتحدثون بلغة أفهمها، بلا رموز، بلا ركلات، بلا «ص» وصوته الأجش الآمر، تابعت دون أن يسألني، أحاول أن أتحدث بعد أن اعتقدت أني فقدت القدرة على الكلام:

- أنا سالم، أستاذ بالجامعة، لا أعلم بالضبط متى جئت إلى هنا، ربما انقضى أكثر من أسبوعين وأنا بقبو مظلم، أتقاسمه والفئران التي تمرح حولي، حتى باتت صديقة، تقاسمني فتات الخبز الذي يرمونه لي كل فترة، بالأمس أخرجوني لأول مرة من القبو نحو الأعلى، صعدت ثلاثين درجة معصوب العينين،

وانتهى بي الأمر وأنا فوق طاولة موصولًا بأسلاك، وكلي ينتفض، اعتقدت أني مت والملائكة حولي بصحائف أعمالي؛ حتى سمعت أصواتكم.

هز رأسه وهو يبتسم ويعرفني بنفسه:

- أنا أبو رامي، كما يناديني الجميع.

ضحك وهو يتابع:

- لك أن تقول إني هنا قبل أن تولد، أنت بالتأكيد متعب، ارتح قليلًا، وعندما يجهز الشاي لنا أن نتحدث، مضى النهار وأنا أتابعهم، الغرفة المستطيلة بعض الشيء، معتمة قليلًا، يتدلى من وسط سقفها المجوف مصباح واحد هزيل، يحاول أن ينشر ضوءه قدر المستطاع، فترتسم الخيالات فوق الجدران الصفراء الكالحة شخوصًا بهيئات هزيلة تروح وتجيء، الأسرَّة فرُش متآكلة يطويها صاحبها بجانب الجدار، ليَفسح المكان للحركة، الجدران مغطاة برسوم ركيكة وجوه أطفالي مبتسمون، وأرقام لسنوات مضت، سنوات كنت فيها ما أزال طفلًا لا يعلم شيئًا عن هذا المكان! الجميع هنا يتحرك في حدود ما يتناسب مع المكان الضيق الكريه! بدأت أتفحص الوجوه حولي، أتأمل هؤلاء الذين أمضوا حياتهم هنا، أهل كهف لا يعلم عنهم العالم شيئًا! من أين ينبع ذلك الرضا الذي أراه؟! افترشوا الأرض

بجواري، وراح أصغرهم سنًّا، ذلك الشاب النحيل جدًّا -وكأنه سيتكسر من ضعفه.

راح يصب الماء العكر من زجاجة بلاستيكية مقوسة تستند على الحائط، ليصنع الشاي فوق الموقد البدائي، الجميع تحلق، وكأنهم في نزهة، ناولني أحدهم كوب الشاي الساخن، أول كوب أحظى به منذ أسابيع، أول صحبة وحوار ووجوه تطل بلا أسئلة، بلا أسئلة.

(٣٣)
الشَّاي المُر

هنا عالم جديد، عالم حدوده جدران أربعة أسمنتية قاسية كقلوب الجلادين الذين أخذونا هنا أسارى جشعهم، وخساستهم، وتجبُّرهم، جدران شهدت حكايات تنسج على مهل!

الأيام تتوالى بلا توقف، تتوالى ببطء قاتل! الأيام هي الأخرى نوع مختلف من العذاب، الأيام التي تمر ثوانيها ساعات، وبعذاب لا يحتمل، الأيام التي تمر ببطء وأنا تحت مقاصل الحراس، تمر بسرعة خارج الأسوار فتغتال الأعمار بسكين بارد صدئ!

أراني أشهد مسحتها فوق الوجوه المتحلقة حول كوب الشاي بطعم الماء العكر، يرتشفونه على مهل، وكأنهم يستعيدون ذكرياتهم مع كوب أشبه بهذا، كوب شاي ساخن له مذاق آخر، في مكان آخر، وسط أناس آخرين، ربما بجانب زوجة جميلة، تميل كل فترة وتهمس لك، فتبتسم لدعاباتها وأنت تتابع طفلك يحاول السير فيسقط، ويعيد المحاولة مرة أخر، فينظر إليك؛ لتبادره بنظرة تشجيع تجعله يكمل خطوة أخرى، يتصايح فرحًا ويصفق بيدين مكتنزتين، بأصابع صغيرة، تقوم لتحمله وتقبل خديه قبل أن يترك حضنك،

معاودًا محاولاته للمشي مجددًا، تعاود أنت ارتشاف الشاي على مهل، وكأن العالم توقف عند تلك اللحظة!

يلذعني طعم الشاي المر فأسعل، تفيق العيون من شرودها، تعود لواقع الغرفة المستطيلة بعض الشيء، المعتمة قليلًا، حيث تتراقص الشخوص الهزيلة فوق الجدران.

ألا تعلم أن لكل منهم حكاية؟ همس أبو رامي وهو يقترب ليجلس بجانبي، ممسكًا بكوب الشاي الساخن بكلتا يديه، انتبهت من شرودي على صوته الهامس، وعينيه اللتان تدوران بين الجمع!

(٣٤)
اغتيال الرجولة

وأنا أيضًا لي حكاية، ربما حكايتي لم تكتمل، ولا أعرف هل ستنتهي فصولها هنا! هل ستُدفن الحكايا هنا خلف تلك الأسوار اللعينة؟

التفت لأبي رامي وعيناي تهربان صوب الكوة الصغيرة المعلقة عند السقف، النهار شارف على الانتهاء، والشمس تميل قليلًا فيخف حدة الضوء المنساب من الفتحة الصغيرة، المنفذ الوحيد نحو الضوء والعالم والسماء الفسيحة.

هل أقص حكايتي عليك؟ ينتبه الرجل من شروده، تتعلق عيناه بي، أتلعثم أولًا وأسعل كمن يريد أن يستجمع الكلمات، ويحفر بعقله عميقًا حتى يتذكر، وكأني نسيت من أكون، أنسانيه العذاب والسباب والمذلة.

تتجرأ دموعي لأول مرة فتنساب قبل الكلمات، لم أخفها، تركتها تنهمر؛ فربما تريحني قليلًا، ربما أستطيع أن أتحدث أخيرًا.

من أين أبدأ إذن؟ من يوم تخرجي؟ أم من اليوم الذي ولدت فيه لأب من عائلة كبيرة؟!

لم نكن من هؤلاء الكبار بلغة اليوم، فلم يمتلك أبي ثروة قط، ولم يمتلكها أجدادي كذلك، ولكننا ورثنا شرفَ نفسٍ، وأصلًا يغني

نفوسنا، لم نشعر يومًا بأن المال يمكن أن يرفعنا، رغم حاجتنا أحيانًا؛ ككل أفراد الطبقة المتوسطة الذين يحاولون أن يحيوا بكرامة! ككل الشرفاء، الذين لا يقبلون الحرام!

رحل أبي قبل أن أبلغ العاشرة، عشنا أنا وأمي حياة الكفاف، كانت تصر على أن أتفوق، وأكمل دراستي، طرق بابها الكثيرون ولكنها عاشت لي، كانت جميلة، وما تزال، ورثت عنها تلك العيون، ولون الشعر والبشرة، وورثت عن أبي عزته وإصراره ونبله، حكت لي أمي كثيرًا عن مواقفه التي لم أرها؛ لكنني تخيلتها، وحفظتها، عن حلمه الذي مات قبل أن يراه، حلم حاولت أن أحققه! دفعتني أمي -رغم المشقة- نحوه، حتى كنت الأول دومًا على أقراني! كنت رغم حداثة سني أمهر من كثيرين، تم تعييني بالجامعة ضد رغبة الكثيرين من الأساتذة، كانت صفعة فوق وجوههم، وكأن الأمر عندهم بالوراثة لا بالاجتهاد، وضعوا العراقيل أمامي ولكنني كنت أتجاوزها دومًا، أغاظهم التفاف الطلاب حولي، لم يستطيعوا استمالتي، كنت أرى تلاعبهم واستغلالهم للمناصب، ابتعدت قدر ما أستطيع، حتى جاء اليوم الذي عاد فيه ابن الأستاذ الكبير من الخارج، الابن الفاشل الذي أرسله أبوه ليحصل على شهادة من إحدى الجامعات المغمورة، ورجع ليساومني! رفضت أولًا، وتكررت المحاولات، صعدت الأمر لرئيسي المباشر، ثم لرئيس الجامعة، لأجد نفسي هنا!

قرعوا باب بيتنا ليلًا، روَّعوا أمي وحطموا الأثاث، فتشوا كل شيء، لم يسلم حتى قفص العصفور المسكين فمات من غلظتهم، عبثوا بمكتبتي، وحملوا الكتب، واقتادوني معصوب العينين، دسوا أوراقًا أظهرها المحقق أمامي، وادعى أنها لي، استغلوا حب الطلاب لي، فادَّعوا أني أسعى لاستمالة الطلاب، وأنشر أفكارًا مضادة لسياسة الدولة؛ بل وأزيدك من الشعر بيتًا، اتهموني أني قد رشوت أحدهم، وأني لا أستحق الأستاذية.

دارت الأرض بي، دافعت عن نفسي فعذبوني، أرادوا أسماء شركائي، صرخت فيهم، اغتالوا رجولتي بعصا غليظة، و و و ..

أدرت ظهري للرجل، تكومت على نفسي يرتعش بدني، وأغمضت عيني لأرى أمي تهدهدني طفلًا .. أستجلب النوم! يلقي أبو رامي الغطاء الخشن فوق جسدي وهو يردد:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

(٣٥)
ياسمينة ماريا

وسط الفناء الفسيح المترب، مُمَدَّدٌ أنا بلا حيلة، بلا أهل، وحدي هنا بجوار بئر دارنا العتيق!
صوت أمي ينساب إلي وهي تعدو ورائي، صغيرًا، عاريًا، أهرب من قبضتها الحانية القوية، تفلح في الإمساك بي أخيرًا، ترخي الحبل فيسقط الدلو مرتطمًا بسطح الماء الساكن، أحاول التملص منها ثانية، أصرخ فتحكم قبضتها، تجلسني وسط الطست النحاسي، تصب الماء برفق، فأعاود الصراخ، ينساب الماء باردًا أولًا، ثم منعشًا رقراقًا!
أتوقف عن صراخي، ألهو بالماء المنساب فوق رأسي، ممزوجًا بابتسامة أمي ويدها الحانية تفرك الأوساخ عن جسدي النحيل، ألح عليها أن تصب المزيد من الماء فوق رأسي، تتحول صرخاتي لضحكات تعلو، ألهو طويلًا، حتى ينهرني أبي بعد أن تفشل محاولات أمي معي، تخرجني وأنا أبكي، تضع قطع الحلوى بفمي، وتهدهدني حتى يتسلل النوم لعيني أخيرًا!
أراها هناك بنفس اليد الحانية، تداعب خصلات شعري البني الداكن، وهي تقص علي حكاية الأندلس المنسية، وملك بني أمية، تسرد حكاية وراء الأخرى، أغفو وأفيق على صوتها، ترفع رأسي من

حجرها لأستسلم لنوم ممزوج بوجه أبي، والشيخ عبد الملك يتلو الآيات في خشوع، يجلسني وماريا أمامه، نردد وراءه بلا تركيز، ونحن نسترق السمع لصخب الأطفال بالحارة!

يبتسم الشيخ ويتركنا أخيرًا فننطلق نحو الحارة ننهمك باللعب، ونعود بثياب متسخة، ووجوه متربة، وصوت أبي وهو يستدعيني لأقف كالمذنبين بين يديه، وعيناي تتأملان الخط الأندلسي العجيب، المتعرج فوق اللوحة الحريرية:

- يا سليم لا يجدر بك اللعب هكذا كل يوم، لقد كبرت يا ولدي، والشيخ عبد الملك يشتكي سوء حفظك! ألا ترى ماريا وهي تحفظ الآيات والأشعار أسرع منك، من الآن لا مجال للعب بالحارة، واختلاطك بأبناء القشتاليين هكذا!

آن الآوان لتتعلم مهنة تنفعك، وتكون مصدر رزقك، فلن أبقى لك العمر كله، ولا يطاوعني قلبي على إرسالك صوب فاس لتلحق بإخوتك، لا أريد أن أموت وحيدًا يا ولدي، من سيقف يتلقى عزائي إن مت وأنت بعيد؟!

من سيبقى مع فاطمة، يجبر كسرها بفقد زوجها وشتات أولادها.

يخبو صوت أبي وتثقل جفوني، ينساب الظلام كثيفًا حولي، وتهب نسمة محملة برائحة ياسمينة ماريا، لأفيق على قرع الباب المتواصل، والشمس تفترش الساحة المتربة.

(٣٦)
هل تتزوجني يا سليم؟!

أتجه للباب وأنا بين الحلم واليقظة، والشمس تخترق جفوني المثقلة بأضغاث أحلام ليلتي الأولى، ببيت خاوٍ، وذكريات مشوشة، من سيطرق بابي قبل أن تصحو المدينة ويفيق أهلها؟ من سيطرق باب بيت مترب، رحل ساكنوه إلا من ذكريات تفترش الأسرة الخاوية؟

ربما عرف رجال الديوان أني شججت رأس الثور الذي هاجم إيزابيلا! هل عرف الشيخ بوجودي هنا؟ هل رأى أحد الجيران شبحي أتسلل ليلًا للبيت الخاوي؟

لم أكن أعلم أنها تفتقدني لهذا الحد؟ لم أتصور أن تأتيني مسرعة، باكية، ترتمي بحضني ما إن فتحت الباب.

إيزابيلا العزيزة المجنونة الآسرة، ألتهم شفتيها، لا أمهلها لنصل إلى فراش لين، أغيب بعالم آخر، عالم ينسيني ليلتي الأولى، الحزينة الخاوية، أفرغ فيها حنيني، ووجعي، وشوقي، وطفولتي، وحاجتي لحضن حنون، وصدر يحتويني، وتفرغ هي حاجتها للحماية،

والحب، والتماهي، أتأمل وجهها الباكي المستدير كبدر، تخرج حروفها بصعوبة وسط نشيجها:

- هل تتزوجني يا سليم؟

لم تزد عن تلك الكلمة، ولم أنطق!

تسمرتُ مكاني كالمبهوت، فهذا آخر ما توقعت منها، أن تترك كل شيء –وبهذه السهولة– من أجلي.

أفقت من ذهولي على يدها الرقيقة فوق خدي، وهي تهمس بصوت حنون:

- ما بالك حبيبي؟ ألا تصدق أني أريد الزواج منك؟ سأترك كل شيء من أجلك أنت! فدعنا يا حبيبي نهرب بعيدًا عن الحانة، ورائحة السكارى، وخوسيه الكريه!

تغيرت نبرة صوتها، علاها حزن، وزاد صوتها انكسارًا ووجعًا:

- سئمت كل شيء يا سليم، تعبت من تلك الحياة، تعبت من كوني جسدًا للإيجار، يحصل عليه من يدفع أكثر لخوسيه، تعبت من الرقص أمام تلكم العيون النهمة كل يوم، من رائحة سكرهم التي تملأ المكان، من أياديهم الخشنة تعبث بجسدي! تعبت من كل شيء، تعبت من كوني عاهرة، من نظرات النسوة بالطرقات، من غلقهن الأبواب بوجهي عند مروري، من

همساتهن وراء ظهري، أريد أن أعيش مثلهن، أن يكون لي أطفال أقبلهم كل صباح ومساء، أريد بيتًا يا سليم، أريد عائلة أحبها، أريد رجلًا يحميني كما فعلت أنت.

- هيا اتبعيني!

أمسكُ بيدها وأعدو نحو بيت الشيخ، تجري معي دون أن تفهم، تحاول أن تتوقف، تسأل فتمنعها لهفتي، لم أزد عن:

- هيا اتبعيني!

أطرق باب الشيخ بلا توقف، الوقت مايزال مبكرًا، ولكنه الآن ربما أنهى صلاته، وجلس يسبح كعادته، وقف أمامي مذهولًا، وأنا ألهث وأكرر بسرعة:

- اعقد لي على ماريا!

(٣٧)
تعاليا

يقف الشيخ مذهولًا، صامتًا، ساكنًا؛ إلا من عينين تدوران بيني وبين إيزابيلا، محاولًا فهم الموقف، ثم عاد ليستجمع كلماته موجهًا حديثه إلي:

- سليم، من أين ظهرت؟ وأين اختفيت فجأة؟ ومن هذه الفتاة؟

ندلف إلى الدار، أترك إيزابيلا بساحة البيت، وأتوجه بالشيخ نحو غرفته، أُغلقُ الباب وأطلبُ منه الهدوء لأفهمه الأمر، أقص عليه كل شيء، كل شيء عن إيزابيلا، عن الحانة، عن رقصها، عن الثور الذي شججت رأسه دفاعًا عنها، عن خوسيه الكريه، عن أبيها الذي تخلى عنها، عن رغبتي في الزواج منها، عن رغبتها في البعد، ورغبتي في العودة لنفسي، عن كرهها لهم، عن القس الذي انتهكها، عن كفرها برب الكنيسة الذي تركها تحت سقف بيته ولم يمد لها يدًا.

توسلت للشيخ ألا يردني، ألا يردنا، يصمت طويلًا، لا يجيب، ظل وجهه جامدًا لا يشي بشيء، يطرق للأرض وكأنه يهرب من عيني، أو كأنه يفكر ولكنه لا يجيب، طال صمته وصمتي؛ إلا من دموع

تسكن عيني، فلا تنزلق ولا تعود، أتركه وأخرج نحو إيزابيلا التي تنتظرني ولا تفهم شيئًا، نفتح الباب، نهم بالرحيل، فيأتينا صوت الشيخ مناديًا.

(٣٨)
بُـرعُـم الـفُـل

يدخل الشاهدان، رجلين من أهلنا الأمناء، يتقدمهم شيخ هَرِم تجاوز الثمانين على ما أعتقد يلتفون حول الطاولة المنصوبة وسط الغرفة الفسيحة! وأجلس عند طرف الأريكة المقابلة!

يأخذني الشيخ عبد الملك نحو غرفة إيزابيلا، نستأذن في الدخول، تقف إيزابيلا وسط الغرفة، بثوب أخضر داكن منقوش بمنمنمات ذهبية، مفتوح الصدر، متسع يكاد يظهر نهديها المكورين، مزركش بالدانتيلا، أنيق، لو لم يكن مجعدًا متسخًا، بسبب ليلتها الصعبة!

تحلقت بعض الفتيات من جاراتنا حولها، يعدلن ما أمكن من فستانها وهيأتها، ويمسحن وجهها بمنشفة مبللة، ويرششن عليها بعض العطر، حتى ظهر بهاء وجهها، وتألقت عيناها الجميلتان اللتان تضربان نحو الخضرة بفرحة كبيرة!

تقدمت إحدى العجائز، وفتحت خرقة حريرية لفت فيه قطعة ثمينة من الذهب، تبرز منها بعض فصوص الزمرد، الخضراء النفيسة، وهمست:

- هذه أمانة من أم سليم كانت عندي، لزوج ابنها سليم! أنت الآن ابنتنا، والأحق بها.

ومالت عليها فقبلتها وسط دهشة إيزابيلا، وفرحة غامرة بهذا العقد الثمين الذي أهدي إليها على غير ترقب، صارت العروس فتنة للناظرين؛ بفستانها الأخضر، وعينيها الضاربتان للخضرة، وعقدها الزمردي النفيس!

كان الشيخ قد نبَّه على الموجودات بعدم الجلبة المعتادة في الأفراح، وعلى الموجودين بالتزام الصمت، وعدم إفشاء سر تلك الزيجة!

ثم أخذ يوجه حديثه لإيزابيلا، أطلعها على شروط العقد، والمهر، وأفهمها أنه سيكون وليها، وأخذ موافقتها أمام الشاهدين، وأخبرها بوضوح أنها ستكون لسليم ولسليم وحده، على السراء والضراء، ما بقي لها من العمر، فابتسمت في حبور، وهزت رأسها بالموافقة! وانسلت مع البنات لحجرة مجاورة!

كانت كمن يطفو فوق السحاب؛ لم تحلم بمثل هذا الحلم، ولم تحس بهذا الهدوء النفسي، والفرحة الغامرة من قبل! لأول مرة بعد سنين من المعاناة كأنها القرون، من المواجع، والإهانة، والاغتصاب، وأنفاس السكارى، وافتراس جسدها الرقيق بوحشية

وجوع، أحست ثانية بإحساسها الذي نسيته طويلًا، أنها إيزابيلا، برعم الفل الأبيض الرقيق.

جلسنا حول الطاولة، تلا الشيخ الذي أنهكته السنون والوجع والاختباء والأقنعة الكريهة التي يلبسها خارج هذا المكان:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أسلمت صفحة يدي ليد الشيخ عبد الملك، والشاهدان حولنا، وقلبي يتراقص وجلًا وفرحًا، وسمع إيجابي وقبولها!

سالت الدموع في العيون بديلًا عن زغاريد البهجة، واحتضنني الشيخ عبد الملك هامسًا بأذني:

- مبارك يا سليم، فلتحافظ على زوجك يا بني، وليجمع الله بينكما على خير!

دخلت الفتيات بشراب اللوز البارد، وانطلقت نحو غرفة العروس وسط ضحكات الجميع، جلست عند طرف السرير في حياء حقيقي، أخفته طويًلا لمواجهة حياتها الدنسة السابقة، اقتربت منها، وطبعت قبلة فوق جبينها، ضممتها وارتاحت فوق صدري، وارتمت علي في لهفة، همست بأذنها:

- الآن فقط أنت لي وحدي، الآن فقط يا إيزابيلا.

(٣٩)
لماذا يتركنا الرب دومًا عندما نحتاجه؟!

الليل هنا هادئ، إلا من نباح كلب كل فترة، السكون ينساب في الهواء محملًا بسكينة عجيبة ورائحة ياسمينة قريبة، البيوت هادئة، والقناديل المعلقة عند أبوابها تهتز مع الريح الخفيف، تتراقص هي أيضًا في سكون عجيب؛ وكأنها لا تريد أن تحدث جلبة فتوقظ النائمين!

الليل هنا ليس كليل الحانة الصاخب، المفعم بضجيج السكارى وشجارهم، ربما الليل هنا مختلف، خلق للنُساك والعاشقين، وليل الحانات خُلق للسكارى، يعربدون هناك بعيدًا عن ليل بهذا الجمال.

نمت كما لم أنم من قبل، لم تزرني الكوابيس الليلة، غفوت فوق صدره، وهو يداعب خصلات شعري المنسدل، وصحوت على أصوات ديكة تصيح، وخيوط الفجر تشق غبش الليل!

تحسست موضعه فلم أجده، أسرجت القنديل الموضوع على الطاولة، ورحت أجوب البيت لأول مرة!

جاءني نحيبه المكتوم من خلف باب الغرفة الكبيرة المغلقة، فتحت الباب برفق لأجده بوضع لم أره من قبل؛ فوق بساط مزركش،

بألوان صارت باهتة -بفعل الزمن- بعض الشيء، بدا سليم كمن يصلي، أو يقوم بنسك لا أفهمه، متوسطًا الغرفة، ومائلًا بجسمه؛ متوجهًا لزاوية بعينها، ثوبه أبيض ناصع البياض، لم أره من قبل، وعلى رأسه قبعة غير تلك التي يرتديها القشتاليون؛ كانت بيضاء صغيرة، منقوشة بخيوط ذهبية متعرجة، صيرته -بثوبه الأبيض- شخصًا شفيفًا، ذا مهابة غريبة علي.

بدا سليم بعالم آخر، يجلس ثم ينتصب واقفًا، وينحني، ويضع جبينه على الأرض، وهو يتمتم في خشوع، وربما بالدموع، ويعيد حركاته بهدوء وسكينة عجيبين، يطيل عندما يضع وجهه على الأرض، ويعلو نشيجه وهمسه، أقف مشدوهة، أغيب معه، يعلو صوته عندما ينتصب بكلمات عربية، ينغِّمها بصوت رخيم لم أسمعه من قبل، أدلف نحو الغرفة، وأجلس عند طرف الأريكة المكسوة بغطاء أزرق مخملي.

تدور عيني بالغرفة العتيقة المتربة؛ السرير النحاسي ذو القوائم المرتفعة بنقوش بارزة، الصندوق الخشبي الكبير عند الزاوية، وقد حفر فوقه رسم كأنه حروف متداخلة، مع أغصان زيتون ملونة بالأخضر الزيتوني، والأحمر القاني، والأصفر الفاقع، الغرفة

الفسيحة الرحبة ساكنة إلا من عبق وعطر عَلق بهواء الغرفة، وأَبَى أن يرحل مع الراحلين!

شدني ذلك النسيج الحريري الملقى فوق السرير، فرحت أتأمل خطوطه المرسومة بدقة، بتعريجات تصعد وتهبط، بحروف أكاد أجزم أنها لغة سليم التي يتقنها، ويتحدث بها مع الشيخ فلا أفهم منها شيئًا، رحت أتحسس النسيج الحريري الرقيق، الذي أخذتني روعته وبروز نقشه، تمنيت لو أستطيع قراءة تلك الحروف، غرقت فيها متأملة حتى جاءني صوت سليم من خلفي، وقد أنهى ما كان يقوم به:

- هذا النسيج يخص أبي إيزابيلا، حمله جدي منذ زمن من أرض بعيدة، كنا نحج إليها وقت أن كنا أحرارًا، من أرض رسولنا الذي نؤمن به، الإرث الذي أخفاه أبي عقودًا، قبل أن يخرجه ويعلقه على جدار غرفته؛ غير عابئ برجال الديوان وتحذيرات أمي، أخذته معي؛ يوم أن جئت خلسة، احتفظت به بين ملابسي، خفت أن يتعرض البيت للسرقة، عندما كنت أقيم معك، سأعلقه كما كان، وكما كان أبي يحتفظ به دومًا.

كنت شاردة، لم أنتبه لكلمات سليم إلا عندما اقترب يتحسس وجهي، ويضمني، وهو يقول بلهفة:

- ما بك حبيبتي، يبدو أني تحدثت كثيرًا، وأثرت مواضيع لا يجب أن تثار في هذا الوقت، هيا إيزابيلا؛ فالوقت ما يزال مبكرًا، هيا لنعود للنوم.

احتضنني سليم وهو يهم بمغادرة الغرفة، توقفت أنظر إلى عينيه مباشرة، وقلبي يخفق بشدة، وأنا أقول:

- سليم: لماذا تركك ربك تواجه كل هذا وحدك؟! لماذا ترككم تواجهون كل هذا؟ لماذا يتركنا الرب دومًا عندما نحتاجه، كما تركني تحت سقف الكنيسة؟!

لم يجبني سليم؛ كنت كمن ألقى حجرًا فحرك مياهًا ساكنة، لم يجب واكتفى بابتسامة باهتة حائرة، ضمني وهو يقول محاولًا رسم ابتسامة أخرى فوق وجهه:

- حبيبتي إيزابيلا، ألا ترين أننا نتحدث عن أشياء تجلب الحزن في وقت سعادتنا، تزوجنا بالأمس فقط، دعينا نفرح قليلًا، ولنترك حديث الأشجان هذا لوقت آخر، بعد يومين أو أكثر سيزورنا الشيخ مهنئًا، وقتها يمكنك أن تسأليه ما شئت؛ فهو أقدر على إجابتك مني!

أغلق سليم الغرفة بحرص، وعلق المفتاح برقبته، دلفنا إلى غرفتنا والنهار يشقشق، خلع سليم رداءه الأبيض الناصع، وطواه بحرص

قبل أن يودعه الصندوق الخشبي بطرف الغرفة، ضمَّني، وانهمرت قبلاته على وجهي وفوق جسدي وهو يقول:

- اشتقت لزوجتي حبيبة روحي، اشتقت لك إيزابيلا.

(٤٠)
القشتالية

كانت أيامنا الأولى أشبه بالحلم، حلم طويل ممتد؛ لا نفيق منه إلا على طرق بعض الفتيات ممن يأتين حاملات صحاف الطعام الشهي، أو من زيارة خاطفة للشيخ يجيء ليطمئن علينا، ثم يرحل وهو يدعو لنا بالبركة والذرية!

كانت أيامًا طرحنا فيها الوجع، والماضي الصعب، وغُصنا فيها في بحار العشق، والتماهي، والاشتياق الحلال!

كان سليم يواصل تعبده وصلواته التي رأيته يؤديها لأول مرة، نحيبه الذي يرتفع كل مرة عندما يقف ويسجد كان يخيفني، تساءلت مرارًا عن سر تلك الدموع التي تنهمر منه فور دخوله الصلاة، خفت أن أسأله فيحزن، ولكني أراه كلما فرغ من صلاته يعود وكأنما روحه ترفرف!

مر أسبوع كالبرق، جاءني سليم يُعلمني أن بعض المهنئين سيأتون للزيارة، من أصحاب أبيه، والشيخ، وبعض نساء الحي، نشطت صبيحة هذا اليوم، أرتب البيت، وأغسل الفناء الخارجي، وأرش العطر بالأرجاء، وأسقي الزيتونة التي بدأت تخضر وتورق! أملأ القناني بمياه البئر العذبة، وأضعها بالناحية الشمالية من الساحة حتى

تبرد! حضرت شراب اللوز، وبعض الحلوى القشتالية التي يحبها أهل المحلة، كنت قد تعلمت صنعها من أمي قبل أن تختفي.

تزينت كعروس دون أن أبالغ في زينتي، كنت في الحقيقة أنتظر الشيخ، وذهني يدور:

هل يمكن أن يجيبني عن أسئلتي؟ هل يريحني من تساؤلات تطوف بعقلي كل صباح، وتؤرق نومي ليلًا؟ هل يمكن أن أكون سعيدة كسليم وهو ينهي تلك الصلوات التي يؤديها، فيعود أشبه بالروح المحلقة، مغسول الروح، منطلقًا، بلا حزن؟

أتوا حاملين بعض الهدايا والحلوى، اجتمعت النسوة والفتيات بالباحة الداخلية للبيت!

كانت نظراتهن خليطًا من الحذر، والترقب، والدهشة من تلك القشتالية التي تعيش بينهم!

كانت عيونهن تدور تتفحصني، فأرد بابتسامة متوددة، أزيل بها جو الترقب هذا؛ خصوصًا أنهن لا يعلمن سوى القصة التي نسجها الشيخ عني: فتاة فقيرة، لم يتبق من أهلها سواها، بعد أن طالهم ظلم رجال الديوان، فرحل من رحل، ومات من مات.

اطمأنت بعض الشيء، وإن كانت النظرات ما تزال تحمل بعض الشك، الذي ما لبث أن زال مع الوقت، حتى رحلن مودعات والألسنة تلهج بالدعاء لي.

(٤١)
الشيخ

أخذ يهز رأسه وهو يستمع إلي، كانت كلماتي قاسية متتابعة غَضْبَى، لكنه استمع للنهاية، كان يبتسم وهو ينظر إليَّ كأنه يشجعني حتى أكمل حديثي، كنت منفعلة ومتوترة وثائرة، تحولت كل معاناتي إلى كلمات أشبه بالسهام، وجهتها صوب الشيخ وهو يستمع بهدوء، حتى إن سليمًا حاول إيقافي عدة مرات، فمنعه الشيخ.

كنت أنتحب ويعلو صوتي، ثم يعود ليختنق، وتختنق الكلمات، انتهيت وحلقي يكاد أن يتقطع، وجسدي يرتجف.

أجلسني الشيخ بجوار سليم، وناولني كأسًا من الماء، وبدأ حديثه بصوته الهادئ الذي لا يخلو من ارتعاشة خفيفة، لم يعاتبني على انفعالي، ولكنه بدا وكأنه أبي الذي افتقدته منذ سنوات، كانت عيناه تنتقلان بيني وبين سليم، وكأنه كان يوصل رسالته لسليم كذلك.

- اسمعي يا ابنتي، لم يكن الله ليتركنا على الإطلاق، الله سبحانه لا يترك عباده، ولا يتخلى عنهم؛ نحن من نبتعد، ونغفل وننسى.

قاطعته بحدة:

- ولكنه ترككم تعانون ويلات التعذيب والطرد والتنكيل، ترك ملككم حتى زال، تركني حتى زلَّت قدمي، وأصبحت أبيع جسدي لمن يدفع!
- يا بنتي، إنها سنة الله، نحن تناحرنا، وافترقنا، وخان بعضنا بعضًا، وتواطأنا على أنفسنا مع أعدائنا، فحق علينا أن يزول ملكنا، لم نحافظ على ما أعطانا الله وأغدق علينا! ولعله اختبار من الله، حتى نفيق ونتحد ونعود، ولعل ما قاسيتِه أنت صفحة كانت لا بدَّ أن تطوى، حتى تأتي صفحة جديدة، ناصعة، وتعيشي حياة أخرى، أنقى وأطهر، كالذهب حين يتعرض للنار، يخرج ما فيه من خَبث وشوائب، حتى يصير إبريزًا نقيًّا. الله دومًا يختبر عباده إيزابيلا؛ حتى يعلم من يصبر ومن يقنط، حتى يستبدل أيام شقائك بأيام أخرى! وها أنت الآن هنا، قد غسل لله تعاستك بزوجٍ يحبك، وأهلًا يلتفون حولك، الرب دومًا موجود، يسمع ويرى؛ إنه لا يعاقبنا بقدر ما يمتحن قدرتنا على الصبر! يمتحن رغبتنا في التوجه إليه، يرسم لنا الطرق؛ طرق الخير، والشر، والضعف، والقوة، والهزيمة، والنجاح، ونحن علينا أن نختار. الرب دومًا يغفر إيزابيلا، يرحم ويجبر كل كسر، ألا تعلمين أن الأم –أحيانًا– تقسو على صغيرها؛

لتهذب لا لتنتقم؟! الرب أحنى على عباده من الأم الرؤوم على صغيرها، فقط يريد منا أن نتوجه له وحده بالسؤال والمذلة والدعاء. عليك يا بنتي أن تعرفي ذلك جيدًا، توجهي له، قفي بين يديه، واطلبي منه وحده أن يدلك على الطريق.

كانت نظراته حانية، وكانت نظراتي زائغة مشوشة، وظل سليم واجمًا تدور عيناه بيننا، والشيخ يهم بالمغادرة بعد أن ربت على رأسي وهو يقول:

- سأزوركم غدًا لأطمئن.

وقبل أن نطفئ السراج ونحن نهم بالنوم، التفتُ لسليم وأنا أقول:

- في الصباح، دعني أصلِّ مثلك يا سليم.

(٤٢)
أمُّ إسماعيل

لم أعد غريبة على البيازين، فرغم مُضي عام ونصف فقط أصبحت وكأني ولدت هنا، ونشأت بين تلك الحواري المتلاصقة، والدور المطلية بلون الحليب، وكأني موريسكية مثلهم، وجدتني أخفي إسلامي، وأذهب للقداس كل أحد، أترنم بتراتيل الكنيسة صباحًا، وأقف بين يدي الله ليلًا في صلاة طويلة خلف سليم، تمر حياتنا هادئة إلا من بعض العواصف العابرة ننحني لها فتمر، يعود سليم للعمل بمحل تطريز الملابس المملوك لأليخاندرو السرقسطي، والذي عمل به فترة قبل انقطاعه وهروبه، رحب أليخاندرو بسليم، وترحم على أيام أبي سليم.

ربما وافق على عودة سليم؛ رغبة في رد دَين قديم في عنقه لأبي سليم كما قال، وربما لهذا السبب تفانى سليم في عمله معه، وحاول أن يبذل أقصى جهد، فبرع في فترة قصيرة، حتى إن أعيان المدينة كانوا يطلبونه بالاسم، حاملين أغلى أنواع الحرير، ليطرزها بخيوط الذهب والفضة، ويبدو أن ولع سليم بالنسيج المعلق بغرفه أبيه كان لسبب عرفته أخيرًا.

واليوم بعد أن مضى عام ونصف نسيت فيها كل شيء عن إيزابيلا القديمة، عن عربدة السكارى ورقص الحانات وخوسيه الكريه، حاولت أن أنسى أو أتناسى، أقف بين يدي ربي في صلاة طويلة، أناجيه وحده، عرفت أخيرًا كيف يكون الوصول للراحة، كنت مخطئة عندما اعتقدت أن الله تركني، كلما نظرت إلى سليم عرفت أن الله عوضني كثيرًا جدًّا، أكثر مما كنت أتصور، كلما مرت بذاكرتي تلك الأيام اعتراني هم كبير يرتسم على وجهي، يلقي الشيطان بنفسي بعضًا من وساوسه، وكأن سليمًا سيتركني، سيمل حبي أو سيعايرني برقصي القديم بحانة خوسيه، يلحظ سليم اضطرابي فيضمني، يحاول أن يزيل كل الوحشة التي أشعر بها، يبعثر كل مخاوفي وينثرها ذرًّا، فلا تعود تشغلني.

والآن بعد أن أتم إسماعيل عامه الأول، يطيب لي أن يناديني سليم بفاطمة أم إزمايل؛ أم إسماعيل، بِكري اللطيف الجميل.

أتذكر يوم ولادته، ظللت أتألم أسبوعًا كاملة، عفت الأكل والشرب، حتى خاف سليم أن أموت، ترك عمله، واعتذر لصاحب الدكان، وظل بجانبي، والقابلة تروح وتجيء، حتى ولد إسماعيل، وهلال عيد الذبح معًا.

سماه أبوه إسماعيل؛ بعد أن قص علي حكاية النبي إبراهيم وإسماعيل، الموجودة في إل آنْتيجوتِسْتامينْتو .. العهد القديم، والقرآن، وأنا أذرف دموعي من الألم والتأثر، كيف لأب أن يقدم ابنه قربانًا؟ وكيف للولد أن يمتثل لأمر أبيه دون جزع؟!

يومها ربت سليم على رأسي المنهك؛ بعد أن طبع قبلة على جبيني، وهو يفهمني أن رؤى الأنبياء حق، وأن الله اختبر عبده، ثم كافأه بولد بار عظيم، جاء النبي محمد من صلبه: مكافأة، على مكافأة، على مكافأة!

لم يكن إسماعيل/ إزمايل مجرد ولد جاء ليبهج بيتنا، كان السند الذي انتظره سليم، ولم يتوقع أن يأتي من صلبه، فيكبر بين يديه؛ بعد أن انقطع سنده من الدنيا؛ برحيل إخوته وأبيه، رأيته يومها يسجد لله شكرًا بجانب السرير، بعد أن حمل إسماعيل، وكبر بأذنيه، هرع للشيخ يبشره، واحتال حتى أتى بخروف سمين ذبحه، ودفع باللحم لتطبخه الجارات، اجتمعوا بعد أسبوع ببيتنا، والوليد بين يدي، والدنيا قد تغيرت بمجيئه!

استبشر الشيخ بالمولود، وحمله ليرقيه بآيات يحفظها، والنسوة حولي يضعن النقود الذهبية بحجري، ويتلقفن الوليد يحملنه ويُبسملن، قامت عجوز طاعنة في السن فحملته، وطافت به حول

إناء فخاري، وضع بمنتصف الصالة، تتصاعد روائح البخور منه، وهي تقرأ بعض القرآن، وتتمتم بآيات ترقي بها الصغير، ثم بدأت الفتيات غناء هامسًا مخافة افتضاح أمر الوليمة والذبح، وسليم تتقافز من عينيه فرحة لم أعهدها وهو يدور بعينيه بيني وبين إسماعيل، وكأنه غير مصدق.

هبت ريح خفيفة محملة برائحة ياسمينة، فتذكرت ماريا، وخفق قلبي، وأنا أرى سليم يتجه بعينيه ناحية بيتها.

(٤٣)
لاس ألبوخارّاس

كانت أنباء الثورة في جبال البشرات تصل إلينا، على ألسنة التجار الذي يحملون بضائعهم وينزلون بالنزل القريب على تخوم البيازين، يجتمعون ليلًا بساحته الرحبة، فتتصاعد أدخنة الأراجيل محملة بتوتر يحاول الجميع أن يخفيه، ما بين ترقب وخوف، وفرح يحاول بعضهم أن يخفيه خشية تلصص رجال الديوان!

يجتمع التجار بعد أن يغلقوا حوانيتهم، ويتبادلون المعلومات القادمة من الشمال، تدور الحكايات فتختلط الحقائق بالشائعات التي يطلقها بعضهم، فيصورون محمد بن أمية بطلًا مغوارًا لا يقدر عليه ثلة من شجعان القشتالة، ويعود آخرون ليقللوا من أهميته، فيحبط الجمع المستبشر بتلك الجذوة التي بدأت تشتعل رويدًا، حتى باتت على أعتاب غرناطة.

لم أكن أعلم شيئًا غير أن سليمًا لم يعد ذلك الشخص الذي أعرف، ازدادت عصبيته حتى بات يثور لأتفه الأمور، لم يعد يتحمل بكاء الصغير، أو مزحة كنت أطلقها من قبل فيقهقه عليها.

حتى طعامه لم يعد يكمله، يغيب طول النهار ليعود والليل قد انتصف، يثور إن سألته، ويتعلل بالعمل الكثير، وكثرة الأعباء في موسم الأعياد، أصمت وأحاول التخفيف عنه فلا أجد إلا عقلًا شاردًا بلا تركيز.

فكرت أن أشتكي للشيخ، فمنعني خجلي وخوفي من غضب سليم!

هاجمتني الهواجس ومنعتني من النوم: أيكون قد عاد لطريق الحانة؟ هل قابل إحداهن، يسهر معها كل ليلة ويعود كأنه لا يطيق قربي؟

حتى جاءني ذات يوم بوجه متهلل غير الذي خرج به، وقبل أن أسأله، ضمني، وطلب مني الجلوس ليقص عليَّ كل شيء.

(٤٤)
السُّحُبُ السُّود

تجود الأيام، وتسخو، وترخي حبالها، ثم تضن، وتبخل، وتشدها فجأة حول عنقك، تبتسم ثم تعبس بوجهك، تعطي لتأخذ، تسامح حتى تظن أنها نسيت، ثم تعود لتصفعك، فتفيق من نشوة حلمك على واقع يتغير كل يوم.

وها قد جاءني سليم مستبشرًا، فألقى على مسمعي ما لم يكن بالحسبان، ظننته عاد لطريق الحانات، ولم أكن أعلم أن الأمر يتجه لعاصفة، ربما تقتلع الزيتونة التي اشتدت، واستوت على ساقها، واخضرَّ ورقها، عاد مبتهجًا، وألقى سره بحجري ومضى، وتركني والأرض تميد بي، والسماء مكفهرة حبلى بمطر يتجمد بالأعلى فلا يهطل، تدور السحب السود بالسماء، تبرق السماء وترعد دون نقطة ماء! تهدأ تلك العاصفة، كنت كتلك السحائب أدور فلا أعلم مستقرًا، أردت أن أنفجر بوجهه، أثور وأبكي وأمزق وجهه، ثم أبكي فوق صدره، أتريد الرحيل؟ إلى أين؟ وأنا ما أزال ألقي ببذرة زيتونتي بأرض تصلب فيها فلا تتزعزع، أتريد الرحيل وتترك زوجة لا أهل لها إلا أنت؟ ووليدًا هو حلمي وحلمك، وأملي وأملك،

وامتدادي وامتدادك، جاء مستبشرًا بأخبار الثوار، جاء يخبرني برغبته في اللحاق بهم، علت وجهه ضحكات جعلتني أصمت فلا أثور، فرحته غلبت على غضبي، فلم أجب.

كانت الأخبار تتواتر إلي، ولم أكن أعلم أن الأمر جدي، حتى صعقتني رغبته في الانضمام لهم، كنت أعتقد أنها زوبعة ستمُر، كما مرت قبلها ثورات محدودة هنا وهناك، ما إن تبدأ حتى يقمعها الملك فتوأدُ في مهدها، ولكن يبدو أن هذه المرة مختلفة حقًا، فلولا تعنُّت الملك فيليب، وقمعه المتواصل، لما انفجر الناس بتلك الصورة.

ولكن هل سيرحل حقًّا، لا بد أن أعترض، أشكوه للشيخ، أصرخ، أهدد بترك البيت، لا يمكن أن يرحل ويتركني وحدي، لا يمكن!

(٤٥)
معانا الشاي

التفوا حولي كما يفعلون كل ليلة! كان خبر تلك القصة التي بدأت في كتابتها منذ شهور قد بدأ يسري بينهم، يتوافدون كل مساء بعد التاسعة بقليل ما إن أنتهي من الكتابة وأضع قلمي جانبًا، وسط الغرفة المستطيلة بعض الشيء، نتجمع أسفل المصباح الوحيد الخافت، يعد الشاب النحيف أكواب الشاي ويدور بها بيننا، وهو يهمس في مرح مفتعل؛ كأنه عامل مقهى:

- أيوه الشاي، معايا الشاي!

تتطلع العيون إليَّ، تنساب همهمات خافتة يقطعها صوت أحدهم يتساءل:

- هل سيرحل سليم؟

أعدل وضع نظارتي المكسورة منذ أشهر، وأعود لأقرأ من حيث انتهيت، يصمت الجميع إلا من ارتشاف الشاي الساخن وهم يحدقون نحوي، والعيون تتساءل: هل سيرحل سليم؟

(٤٦)
رجال الديوان

طالت غيبته، أتى الصيف وانتظرت قدومه، كنت أجلس بالساعات أمام باب الدار متعللة بنسمة هواء أتنشقها، وعدني بألا تطول غيبته، وها أنا أجلس هنا والأيام لا تنتهي، انقضى صيف وراء صيف، هطل الماء مجددًا، وسكبت معه دموعي بلا جدوى.

أكمل إسماعيل عامه الرابع، يسأل عن أبيه ويلح، وأنا أعد ولا أفي، سيأتي غدًا أو بعد غد أو بعد غد، ويأتي الغد بلا أب، ويظل يلح ويبكي حتى يكل وينام من التعب، وأنا الحيرى، أعدو صوب الشيخ فلا يجد سوى طمأنتي، يتهرب من الأسئلة وتتعثر كلماته ثم يتصنع الانشغال بمداعبة إسماعيل، والسؤال عن أحواله، أعود للبيت فلا أجد سوى الصمت!

أتساءل: هل أحبني بصدق، أم أحب ماريا التي أشبهها؟ هل تركُه لنا وذهابه من أجل ثورة حقيقية، أم انتقام مؤجل لحرقها، أتنهد وأعود لأضم ولدي، ما تبقى من رائحة الغائب، أغمض عيني فلا أنام، يأتيني سليم كل ليلة، يضمني فأتشمم رائحته، أرتمي فوق صدره

متسائلة: لِمَ كلُّ هذا الغياب؟ يداعب خصلات شعري كما كان يفعل دائمًا، يقبلني، ويرحل معتذرًا وهو يقول: اشتقت لكِ حبيبتي! أجفل وأقوم لأبحث عنه، أعدو نحو ساحة البيت، عند البئر حيث كان مجلسه، أفتح الغرفة المغلقة، وأقف متأملة اللوحة الحريرية فأرى وجه سليم يطل منها، أناجيه فلا يرد، أعود لفراشي البارد وقلبي يخفق بشدة، أغمض عيني وأنا أهمس له:

- وأنا اشتقت لك أكثر ما تتصور ..

أكثر من سنتين وأنا أنتظر، نفد المال، فكفلني الشيخ، حاولت أن أعمل فمنعني بلطف، كانت العيون تلتهمني كلما ذهبت للسوق، أو خرجت لقضاء حاجة ملحة، عيون القشتاليين، عيون رجال الديوان، كنت إيزابيلا المطيعة التي تذهب للقداس كل أحد، وتعلق صليبًا كبيرًا فوق صدرها.

ولكن رجال الديوان ككلاب الصيد، يتشممون رائحتك، يفتشون النوايا، يبحثون داخل روحك، ويتسمعون حتى حديثك لنفسك، رغم حجة البيت التي وضعها سليم بيدي وهو يرحل، ممهورة باسمي، إيثابل بيدرو، وكأني اشتريت البيت من الموريسكي الذي رحل لجهة لا أعلمها، ولا أحد بالطبع يعلم أني زوجته، وأن

إسماعيل ابنه، سوى أهل البيازين المقربين منا، وتلك تهمة كفيلة بحرقي وسليم حيين.

أتعوذ من الشيطان، وأقوم فأتوضأ كما علمني سليم، أتوجه للقبلة، وأقف كما كان يقف، أسجد فأطيل الدعاء لله بأن يرده لي، ثم أضم إسماعيل، وأغلق عيني على كوابيس تراودني كل ليلة، أفيق على طرق الباب، وكأن رجال الديوان جاؤوا ليأخذوا ولدي، أصرخ صرخة مكتومة وأفتح عيني على طرق خفيف؛ لأجد الشيخ يبتسم، ويلقي تحية الصباح بمودة.

(٤٧)
لعل إيزابيلا تغفر

لم تتوقف السماء حتى بعد أن تركت حدود غرناطة نحو الغرب، لم تكن بغلتي التي اشتريتها على عجل بحال جيدة؛ مع كل هذا الانهمار والزلق، خرجت بعد منتصف الليل بقليل، كنت حذرًا من أن يراني أحد، وأنا أترك غرناطة نحو الجبال، تلثمت، وتلحفت ببردة صوفية ثقيلة، تحسبًا لبرد الشتاء الذي سيحل قريبًا، سلكت طريقًا وعرًا زادته الأمطار صعوبة، وحمَّلت بغلتي فوق طاقتها.

كان الليل قد شارف على الانتهاء، وبدأ الفجر يشق السماء من بعيد. لم تكن الشمس يومها حاضرة ككل يوم؛ إذ تفترش طرق البيازين، وتدخل نحو الشرفة الشرقية، فتنساب بنعومة نحو مخدع إيزابيلا، تضفي ذلك البريق حولها، وكأنها ملاك هبط لتوه من السماء، وابتسم لي أنا فقط.

لم تكن الشمس حاضرة ذلك اليوم لتدفئ جسدي المنهك، المبلل بماء أبي أن يتوقف طيلة الليل، وها أنا على مشارف البشرات، أصعد وأهبط مع صعود الطريق والتوائه، والبغلة تكاد تسبني، من وعورة الطريق الجبلي، وثقل الحمل على ظهرها، والنوم يغلبني فأغفو وأفيق، ولا آمن الطريق فأنزل عنها لأستريح قليلًا.

كانت المرة الأولى التي أترك فيها غرناطة، هربت تحت جنح الظلام والمطر، كسرت الحصار المفروض علينا منذ سنوات، ونفسي تحدثني بحديثٍ أملٍ ما إن يتوهج حتى يخبو، وقلبي ينفطر كلما تذكرت إيزابيلا وولدي: هل تراني أخطأت حين تركتهما بلا سند وعون؟ وأي حياة تلك التي أعيش وأنا لا آمن عليهما وهما معي، والقساوسة يتحايلون لأخذ الأولاد فينشؤوا تحت أسقف كنائسهم؛ خدامًا لهم ولعرشهم الدموي.

الكل مراقب! وأنا لا أملك الصمت أكثر من ذلك، على الأقل ستكون إيزابيلا بمأمن؛ بصفتها قشتالية جاءت، وسكنت البيازين، كغيرها ممن جاؤوا، واستولوا على بيوت الذين فروا منذ سنوات، على الأقل سأجد فرصة للانتقام ممن شتت شمل أهلي، وأحرَق ماريا أمام عيني، ولن أبقى متفرجًا والأخبار تتواتر عن هؤلاء الذين سكنوا الجبال، ويغيرون على الحاميات الإسبانية ثأرًا، ورغبة في الخلاص.

لعل إيزابيلا تغفر لي عندما أعود إليها بعد انقشاع تلك الغمة، لعلني أعود بنصر يمكننا على الأقل من استرجاع بعض من حريتنا، حتى بنود المعاهدة نقضوها كأن لم تكن، حتى أسماؤنا أصبحت تهمة.

تذكرت أبي وكتبه التي أخفاها بعناية تحت أحواض الزرع بصحن البيت، والجنود يجوبون الطرقات، يقرؤون المرسوم القاضي بتسليم كل ما نملك من الكتب العربية لديوان التفتيش، وأبي تنحدر دموعه، وهو يلف مصحفه العتيق بشال مخملي، ويدفنه عند سور البيت، يسوي الأرض فوقه ويرشها بماء الورد ويرفع يده نحو السماء يشتكي لله، والمحرقة تلي المحرقة، التي تشتعل بكل ما صادروه وحكموا عليه وعلى أصحابه بالهرطقة والكفر، وأنا الصغير الذي لا أعي من الأمر إلا دموع أبي، ولوعة أمي، لعلي يا إسماعيل أعود إليك يا ولدي ببعض حرية تتيح لي أن أناديك باسمك دون خوف.

(٤٨)
الختان

لم يكن من عادة الشيخ أن يأتي في مثل هذا الوقت، توجست من هذا المجيء المبكر، وحاولت أن أتفحص وجهه حتى قبل أن ينطق بشيء، ابتسامته الهادئة كالعادة، ووجهه الذي يخفي أكثر مما يبدي جعلني أبادر بالسؤال:

- هل وصلتك أخبار عن سليم، هل هو بخير؟

تبسَّم الشيخ وهو يربت على كتفي:

- لا تكوني قلقة هكذا، هو بخير بالتأكيد، وربما لا يستطيع الاتصال بنا، سأحاول أن أراسله أو أجد من يطمئننا، لكنني يا ابنتي جئت لأمر آخر؛ لقد اتفقت وعبد الله المرسي جارنا على أن نختن إسماعيل وولده عمر في الغد، وجئتك الآن لأشدد عليك أن يظل الموضوع سرًّا كما تعلمين، فلا أريد لأحد أن يعرف، ولا حتى جاراتك، أنت تعرفين كيف تثرثر النسوة، والبيازين لم تعد آمنة كما كانت، فالدور قد امتلأت بالغرباء الذين أتوا واستوطنوا الحي، كوني حذرة يا بنتي، فلا نريد أن نلفت الانتباه، وعيون الديوان نحونا، فقط استعدي، وهيِّئي

الصغير، وألبسيه ثوبًا فضفاضًا، ليت الأمر كما كان، كنت سأحضر فرقة الإنشاد، وأذبح خروفًا سمينًا، وأدعو أهل البيازين كلهم، ولكن الله غالب يا بنتي، سأمرُّ غدًا لآخذ الصبي.

ذهب الشيخ، وأنا أتطلع لإسماعيل وأحادث نفسي، ليت أباك كان هنا في مثل هذا اليوم، تبسَّمتُ بعد أن مر بخاطري ما كنت أحسبه من قبل بأن كل أولاد المسلمين يولدون هكذا، يومها أسررت لسليم بهذا، فظل يضحك عليها سنة كاملة، ويذكرني بها كلما حاول إغاظتي، ضممت الوليد وأنا أتنهد، ليتك هنا يا سليم، لنضحك معًا من جديد ..

(٤٩)
حي على الصلاة

لاحت جبال البشرات من بعيد، سلسلة تصطف مطلةً برؤوس بيضاء على الوادي الفسيح المملوء بالماء، فقد غطى الثلج قممها التي تعانقت، وسحب الشتاء الثقيلة، يبدو أن رحلتي شارفت على الانتهاء، فها أنا على أبواب المدينة الثائرة الصامدة، كنت قد خبأت رسالة حملني إياها الشيخ، وأوصاني بتسليمها لأحد نبلاء البشرات الذين تنصروا كما تنصر الجميع، ثم ما لبث أن تخلى عن النصرانية، وعاد ليشهر إسلامه، ويساعد الثوار، وينضم إليهم، ويضع ما يملك تحت تصرفهم.

طويت الرسالة بحرص، ودسستها بجيب سري، خطتُه بالسرج، وثبته جيدًا، كانت أشعة الشمس تقاوم لتصمد وسط تلك العاصفة من المطر والريح، توقفت عند أبواب المدينة لا أعرف كيف أدخلها، كانت صور الجنود الذين يجوبون طرقات غرناطة تمر أمامي، وهؤلاء الملثمون الذين يقفون عند أبواب المدينة، ويفتشون كل من يدخل إليها تجعل قلبي يدق بشدة.

أقترب بحذر نحو أبواب المدينة المغلقة والنهار يكاد ينتصف، أدور حول الأسوار، فيتناهى لمسامعي صوت يتردد بالأنحاء قويًّا، ويزداد وضوحه كلما اقتربت أكثر وأكثر:

حي على الصلاة، حي على الفلاح.

كانت لحظة عجيبة، اختلطت فيها الدهشة، بالانبهار، بالفرح، بالوجع، بالحزن الشديد، لم أسمع النداء للصلاة بتلك القوة والوضوح من قبل، لم أسمعه مطلقًا إلا بهمس يدور بين الرجال المجتمعين بالأقبية، يتقدمهم الشيخ يؤمُّهم بصلاة سرية خافتة، صلاة خوف وكأننا وسط معركة، نخاف العدو فننقسم للصلاة.

هنا سمعتها واضحة وجليَّة، عبرت الأسوار، وترددت بين جنبات الوادي الفسيح، فرددها الصدى عاليًا:

حي على الصلاة .. لاة لاة لاة لاة

حي على الفلاح .. لاح لاح لاح

أقترب فيقشعر البدن مما أسمع، ليت أبي يعود ليصطف جانبي، ليت أمي هنا، ليت إسماعيل وإيثابلا معي ليشهدا أول صلاة لهما علنية؛ آمنين لا يخافان شيئًا.

(٥٠)
مِئة واثنان وسبعون

من وراء الباب الصلب كنت أسمع وقع أقدامهم، أحذية العسكر الثقيلة وهي تنزل الدرج المفضي للساحة الواسعة، ساحة الموت، ساحة اللاعودة، أسمع أصوات الحراس وهم يلقون بالتحية، القائد يعطي الأوامر، وأصوات الأقدام الواهنة تساق فوق حصباء الساحة، المنصة أكاد أراها، المشانق تهتز مع رياح الشتاء، السباب يتناهى لمسامعي، أكاد أشعر برجفات الأبدان المرتعشة هناك، أرتجف معهم؛ رغم أن الجو خانق بالغرفة المكدسة، كانت الأصوات تتعالى، ويمكنني تمييز وقع الأقدام فوق المنصة الخشبية، الأقدام الثقيلة، الأقدام الواهنة، الصوت الأجش يقرأ الحكم بصوت عالٍ، صارم، مليء بالقسوة، فترة الصمت القاتل، يليه ارتطام الجسد بالأرض الصلبة، يعلو الصياح ويدوي ارتطام الجسد، وهم يسحبونه فوق الأرض الخشنة، تعود الأقدام لتصعد وتهبط فوق المنصة الخشبية، والأجساد تتهاوى، الأصوات الخشنة تتداخل، الأقدام تبتعد، ويعلو محرك السيارة العسكرية، يهدر فأفزع، يقف اثنان من الحراس عند مؤخرة الشاحنة، يمسكان

بالأجساد المتكومة، يلقيان بها داخل الشاحنة: واحد .. اثنان .. ثلاثة .. عشرون .. خمسون .. مائة واثنان وسبعون، ترتطم الأجساد وتتكوم، أعد وأعد وأنا ذاهل.

يهدر المحرك ثانية، تبتعد السيارة نحو الصحراء، تختفي فلا أرى إلا ظلًّا يتأرجح من فتحة الباب الموصد، أستدير لأجد الجميع صامتًا؛ إلا من عيون تتساءل:

- متى سيحين دورنا؟

(٥١)
عـم لـطـيـف

هل يمكن أن يخترعوا عقارًا يجعلنا ننسى، جهازًا يوصلون أسلاكه بأدمغتنا، فتنساب الخيالات الجميلة، لتنسينا ما كنا عليه وما عانيناه؟ تنسينا الوجوه والأشخاص والألم، تنسينا أننا -وبلا جريرة- يمكن أن نساق للمذبح، قرابين يقدمونها وهم منتشون، قرابين مذبوحة من الوريد للوريد، قرابين السلطة والحكم والنفوذ، والكهنوت الزائف المضلل.

تدور الأسئلة برأسي، وأنا أفترش الأرض بجانب الجدار الرطب كعادتي، والمصباح الخافت يحاول الصمود، أكتب بنصف قلم، ونصف نظارة مهشمة، وعقل كامل، أكتب فيتراءى لي سليم وماريا والبشرات البعيدة، أحاول أن أرسم تفاصيل حياتهم، شيء ما يشدني نحو تلك القصة التي ربما وجدتها تشبه قصتي، أو لربما رغبتي في الهروب من ذلك العالم الذي سجنت داخله جعلتني أهرب نحو القلم والأوراق.

وقتها تحايلت على عم لطيف، ذلك الرجل اللطيف حقًّا، والذي لا أعلم كيف ساقه القدر وجعله يعمل بمكان كهذا، الرجل يحمل

بداخله الكثير من العطف الذي لا يتفق مع تلك الجدران والأسوار، وكل تلك القسوة التي تنساب هنا كالهواء العطن، فرغم سنوات عمره التي ربما تجاوزت الستين، فإنه ما يزال يحمل وجه طفل بابتسامة ودودة، كانت تهون علينا الكثير، وربما عانى هو أيضًا مثل ما عانينا من تلك الطيبة المفرطة، واللطف الذي كان سببًا لمضايقات الآخرين له.

يومها رجوته أن يحضر لي بعضًا من الأوراق والأقلام، كان الطلب ضربًا من المستحيل، ولعله -إن تم ضبطه وهو يهرب لي تلك الممنوعات- أن يفقد وظيفته وينقطع عيشه.

انتظرت ليلتها طويلًا وأبو رامي ينظر لي بابتسامة لا تكاد تخلو من السخرية، يروح ويجيء وهو يتندر على طلبي العجيب، متسائلًا: هل جننت؟! هل تعتقد أن الرجل سينجح في إحضار الأوراق لك؟!

انتظرت يومها كثيرًا حتى شارف الليل على الانتهاء، وعندها فتح عم لطيف الباب وعلى وجهه نفس الابتسامة اللطيفة، نظر خلفه خارج الباب بحذر، ثم أدخل يده داخل قميصه، وأخرج لي مجموعة من الأوراق المجعدة وقلم حبر جافٍّ، قدَّمها لي ثم خرج بهدوء قبل أن أشكره، كانت تلك هي أعظم هدية أتلقاها هنا، وربما كانت أعظم هدية على الإطلاق خلال عشرين عامًا!

أنشغل بالحروف والكلمات والتراكيب، والهمهمات تنساب حولي، والعيون تدور في المكان، أنتهي والليل يلف المكان، أنتظرهم ليلتفوا حولي ككل ليلة، وأكواب الشاي اللاذع تدور بيننا! أتفحص وجوههم الحائرة، والإناء المملوء بالماء العكر يرتكز للحائط، أتفحص الوجوه علّي أجد صانع الشاي مقبلًا بوجهه المبتسم، المصنوع من العظام الناتئة، بطوله الفارع ونحافته الواضحة، وهو يقدم لي كوب الشاي المخصوص كما كان يسميه، يزيد حبات السكر قليلًا يقتطعها من الحصة الشهرية التي يجودون بها علينا، والتي بالكاد تكفينا، كان يبتسم في هدوء ويقول مداعبًا: الشاي المخصوص لكاتبنا الكبير، ثم يتنحى في هدوء، وينكمش على نفسه كالعادة.

أنتظر قدوم الجميع في مشهد يومي، يتكرر منذ شهور، فما إن أضع قلمي جانبًا حتى يبدأ توافدهم المصنوع من بهجة عجيبة، وكأنهم على موعد مع هروب جماعي نحو عالم صنعوه معي، عالم يحلق بهم نحو الخارج، يتناقشون، يحتد أبو رامي أحيانًا، ينهرهم إن علا الصياح، ليعود كطفل يتابع قصة شائقة، فتضيق عيناه، وهو يحاول أن يلتقط العبارات المتخمة ببعض الكلمات الثقيلة، ألمح حيرته، فأبطئ كلماتي قليلًا، يتغامزون ويضحكون بصوت عالٍ عندما

يغازل سليم حبيبته، أبتسم لبهجتهم، ثم يعود صياحهم، ونقاشهم ليعلو ثانية.

أين هم الليلة، أرى الجميع منشغلًا بلا شيء، صمت يخيم على المكان بلا سبب، أعتدل وأضع نظارتي جانبًا، أقترب من أبي رامي لأستفسر عن الأمر، يهز رأسه وهو ينظر نحو الباب المغلق، أخذوا الولد منذ ساعتين ولم يظهر للآن، ترى هل سيتحمل؟ أطلت النظر لإناء الماء العكر، الملقى بجانب الحائط، يتراءى لي أحمد النحيف وهو يدور بيننا بأكواب الشاي بهمة عجيبة، وابتسامة أعجب، بوجهه النحيف الباهت إلا من عينين تلمعان دومًا، ونكات يطلقها دون أن يضحك! كان يكتفي بتلك البسمة المرسومة فوق وجهه، سألت أبي رامي كثيرًا عنه، لم يكن يتكلم كثيرًا، ولكنه كان يبتسم كثيرًا.

هل سيصمد؟ ذلك الشاب النحيف جدًّا، الهزيل إلا من ابتسامة لا تنقطع، لم تكن تهمته كبيرة: خرج يومًا وسط الجموع يهتف، والهتاف دومًا محرم، والهمس شيمة أهل البلاد، ساقوه كغيره، سألوه عن سر الهتاف، فابتسم ولم يُجب.

هل سيصمد؟ لا أعلم، ولكن الجلبة بالخارج توحي بأن الأمر انتهى، تلك الأقدام الثقيلة المتجهة للخارج تعدو، تلك المعاول

التي تحفر، وهدير المحرك يقول إنه لم يصمد، عدت لأنزوي بجانب زجاجة الماء العكر، وأنا أخط حروفًا جديدة: لَيتَهُم يصنعون ترياقًا لكي ننسى الوجوه المبتسمة، ومذاق الشاي اللاذع، وحكايات الوجع.

(٥٢)
وتجاوزني الموت

قالت لي أمي يومًا: إن الأيام تمر، عندما كنت أتساءل عن سر هدوئها كلما قابلتنا المشكلات، كانت تبتسم وتقول:

- يا ولدي، كل شيء يمر، أبيت أم رضيت، القدر غالب، والمكتوب سيحدث، فلِمَ العبوس في وجه الأيام؟!

عرفت ذلك الآن، عرفته جيدًا، كنت على موعد مع الموت ثم ها هي الحياة تهديني أيامًا أخرى وسط هذا المستنقع الذي لا نجاة منه إلا بالموت، ترى أي حظ هذا الذي جعل الحارس يختار غيري ونحن نصطف بالساحة الكبرى.

أخذونا صبيحة يوم العيد، صمنا ثلاثين يومًا وجاء عيد مختلف، كانوا يريدون بعض التسلية صبيحة يوم الفطر، كانت حياتنا هي الثمن الذي يجب أن ندفع في سبيل إضحاكهم، شمس حزيران الحارة لم تكن قد ارتفعت بعد، دخلوا الغرفة فجأة، وأمرونا بالخروج للساحة، النهار كان بأوله، والفجر ما يزال ينفض عنه أرق ليلة طويلة من الصراخ القادم من الطابق العلوي، كنا نحاول النوم والجو خانق؛ فإذا بالعسكر يسوقوننا نحو الموت، كانوا سكارى أو

خيل لي ذلك من فرط نشوتهم العجيبة، وقفنا مكبلين قرابة الساعة، لا نعلم لمَ اقتادونا نحو الساحة، بعضنا سقط من الإعياء، كانوا يركلون أي واحد يسقط، يضحكون ثم يجرونه بعيدًا، بدأ السباب، ثم انهالت الركلات والهراوات، انتابهم نوع من الجنون المباغت فبدؤوا يطلقون أعيرتهم نحونا، كان الوضع أشبه بتنافس أشخاص فقدوا عقولهم، لعبة لكسر الملل، أو سباق سخيف: أيهم يستطيع أن يقتل أكبر عدد!

ربما ضجروا من وجودنا الذي لم يثمر إلا الصمت، كانت القرعة تتم بسرعة، هذا أم ذاك؟ ثم طلقة تستقر بين العينين، تحولت الساحة لأرض معركة من طرف واحد، تساقطت الجثث، نظر لي أبو رامي نظرته الأخيرة، ثم هوى بطوله الفارع ممددًا فوق الأرض الصلبة المتشربة بالدماء، تجاوزتني القرعة للشاب الصغير الذي جاء منذ أسبوع واحد، لم يكن قد اعتاد طعم الشاي اللاذع بعد، ثم .. هوى، وتجاوزني الموت!

(٥٣)
عشرون عامًا من الغياب

عشرون عامًا ثم تخطاني الموت ..
عشرون عامًا وأنا أسرد الحكايا ..
عشرون عامًا وهم يلتفُّون حولي ..
تتقلص الدائرة وتعود لتكبر من جديد ..
يغيب أحدهم ويأتي آخر ..
تتبدل الوجوه والحكايات ..
ويظل المكان شاهدًا على كل شيء ..
يظل المصباح الخافت والكوة الضيقة المفتوحة على سماء لا أعلم إن كانت كما تركتها ..
تظل الغرفة الشاهدة على أحاديثنا الباكية والصاخبة والنازفة ..
يظل الجدار يسند قارورة الماء العكر تنتظر يد صاحبها النحيف ..
تظل الأماكن تنتظر أصحابها ..
وتظل الحكايا مستمرة ..
عشرون عامًا بالتمام .. عشرون عامًا من الغياب!

(٥٤)
رائِحَةُ العَابِرِينَ

الأماكن تزهر برائحة العابرين، فما بالك بمن سكنوها؟ الأماكن وفيَّة لمن مر بها، الأماكن دومًا باقية ونحن من نرحل، الأرض وفية لمن يحبها، البيوت والجدران والأبواب المنقوش فوقها غصن زيتونة ومزهرية، هل تأخرت؟ عشرون عامًا يا سليم وما تزال تسأل؟! عشرون عامًا من الغياب! قلت لها إنك ستأتي والصيف على الأبواب، ومر صيف، وراء صيف، وراء عشرين، ولم تعد، أكلتني الحسرة وأنا أعلم أنها تلعنني، وأن إسماعيل يسأل عن أبيه، وأن الشيخ قد رحل دون وداع، وأن غرناطة بعيدة ومحرمة.

عشرون عامًا فكيف يكون اللقاء؟! هل هذه غرناطة التي أعرف؟! مالها أضحت غريبة وموحشة، أنحدر مع النهر الذي ما يزال يجري بلا توقف، نحو البيازين أتجه متخفيًا كما رحلت منذ عشرين عامًا، نحو الأزقة الضيقة المبلطة والدور المتلاصقة المطلية باللون الأبيض، نحو ماريا/ إيزابيلا، نحو إسماعيل، تُرى هل سيعرف وجه أبيه؟!

هل سيذكر أباه الذي رحل منذ عشرين عامًا؟! هل سيغفر غيابي؟! هل سيعذر حين أقص عليه حكايا الغائب الذي ذهب يحلم بالحرية، وعاد بخُفي حنين، وألف جرح وطعنة وغصة؟ هل ستصفح إيزابيلا؟!

ما لهذه الوجوه الغريبة التي تصادفني، ما لهذه الوجوه المتحفزة، والباردة، والعيون الثاقبة بلا داع؟! ما لهذه الوجوه تحدق بي وأنا أخطو نحو الدار، وما لهذه الدور تغيرت؟! هل ستطل الزيتونة الآن من خلف السور بأوراقها الخضراء، وفروعها المرحبة تهتز مع قدوم العابرين؟! هل ستفتح إيزابيلا الباب عندما أطرق بلهفة؟ أم ستُطيل النظر لهذا القادم بلحية غزاها الشيب وصوت مرتعش، وعينين دامعتين؟! تقف لحظات تسترجع ذاكرتها التي تزاحمت عليها الأحداث، يمر الشريط سريعًا عابرًا ..

عشرين عامًا منذ غيابي المفاجئ وعودتي غير المتوقعة، تتلعثم كلماتها لبرهة، تشهق، وكأنها تتنفس لأول مرة منذ عشرين سنة، لتعود فتنطق اسمي الذي ظننت أنها نسيته، أضمها وأتحسس رائحتها التي لم تفارقني، أهمس لها:

- سامحيني!

أتحسس وجهها الذي لم يتغير، خصلات شعرها الغجرية كما رأيتها أول مرة، أغيب ولا تغيب، ينساب الصمت طويلًا فيقول كل شيء! أردد:

- سامحيني. ولا شيء سواها!

يطل إسماعيل من خلف أمه، لا يعرف أيبتسم أم يبكي؟! أيهرع نحوي أم يقف مكانه يتأمل ذلك القادم من العدم؟!

أُسرع السير عبر الحواري الضيقة والعيون الغريبة تحاصرني، أقترب فلا ألمح غصون الزيتونة المرحبة، أدور حولي عَلِّي أخطأت الطريق، أدور حولي فلا أجد باب الدار ولا إسماعيل ولا ماريا ..

(٥٥)
سُليمَان القُرطُبي

عشرون عامًا وأنا أكتب عن سليم، بنصف قلم، ونصف نظارة مهشمة، وعقل كامل يقظان!

- عبرت يومها البوابة الكبيرة، تطلع الحراس يومها، والريبة تقفز من الوجوه الملثمة، أظهرت الرسالة المخفية بباطن السرج، عرفت نفسي، وأخبرتهم أني أحمل رسالة للسيد سليمان القرطبي، سمحوا لي بالعبور بعد وقت ليس بالقصير، فتشوا السرج وصرة الملابس، حتى جاء الرجل واستلم رسالته فاطمأنوا، وسمحوا لي بالعبور، وأذان العصر يرتفع. تلقاني -بحبور عظيم- رجل تجاوز السبعين، ذكرني بأبي، بقامته الطويلة النحيفة، وبشرته المشربة بحمرة، وعينيه الزرقاوين، وملامح رجل هزمته السنون، وعاصر الوجع والهروب والشتات وها هو هنا يتمسك بآخر أمل. سألني عن الشيخ وغرناطة والبيازين، عن أحوال الناس والقمع ومحاكم التفتيش، راعه ما كنت أقصه عليه ونحن في طريقنا للمسجد الكبير الكائن بوسط البلدة، مسجد لم تطله يد القشتاليين،

فيرتفع فوق مئذنته الصليب، كما فعلوا بمساجد غرناطة العريقة، هنا حيث أقف لأول مرة وسط هذا الجمع، فترتفع تكبيرة الإحرام بلا خوف، هنا بقلب البشرات الصامدة، تقافز السؤال بعقلي، ترى؟ هل سأصمد مثلها؟ هل يستقر بي المقام هنا، فأبعث بمن يأتيني بإيزابيلا وإسماعيل، ونبقى هنا بعيدين عن أعين الديوان والقمع والمحاصرة، هل تنجح الثورة حقًّا في انتزاع بعض الحقوق؟ هل سيتفاوض الملك أم سيزيد من قبضته حولنا حتى نهلك؟ انتزعني الرجل من شرودي، وهو يدعوني لبيته:

- هيا يا سليم، ستبيت لدي اليوم، إلى أن نجد لك مكانًا مناسبًا!
- كنت قد فاتحت الشيخ في أمر انضمامي للثوار والمقاتلين، رحب بالفكرة، ووعدني بتدبر الأمر، مر يوم ويوم وأسبوعان وأنا بضيافته، يحسن وفادتي ويكرمني، كنت لا أبرح الغرفة التي خصصها لي إلا للتوجه صوب المسجد برفقته، أقضي وقتي بين الرفوف المتخمة بالكتب، التي ترتفع حتى تكاد تلتصق بسقف الغرفة، أتصفح كتابًا وآخر، وأمر فوق السطور المكتوبة بالعربية، فتسري بجسدي رعشة، وحنين لصوت أبي، والشيخ

وهو يتلو الآيات علي، يلمحني وأنا ألتهم السطور فيبتسم بأسًى، وهو يقول:

- تلك كنوزي يا ولدي، ميراثي الذي ورثته من أبي وأجدادي، حاولت الحفاظ عليها طيلة كل هذه السنوات، واليوم أخاف ألا نصمد، وتسقط البشرات كما سقطت غرناطة فيحرقوها.

ترتبك ملامحي، وتمر الأحداث برأسي فيأخذني الحنين لإيزابيلا وإسماعيل، ينقبض قلبي خوفًا عليهما، هل أعود أدراجي؟ وقد مكثت طويلًا بضيافة الرجل، ولم يأتني الجواب، أم أفاتحه ثانية؟ يرتفع النداء لصلاة الجمعة فيقطع شرودي، وإذا بالشيخ يلتفت وهو يقول، هيا لنلحق بمحمد بن أمية فهو الذي سيصلي بنا اليوم، هيا ألا تريد أن تنضم للثوار؟!

(٥٦)
قشطة يا قشطة

خارج الأسوار كل شيء كما تركته، خارج الأسوار ما يزال العالم يهرول كعادته، يهرول بلا توقف، خارج الأسوار ما يزال العالم بصخبه وصمته، ماتزال الشمس قرصًا مكتملًا، والقمر شلال الفضة يطل كل ليلة، خارج الأسوار لا شيء تغير؛ أو ربما حسبت ذلك.

يومها كان صرير الأبواب عاليًا جدًّا، هل ذلك لأني اعتدت الصمت، إلا من صرخات المعذبين بالقبو والأدوار العليا، يعقبه صمت كالموت؟! هل لأني لم أشاهد تلك البوابة منذ خمس وعشرين سنة؟! هل علا صرير أبوابها لهذه الدرجة أم أني وقتها كنت شابًّا، والآن بات صوت المزلاج يفزعني؟

نادى الحارس اسمي:

- سالم القِشطَالي.

تلفتُّ، وكنت حسبت أني قد نسيت اسمي بعد كل تلك السنوات، تذكرت يوم أن وطئت قدمي أرض هذا الجحيم، ظل الحراس يسخرون من اسمي طيلة شهر كامل: قشطة يا قشطة.

كنت مهزومًا وضعيفًا وروحي ممزقة، وودت لو أصرخ بهم: أكيد أن للـ (قِشْطَالِي) معنًى أكبر من أفهامكم وعقولكم المتحجرة أيها

الحمقى. ولكني لم أفعل. كانت حفلات التعذيب أقوى من كل صرخاتي.

يفتح الحارس البوابة الكبيرة، الضوء مؤلم، والريح تعصف بجسدي النحيل، لا أملك إلا قصاصات أوراقي الصفراء المتآكلة، كنت قد رشوت الحارس ليسمح لي بالاحتفاظ بها، هل حقًّا أخطو خارج البوابة؟ أتلفت حولي، أرفع عيني صوب برج الحراسة، هل سيصوبون بنادقهم نحو رأسي؟ هل يفجرون جمجمتي وأنا أتجه نحو البوابة الضخمة؟

هل هي مزحة جديدة ويريدون العبث قليلًا فاقتادوني نحو البوابة، وما إن أخطو نحوها حتى تأتيني النهاية؟ هل أحلم أم أنها الحقيقة؟

ما الذي دعاهم أن يطلقوا سراحي بعد كل تلك السنين؟

هل أصبحت كهلًا، خرفًا، لا فائدة من إرغامه على الاعتراف؟

هل لم يعد هناك متسع لمزيد من القادمين؟!

ألا يزال الخارج يهتف! ألا تزال الحناجر تردد أناشيد الحرية؟

هل ما يزال الخارج ينبض، فيزجون بالحالمين بالأقبية العفنة حتى يتآكل عمرهم مثلي، أو يذهبون نحو الصحراء الشاسعة بلا عودة؟!

هل ما يزال الخارج هناك كما تركته؟

(٥٧)
مُحمَّد بن أُميَّة

امتلأ المسجد عن آخره شيوخًا وأطفالًا ورجالًا بملابس بيضاء ناصعة، وشبابًا بملابس القتال، يلتفون حول شاب نحيل، تبدو عليه أمارات التعب، يتهامسون ثم ما يلبث الجميع أن يسكت حين يبدأ الشاب بالكلام، تقدم الشيخ نحوهم فقام الشاب في المنتصف يرحب بالشيخ، ومال ليقبل رأسه، يربت الشيخ على كتف الشاب وهو يقول:

- حمدًا على سلامتك يا محمد، وصلتنا أنباء الانتصارات القادمة من الشمال، كانت ضرباتكم موفقة، الغارات على السفن والشواطئ الإسبانية وشواطئهم أصابتهم بشلل كبير، نصركم الله يا ولدي.

التفت الشيخ لي وأنا أتابع الحوار ذاهلًا، لست مصدقًا أني أقف أمام محمد بن أمية، ولا أن هذا الشاب النحيل، ذا اللحية التي غزاها الشيب مبكرًا، هو ذلك الرجل الذي تحركت من أجله الجيوش، وأقلق نوم فيليب الثاني وعرشه، قطع الشيخ شرودي، والتفت لابن أمية قائلًا:

- هذا سليم ولدنا، جاء خصيصًا من غرناطة للانضمام إليكم، فها هو تحت تصرفك يا ولدي، فلتدربه على فنون القتال، ولينطلق معكم في مهماتكم؛ عسى الله أن ينصركم، ويرد ملكنا على أيديكم.

صافحني ابن أمية مرحبًا، والتف حولي الشباب في ود صادق، شباب من غرناطة ومورسية وإشبيلية، ورجال من البربر وتركيا وفاس.

كنت كمن يحلم وما يزال!

فهل سيكتمل الحلم؟

(٥٨)
يا الله .. انقلع

حملتني نحو الحياة السيارة التي انحشرت بها منذ عشرين سنة، لتحملني نحو المجهول، وقتها كنت مثخنًا بجروحي النازفة، ووجهي المتورم، وعشرات الأنفاس حولي تئن كما كنت، والآن لا تحمل سوى (سالم القشطالي)، وهذا الشيخ الذي تكوم عند الزاوية، حاولت أن أحدثه، فابتسم ابتسامة باهتة ولم يجب، فقط ظل يتابع السماء وهي تمر بسحب حبلى بالمطر، ظلت السيارة تنهب الأرض، والجو يرعد ويبرق والأمطار لا تتوقف، والشيخ لا يحول بصره عن صفحة السماء والغيوم والأمطار.

أغمض عيني متعبًا، فتأتيني أمي بلباس أبيض ناصع، والبنفسجات شديدة الغموض والإبهاج حولها، ترتشف القهوة من فنجان أبي المكسور، وتعيد سرد حكاياتها القديمة، وأنا عند طرف السرير بنصف عين مفتوحة أتثاءب، ترتج السيارة فجأة، فأفتح عيني والصحراء تكاد تنتهي، واليد الخشنة تهزني بلا اكتراث:

- هيا لقد انتهت الرحلة.

اليد الخشنة تهز الشيخ المتكوِّم منذ أكثر من خمس ساعات، فإذا به جثة بلا حراك، يهرع الباقون من المقعد الأمامي، يتحسسون الرجل بأقدامهم، يتهامسون فيما بينهم، يعلو نقاشهم وأنا ذاهل، يختلفون؛ هل يعودون بالرجل؟ وما فائدة العودة بجثة رجل لن يسأل عنه أحد؟! علت أصواتهم، تأففوا، قال أحدهم:

- ما هذا البلاء؟!علينا إذن أن نحفر لحدًا لهذا العفن، وسط تلك الأمطار التي لا تتوقف!

صاح آخر:

- دعنا نعد ونلقيه وسط الصحراء، أقلها ستجد الضواري طعامًا جاهزًا.

علت ضحكاتهم، تنبهوا لوجودي، فأمروني بالنزول وهم يسخرون:

- ياللا يا قشطة .. انقلع، واقلب وجهك! اتسهل؛ ما الذي تفعله هنا للآن؟ ألا تريد أن تذهب؟ أم تحب أن تكمل رحلتك مع هذه الجثة؟!ياللا .. انقلع!

دفعتني اليد الخشنة نحو الخارج والأمطار تنهمر، والرجل الملقى بلا حراك ما تزال عيناه صوب السماء، وعلى وجهه ابتسامة فرح. على مشارف المدينة، وحدي وسط سيل الأمطار المنهمر بلا توقف، زمجر المحرك، وابتعدوا، وصورة الشيخ الملقى بلا حراك

ما تزال بعقلي، تخيلته وهو يصعد للسماء بروح شفيفة، وابتسامة رضا، ينظر إلينا مشفقًا علينا مما نحن فيه، ينظر لجلاديه بلا اكتراث وهم يلقون بجسده الفاني وسط الصحراء القاحلة تنهشه الضواري، يشيح بوجهه المنير وهو يواصل الصعود، ثم يتحول لضوء مبهر، مسرعٍ نحو السماء.

السيارات تمر مسرعة لا تلتفت إليَّ، والأمطار لا تتوقف، والليل بدأ يلفني، الأضواء تسرع فتعبرني بلا اكتراث، مرت ساعة فإذا بأحدهم يتوقف أمامي، قلت له لا أملك مالًا، حملني بعد أن كدت أهلك. إلى أين يمكن أن أتوجه، والمدينة أضحت كبيرة ومزدحمة وخانقة، ما كل هؤلاء الذين يسيرون بلا اكتراث، مسرعين بوجوه باردة وحانقة ومكفهرة؟ هل أتوجه صوب بيتنا القديم؟ أما يزال قائمًا ينتظر عودة الغائب؟!

(٥٩)
رائحة أمي

تحت أصيص الورد الذي جف، مددت يدي أتحسس المفتاح الذي كان دومًا هناك، ترى أكانت تعلم أني سأعود فتركته، كانت دومًا تترك نسخة من مفتاح البيت تحت أصيص ورداتها الحمراء، تعلم أني أتفنن في فقد مفتاح البيت، حتى إني اضطررت أكثر من مرة لأن أنام عند العتبة في انتظار عودتها، حتى لجأت لتلك الحيلة، بعد أن أعيتها تصرفاتي.

بيتنا القديم، الذي ما يزال يقف بشموخه وسط كل هذا العمران الذي زحف بقوة نحو قلب المدينة، البيت المكون من طابقين بسيطين، أتذكر بياضه المشرق حين كنت أدخل الحارة منعطفًا من الشارع الرئيسي، فيطل بشرفاته المرتفعة عن مثيلاتها، ووردات أمي تطل بألوانها الزاهية تستقبل النازل نحو الحارة الضيقة الهادئة.

يستقبلني السور الخشبي المنخفض، بلونه الأزرق، والبوابة المفتوحة دومًا للجارات، تطل الليمونة من فوقه، مخضرة مائلة نحو القادم، وكأنها تستقبله مرحبة.

أدخل مسرعًا فألتقي بأمي بالصالة الواسعة، والجارات حولها تتعالى ضحكاتهن، وهن يسردن حكايات الماضي، تستقبلني أمي دومًا بابتسامة واسعة، وحضن كبير دافئ، أدلف من البوابة المهدمة، والسور الخشبي بقايا مبعثرة، أتوسل للمفتاح أن يدور في الباب الخشبي الكبير، تنساب رائحة الماضي مع صرير الباب العتيق، أنا في بيتي أخيرًا، تلفني رائحة أمي، وذكريات الماضي البعيد.

(٦٠)
أتود أن تشارك

هنا حياة جديدة، هنا لا أسرّة يرتاح جنبك فوقها، لا دفء في ليالي الشتاء الطويلة، هنا ننام بنصف عين وكل يضم سلاحه لصدره، ضمني ابن أمية لمجموعة شباب، جاء بعضهم من إشبيلية، وبعضهم من غرناطة الحبيبة، دربوني على حمل السلاح، وأساليب التخفي والهرب، بعد أن اتخذنا من كهوف البشرات مأوًى لنا، كانوا يخرجون دومًا والليل قد انتصف، ويعودون قبل أن تشرق الشمس، بعد أن يشنوا غارات سريعة نحو حاميات قريبة تربك العدو، وتجعله يعيد ترتيب صفوفه.

مر شهر وقد أتقنت أساليب الحرب، واستخدام السلاح، والكر والفر، كنت قد كلفت بمهام المراقبة، وإمداد المجاهدين بالزاد والذخيرة، حتى جاء اليوم الذي اجتمع بنا ابن أمية للتشاور، ورسم الخطط، ومناقشة ما طرأ من تغيير؛ خصوصًا وأنه قد أحكم القشتاليون مؤخَرا قبضتهم على قرى الشمال، وحاصروها حتى تذعن وتسلم المجاهدين المختبئين بكهوفها.

كانت المهمة تقتضي التوجه شمالاً نحو الحاميات المتمركزة حول القرى المحاصرة، ومحاولة إرباكها حتى نحدث ثغرة نستطيع من خلالها إدخال المؤن للقرى التي يحيط بها أولئك الوحوش.

كنت كمن ينتظر المشاركة بلهفة يبدو أن ابن أمية قد لاحظها، فوجدته وقد وجه سؤاله لي فجأة:

- أتود أن تشارك يا سليم؟

(٦١)
عـزاء أمـي

كان كل شيء كما تركته، إلا من خيوط عنكبوت نُسجت على مهل، منذ أن وصلني خبر وفاتها، يومها كنت منكبًّا أكتب كعادتي عند الزاوية، والسكون يلف المكان على غير العادة، ربما يومها مل السجانون الصراخ المتكرر، فمالوا للراحة، مضى النهار ونحن نتعجب من هذا الهدوء غير المتوقع، التفوا حولي كعادتهم عند مغيب الشمس، ينتظرون أن أقص عليهم حصيلة يومي، وإذا بالباب يفتح، فظننا الحراس قد أتوا ليبدؤوا حفلاتهم الصاخبة، أو يزجوا بقادم جديد لينضم إلينا، نادى الحارس اسمي:

- سالم القِشطالي.

ذهبت والعيون تتبعني مشفقة، وقد هيأت نفسي ككل مرة لما سألاقيه، لم ينعطف بي نحو السلم المفضي للدور العلوي كعادته، أخذني نحو الممر ودلفنا لغرفة آمر السجن والعياذ بالله، توقفت وهو يقلب أوراقه، ثم يرفع رأسه بوجه خالٍ من التعبير وعينين باردتين، اعتدل في كرسيه ثم ابتسم ابتسامة باردة خبيثة وراح يقول:

- لم تستمع لنصائحنا يا سالم، مرت خمس سنوات وأنت على عنادك، قلت لك مرارًا إن التعاون معنا مثمر، على الأقل كنت الآن ستكون واقفًا تتلقى عزاء أمك، المسكينة ظلت تتألم كثيرًا وهي على فراش الموت، وتنادي اسمك، رحلت دون أن تراك، ربما ذهبت وهي غاضبة عليك، ألا ترى ذلك يا سالم؟!

علت ضحكاته الشامتة المتواصلة، دوت في الممر، عبر الهواء، سرت بين جنبات الغرفة وأنا أتكوم على نفسي، والجميع حولي ذاهلون، خبأت وجهي وعلا نحيبي المكتوم، وضحكات الرجل تدور بعقلي، ووجه أمي الشاحب يتجسد أمامي متألمًا، مريضًا، منهكًا، محرومًا من نظرة للحبيب الغائب.

(٦٢)
جراموفونها المترب

الأماكن تزهر برائحة العابرين، فما بالك بمن سكنوها؟! الأماكن وفية لمن مر بها، الأماكن دومًا باقية ونحن من نرحل.

أضيء شمعة فتتراقص الصور أمامي على ضوئها الهزيل، البيت والمزهرية فوق الطاولة، البنفسجات الذابلة بأوراقها الجافة، ماتزال شديدة الغموض رغم جفافها، أطرق الباب قبل أن أدخل غرفتها، أسمع صوتها يدعوني للدخول، الغرفة الخاوية إلا من رائحتها، وجراموفونها العتيق المترب، واسطوانتها المحببة أظنها آخر ما كانت تسمع، أتخيلها عند الشرفة وهي تسرح ببصرها نحو أول الشارع، تنتظر قدومي والصوت ينساب بروعة ممزوجة بحزن قديم باق:

ليه يا بنفسج .. بتبهج؟ وانتَ زهر حزين
والعين تتابعك .. وطبعَكْ .. محتشم ورزين
ملفوف وزاهي .. يا ساهي .. لم تبوح للعين
بكلمة منك .. كأنك .. سر بين اتنين

أجلس عند طرف سريرها المترب والمفرش المخملي يحمل رائحتها، أضع رأسي فوقه فتأتي أمي تربت على رأسي وصوتها المرتعش يقول:

- أخيرًا يا سالم.

تلفني رائحتها القوية وكأنها تتغلغل بأعصابي، أتحسس الفراش البارد المترب، تنهمر دموعي بقوة وكأنها ظلت حبيسة عشرين سنة، أطلب صفحًا لذنب لست أعلم إن كنت اقترفته، أقرأ الفاتحة وأدعو، أغلق غرفتها على رائحتها وأدخل غرفتي، أتمدد فوق فراشي أخيرًا، يأتيني النوم سريعًا جدًّا؛ لأصحو وطرق على الباب لا يتوقف.

(٦٣)
الهدية الصباحية

وجه كوجه أمي، صبوح مبتسم، وجه جاء من الماضي ليقف عند الباب والشمس تشرق، رحمة وأملًا جاء ليقف مبتسمًا، وأنا لم أعتد الوجوه المبتسمة منذ سنين طويلة، وقفت أتأمل خطوط الزمن فوق وجهها، ونظارتها الكبيرة، وشعراتها البيضاء النافرة من خلف خمارها الأبيض الناصع، خرج صوتها واهنًا مرتعشًا:

- سالم، حمدًا لله أنك بخير، ظننا أنك مِت يا ولدي، انتظرتك أمك رحمها الله كثيرًا، طرقت كل الأبواب، سألت كثيرًا ولم يجبها أحد، كنا نلتف حولها كل يوم لا نعرف ماذا نقول، هل نعزيها في فقد وحيدها؟ أم نثرثر بكلمات الصبر والجلد؟ لعله يرجع، لعل الأيادي الخشنة تطلق سراحه فيعود ليجبر قلب تلك المسكينة، مر يوم ويوم وأيام، مرت السنوات وأمك تذبل، ولا نملك أن نعيد لها ضحكتها، أدمنت الجلوس عند الشرفة تتفقد مدخل الحارة؛ علك تظهر، ذبلت ورداتها، وذهب بريق عينيها، رحلت وهي تتمتم باسمك، ووصية بأن يبقى البيت كما

تركته، لعلك ترجع، وها أنت أمامي الآن يا ولدي، الحمد لله الذي أقر عيني برؤيتك.

ضمتني بلهفة وشوق أم، ورائحة العجائز والخبز وفطائر الصباح، ضمتني وأنا ذاهل عمن تكون تلك الهدية الصباحية.

(٦٤)
مَن تكون أيُّها الخِنزير؟

نحو الساحة الكبيرة حيث كنيسة سان سلفادور ما تزال هناك، ترتفع أبراجها التي تعلوها الصلبان المتراكبة، تختفي المئذنة وصحن المسجد الجامع، أولي ظهري لبوابة الكنيسة فأرى ماريا ما تزال هناك فوق كومة اللهب، تصارع الموت، أسير نحو وادي هدرة؛ لعله يواسي ما تبقى مني، أبحث بعقلي المشتت عن مخرج، كيف لي أن أعثر عليهما، وألف عين تراقب، وألف واشٍ وبصاص وجاسوس؟! كيف أعثر عليهما وديوان التفتيش يعد الأنفاس والخطى والهمسات؟! هل أعود للبيازين أطرق أبواب الدور علهم يدلونني عليها؟ إن فعلت هذا فربما ألفت الانتباه؛ ولن أصل لشيء، الوجوه تغيرت، والقشتاليون سرقوا الدور والضياع والبساتين، وأنا الهارب منذ عشرين عامًا، مطارد يبحثون عني؛ فما العمل إذن؟!

تدق أجراس الكنيسة فأراني أتوجه ناحية البوابات الضخمة، أدخل كما يدخل الجميع، نحو القداس، قداس الأحد وعبرة الأحد، والخشوع المصطنع، نؤمِّن خلف القس بعد أن يتلو الصلوات، نصطف بطابور طويل لنحظى ببركة الكاهن، ألوك الخبز المبارك

الذي وضعه القس بفمي، أسير نحو صنم المصلوب الضخم، فأقف تحت قدميه وأتمتم:

- ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾، السلام عليك يا رسول الله، والسلام على محمد وآله وصحبه.

أخرج من البوابة الكبيرة فأشهق لأملأ رئتيَّ بهواء نظيف، تتزاحم الأجساد وهي تخرج من البوابة نحو الساحة الرحبة، الجنود يملؤون المكان، ينتشرون متفحصين، أحاول أن أخفي وجهي، أختفي وسط الزحام والوجوه، ألمح خصلات فاحمة تنسل من تحت خمارها، خصلات غجرية ليست إلا لإيزابيلا، ما أزال أميز شعرها الفاحم الطويل، أعدو خلفها، تختفي وسط الزحام، أسرع خطواتي، أكاد أقترب منها، تبتعد عن البيازين، تعبر الناحية الأخرى من المدينة، وتتجه نحو الحواري الضيقة بالسوق القديم، تتوقف أمام بيت من طابق واحد، يبدو عليه القدم، تدق على الباب، أقترب أكثر ألمحه يفتح لها، فتعانقه، أثور وأدفع الباب المتهالك، وأنا أصرخ:

- من هذا يا إيزابيلا؟

تجفل المرأة، ويندفع ذلك الثور فيلكمني وهو يصيح:

- من تكون أيها الخنزير؟

لم تكن إيزابيلا، لم يكن إسماعيل، كانت أضغاث أحلامي البعيدة، أفتح عيني على رجال الديوان حولي، والمرأة تشيح بوجهها، والثور يصرخ:

- تهجم علينا ذلك الموريسكي القذر.

يكبلون يدي، يسوقون سليمًا الهارب من عشرين سنة، نحو المجهول، أنادي على ماريا/إيزابيلا وإسماعيل، الملثمون والأيادي الخشنة تدفعني نحو عربة خشبية، صوت عجلاتها على الطريق الحجري يغطي على نحيبي المكتوم، تبتعد المدينة، ونغوص بقلب الغابة المتشابكة الأغصان، فيختفي قرص الشمس، يبدو السجن من بعيد شاهقًا، قاسيًا، موحشًا، تعلو الأجراس أبراجه، والحراس فوق الأسوار ينظرون للعربة القادمة، ثم يفتحون البوابة الضخمة.

إيييييه! إلى أين يا سليم؟! غياب جديد، بعد آخر!

ألم يحن وقت اللقاء إيزابيلا!

(٦٥)
ليه يا بنفسج!

ذهبت العجوز تاركة رائحة أمي، ووجهًا مليئًا بالحنان والأمل، وبعض الفطائر الساخنة.

أتجول بين الأرجاء المتربة، أرتب غرفتي، وأصف كتبي وأوراقي، الملقاة منذ أن جاؤوا وأخذوني، أعلم أنها تركت كل شيء كما كان، حتى أعود وأرتبه كما أحب، أعدل وضع المزهرية فوق الطاولة، أفتح النافذة فتطل الأصص بوردات جافة، أنظر من خصاص النافذة لأرى الشارع وقد أضحى غريبًا ومزدحمًا، أطلت المباني المرتفعة فحجبت مدخل الحارة والشارع الرئيسي، أدخل غرفة أمي لأزيل التراب العالق بكل شيء، أنظف الجراموفون، وأدير الاسطوانة الموضوعة بداخله، ربما كانت تلك آخر ما كانت تسمع، أرى وجه أمي وهي شاردة تستمع، وأنا صغير بجوارها لا أفهم الكلمات، لا أفهم سر ابتسامتها الممزوجة بحزن يطفو فوق عينيها، كبرت وما تزال أمي تغلق الباب، وتدير الأُسطوانة نفسها! سألتها، فردت بخجل:

- تلك كانت هدية أبيك الأولى لي، عاد يومًا يحمل تلك الأُسطوانة ويديرها، ويبتسم وهو يقول:
- عندما سمعت الكلمات رأيتك يا نرجس.

نرجس الجميلة البهية، الواهبة البهجة؛ رغم حزنها، أرتب فراشها، أعدل وضع وسادتها كما كانت تحب، تتحسس يدي ملمس أوراق تحت وسادتها، أخرج رزمة من الأوراق المصفرة المطوية بعناية وعليها اسمي، أجلس عند الشرفة والشمس قد شارفت على المغيب، أفض الأوراق لأجد خط أمي فوق السطور:

ولدي الحبيب الغائب .. ..

وظل الصوت يردد:

حسنك في كونك .. بلونك .. تبهج المقهور
اللي يضيره .. ضميره .. بالظلام مغمور
حطُّوك خَميلة .. جميلة .. فوق صدور الغيد
تسمع وتسرَق .. يا أزرق ..همسة التنهيد
اسمع وقُول لي .. مين اللي .. قال معايا آه
بقولها وحدي .. لوحدي .. والأسى هُوّاه
ليه يا بنفسج .. بتبهج .. وانتَ زهر حزين

(٦٦)
عند النافذة

حاولت أن أفض الأوراق بحرص، فقد تآكلت أطرافها بفعل الزمن، بدا الخط مرتعشًا واهنًا، يتعرج قليلًا ويعود لينتظم، وكأنها كانت تجاهد لتكتب، امتزج الحبر بدموعها فتلاشت بعض الحروف، وضعت نظارتي المكسورة وجلست عند الطاولة، والمصباح فوق رأسي، وتتابعت الكلمات بلا توقف:

ولدي الحبيب الغائب منذ عشر سنوات، عشر سنوات وأنا أنتظر عند الشرفة وباب البيت، عند محطة القطار ومكتب البريد وأبواب المخفر، عشر سنوات يا ولدي أصحو قبل الفجر، وهل كان النوم يزورني إلا محملًا بصورتك وهواجسي وكوابيس لا تنتهي، أصلي صلاة طويلة، أدعو دعاء طويلًا، أتوجه للقبلة وأرفع يدي للسماء، أبكي وأنتحب وأطلب، تشرق الشمس كل يوم، وأنا عند النافذة، أنتظر قدومك، ترتفع الشمس، وترحل عصافير الصباح، يذهب الأطفال نحو مدارسهم ويعودون، يذهب الرجال نحو أعمالهم ويعودون، تثرثر النسوة وهن في طريقهن للسوق، وهن عائدات

بسلال الفاكهة واللحم، الكل يقطع الحارة نحو المدينة الكبيرة ويعود، إلا أنت يا ولدي!

حفظت الوجوه، وجوه الأطفال المبتسمة البريئة المشرقة، وجوه الرجال المتوكلة، وجوه النسوة والفتيات، وجه ساعي البريد الشيخ، المبتسم دومًا، والمتعجل دومًا، حفظت الوجوه المتغيرة يا ولدي، الوجوه التي قد علاها الحزَن، والأخرى التي علتها خطوط الزمن، وجوه تتغير كل يوم وأنا التي أنتظر وجهك الغائب منذ عشر سنوات، أتساءل: كيف أصبح وجهك الآن؟ هل غزا الشيب شعرك؟! هل تغير وجهك وعلته تجاعيد الأيام؟! هل انحنى ظهرك أم ما تزال فارع الطول كأبيك؟! كيف أصبحت يا ولدي بعد كل تلك السنوات؟! أتساءل كل صباح: هل سأراك مجددًا؟

(٦٧)
ألـن تـتـزوجـي يـا لـيـلـى؟!

تأتي الجارات، يجلسن حول فناجين القهوة، يأخذهن صمت طويل مترقب؛ ما يلبث أن يتلاشى شيئًا فشيئًا، لتحل مكانه عبارات مواساة مكررة فقدت طعمها في أفواههن وفي أذني، ثم تدور الحكايات اليومية عن السوق والأسعار ورطل اللحم الذي تضاعف سعره، عن الولد الذي يبحث عن وظيفة، والبنت التي جاءها العريس، عن العالم الذي انقطعت عنه وانقطع عني، أبتسم لهن دون أن أشارك، أكتفي بابتسامة أوزعها وعيني شاخصة نحو الشرفة والحارة والوجوه، يرحلن مودعات، وتبقى فناجين القهوة الفارغة، وفنجاني البارد الذي لم أقربه، أدخل غرفتك ككل يوم، ألقي نظرة على كتبك الملقاة، تعلم أني لم أقربها، كانت كتبك دومًا ثروتك التي لا تريد لأحد أن يقترب منها، أفتح دولابك، أتشمم رائحتك وسط ملابسك، أرتب سريرك، ألقي نظرة على صورتك المعلقة عند الزاوية، أغلق الغرفة بهدوء، وأجلس في الشرفة من جديد.

تأتيني ليلى كعادتها بعد أن يرحل الجميع، تلملم فناجين القهوة، تفتح النوافذ، وتدير المذياع، تستبدل الوردات الذابلة بالمزهرية، تتحدث برفق كعادتها، تستبدل بعضًا من الوحشة التي تحيط بي.

أجد بوجهها بعضًا من صورتك الغائبة، صورتك وأنت تلعب معها صغيرًا، صورتك وأنتما تترافقان للمدرسة القريبة، وأنتما تجلسان عند تلك الطاولة تحفظان الدروس، وأنت تشرح لها ما صعب عليها فهمه، صورتك وأنا ألحظ أول إعجاب بها بعينيك، وحمرة خجل بوجهها الناعم الرقيق، وصورتك بوجهها وأنا أطرح عليها سؤالي اليومي:

- ألن تتزوجي يا ليلى؟!

دائمًا كانت تبتسم ولا ترد، ألمح حنينها إليك، ألمحها وهي تقف سارحة أمام صورتك الباهتة، تمسح التراب عن الإطار، وتلمس وجهك، وكأنها تناجيك وتعاتبك على الغياب، كنت أتساءل: متى ستمل تلك الفتاة الانتظار، متى ستأتيني يومًا تطلب الإذن مني، بأن أحلها من ارتباط لم يكتمل، وخطبة كانت ستتم، انتظرت سنوات ولم تتغير مشاعرها، كنت أشفق عليها وهي تذبل مثلي، شابة جميلة يطرق بابها الكثيرون، مر عام وآخر، تفاتحني أمها على استحياء أولًا، تشتكي ذلك الانتظار الذي لا ينتهي:

- يا أم سالم البنت يأتيها الخطاب، وهي لا تزال عند رأيها، نعم كانت لسالم، ولكن أخاف أن تنتظر أكثر من ذلك فيفوتها القطار.

تتلعثم المرأة قليلًا وتتداخل كلماتها؛ فلا تعلم ماذا تقول، ولا أعلم أنا أيضًا يا ولدي ماذا أقول، غصة بحلقي، ووجع بقلبي لا ينتهي، والبنت لا تتراجع وكلها أمل في عودتك.

والآن يا ولدي، لا أعلم هل ستقرأ رسالتي، هل ستعود أم ستظل هذه الأوراق مطوية تحت وسادتي للأبد؟

اعلم فقط يا بني أننا انتظرناك، لم نفقد الأمل أبدًا في عودتك، الشرفة تشهد، والوردات بالمزهرية، وإن عدت ولم تجدني فأعلم أني لم أدخر وسعًا في البحث عنك، ولكنها حيلة المرأة الضعيفة التي لا معين لها، وإن عدت يا ولدي ووجدت حبك قد آل لرجل غيرك فاعلم أنها انتظرتك عشر سنوات كاملة، حتى ملت أمها الكلام، ومل الخطاب باب الدار، ولكنها لم تمل أبدًا ولم تفقد أملها في عودتك، فلا تبتئس، ولا تكن سببًا في إثارة شجونها، وحزن ربما ما يزال تحت الرماد.

ابني الحبيب .. إن وجدت رسالتي هذه، فهناك أوراق مهمة قد خبأتها بصندوق داخل خزانتي، فلتقرأها جيدًا؛ فهي إرثك ونسبك.

ولدي الحبيب .. تمنيت أن ألقاك، تمنيت أن أمزق تلك الأوراق لأجلس أمامك وتجلس أمامي؛ أتحسس وجهك، وأقص عليك كل شيء، ولتقص علي كيف كانت سنوات البعد، ولكنها يا ولدي مشيئة الله ولا راد لقضائه.

فقط إن عدت فلتزر قبري؛ لعلني أشعر بوقع خطواتك فتزول وحشتي، وآنس بك أخيرًا، وقد حرمت أنسك آخر عمري.

أستودعك الله يا ولدي، وليحفظك الإله أينما كنت.

أمك التي لا تزال تنتظرك

(٦٨)
صوت ماريا

عشرون عامًا يا سليم وأنت كالثور الهائج الذي لا يهدأ، عشرون عامًا لم تستطع أن تهذب ذلك الطبع الذي كان يجلب لك المشاكل دومًا، زحف الشيب لرأسك وما تزال روحك هائجة لا تستقر، كان الأحرى بي أن أتريث، أن أتسم ببعض العقل حتى أجدهما، ما الفائدة الآن وقد وقعت في أيدي هؤلاء الجلادين القتلة، هنا لا أحد يخرج بسلام؛ فإما أن تموت، أو تعود وقد فقدت عقلك، شبه إنسان وشبه حي.

تتوقف العربة عند الأبواب، يترجل أحد الحراس ليأخذ الإذن بالدخول، أرفع عيني نحو الأبواب الشاهقة، المنقوش فوقها زخارف أعرفها جيدًا، حروف عربية متعرجة ذهبت ألوانها مع الزمن، لفظ الجلالة يعلو القوس الكبير أعلى الباب، وأغصان زيتون، ونقوش لطيور، وزخارف تتداخل فيها الحروف والكلمات، فيأتيني وجه ماريا، وصوتها الأنثوي الساحر، وهي تدندن على عودها:

- يا سالب القلب مني عندما رمقا

لم يبق حبك لي صبرًا ولا رمقا

ثم يقطع ذلك صوتها وهي تصرخ من لهب الحريق الذي يلتهم جسدها الغض، ووجوه الوحوش مترعة بالسعادة، وأصواتهم هائجة بنشوة مسعورة:

- كِيمارون آلوس موروس إنفِييلِس، أحرقوا الموريسكية الفاجرة.

تفتح الأبواب، تدخل العربة نحو الساحة الواسعة، التي الأشجار الجافة على جانبيها، توقفت العربة بالمنتصف حيث النافورة السداسية الشكل، وتماثيل رخامية لأربعة سباع تحيط بها، وقد جف ماؤها، وإن ظلت السباع شاهدة على تلك الجنة التي آلت لغير أصحابها، يدفعونني نحو الرواق الطويل المعتم، الجدران حجرية رطبة، والضوء شحيح، فلا أكاد أرى موضع قدمي، والمكان صامت كقبر، دفعتني الأيدي نحو السلم، نزلنا عشر درجات نحو قبو أكثر إظلامًا، تتراقص أضواء الشموع المعلقة على الجدران، ويأتيني الصوت من خلفي:

- ضعوه بالغرفة مع ذلك الشاب، حتى يصل المحترم لاستجوابه.

(٦٩)
رفيق الزنزانة

الليل هنا ليس كليل البيازين، ليس كليال كثيرة مرت بي وأنا خائف، وقتها كنت أجد وجه أبي وصدر أمي، وقتها كان رجال الديوان يقرعون الأبواب كل يوم، يدخلون البيوت بلا استئذان، يقتحمون مخادع النساء، ويفتشون أسرة الأطفال، وقتها كنت صغيرًا عندما وجدت الجنود بساحة منزلنا، والليل ما يزال بأوله، كنت أرتل بصوت خفيض أمام أبي ما حفظته عن الشيخ، وأمي تستمع وعلى وجهها ابتسامة رضا، وإذا بهم فوق رأسي، لا أعلم من أين جاؤوا، تلعثمت وامتُقع وجه أبي، حاولت إخفاء اللوح بملابسي، تنبهت أمي، فهرعت للمطبخ وقامت بافتعال مشاجرة مع الخادمة الصغيرة بصوت عال، جعل الرجل يتوجه نحو الصوت، تسللت نحو الفناء وأخرجت اللوح وخبأته ببيت الطيور، وتظاهرت باللعب عند البئر، فتشوا الدار وغادروا، عدت لأجد أبي يمسح حبات عرقه، ويستغفر، ويحوقل، وأمي تستسمح الجارية، أخرجت اللوح وعدت لأكتب من جديد فوقه، وأبي يصحح لي، وأمي تمسح فوق رأسي، وتقرأ المعوذات، وتدعو الله أن يحفظني.

وقتها كان أبي حاضرًا، وكانت عين أمي تطمئن، وقتها كنت طفلًا يا سليم، فما الذي جاء بالذكرى الآن، وقد شارف العمر على الانتهاء، وأنت من هروب لهروب؟! أتشعر بالحنين لهما، أم تشعر بوحدتك هنا وأنت لا تعلم ما الذي ينتظرك غدًا؟!

المكان هنا أشبه بقبر ضيق معتم؛ إلا من خيالات ضوء ينفذ إلى الغرفة من الرواق الخارجي، تنبهت لوجود ذلك الشخص الساكن عند الزاوية بلا حراك، العتمة لا تتيح لي تبين ملامحه، أقترب منه فأراه متكومًا على نفسه ووجه بين كفيه، لا يشعر بي ولا بوجودي، أهزه برفق فيجفل ويرفع وجهه، أرى ملامحه بصعوبة وسط تلك العتمة، ليعود فيخفي وجهه بين يديه مرة أخرى، أتكوم أنا بجواره والسكون يلف المكان، إلا من صوت إيزابيلا، وهي تهدهد إسماعيل الصغير، والنوم يتسرب لعينيه الزرقاوين كعيون أبي، وجفوني تثقل، وصوتها يبتعد، ورائحة ياسمينة ماريا تلف المكان.

(٧٠)
ليـــلـــى؟!

يمر يوم ويوم وأيام، تأتيني العجوز بوجهها الذي يحمل رائحة أمي، تحمل خبزها الساخن وبعض الفاكهة والحليب، تزيل بعض الوحشة بحديثها العذب، ودعائها الذي لا ينقطع، تحدثني عن العالم الذي انقطعت عنه، عن الحارة وأخبار الجيران، عن الغلاء والظلم! كانت رغم وهنها ذات روح شابة، وعقل متوقد، وقلب قادر على أن يحتوى قلقي ووحدتي! روح كنت أنتظرها كل صباح؛ فتأتي محملة بالأمل الذي انقطع عني كل تلك السنوات، تذهب فأعود لأقف وراء خصاص الشرفة أراقب الشارع الذي تغير كثيرًا، لم تعد الدكاكين الصغيرة المتلاصقة تبيع الدقيق والخبز والحلوى، لم يعد الرصيف الواسع المبلط كما كان؛ حين كنا نتسابق عَدوًا فوق حافته، يفوز من يسير بطول المسافة دون أن يسقط عن الحافة، لم تعد الوجوه التي كنت أعرف، أبحث عن وجوه كانت تلازمني السير يوميًّا نحو الميدان الفسيح ننتظر الحافة المزدحمة، ووجوه أخرى كانت تبتسم كل يوم، وتلقي تحية الصباح حتى وإن كنت لا أعرف أصحابها، أبحث عن وجه ليلى، فأشخص ببصري بعيدًا نحو

بيتها الذي ما يزال كما هو، بشرفاته المزهرة، وستائره التي كانت تلوح لي من ورائها.

هممت أكثر من مرة بسؤال الخالة الطيبة، يقفز السؤال لطرف لساني ثم أتراجع، تظهر الحيرة على وجهي، وتلاحظها السيدة العجوز، وتتلعثم كلماتي، فأغير دفة حديثي بعيدًا عن ليلى.

كان الشارع ما يزال هاجسي الذي أراه من خلف زجاج النافذة، لم أخرج للآن رغم محاولات الخالة الكثيرة لدفعي للخروج، أراها وهي تضع القروش القليلة بجانب المزهرية كلما زارتني، أحاول أن أعيد النقود فتربت على يدي، وتبتسم ابتسامة تمنعني من أن أردها، تظل النقود هناك دون أن أمسها، حاولت مرارًا أن أكسر خوفي من العالم، أن أخرج نحوه، أسير بجانب السائرين هناك، أنعطف نحو الميدان الواسع فأرى الزحام، وأسمع أبواق السيارات، وأسير وسط الشوارع المزدحمة بأناس لا أعرفهم فأبتسم، وأنا أرد تحية الصباح، أو أجلس عند الزاوية بالمقهى أنظر للمارة دون أن أفعل شيئًا؛ إلا أن أستنشق هواء الصباح، وأشعر بحرارة الشمس فوق وجهي.

ارتديت ملابسي أكثر من عشر مرات، أصل للباب ثم أعود كطفل يخاف العالم، يحتمي بصدر أمه ورائحة أمه، وجدران بيت أمه،

أعود مجددًا للشرفة، أنظر للعالم من ورائها، أنتظر الخالة الطيبة لتأتي بقصصها عن العالم الذي أخافه.

ترتفع الشمس، تتوسط السماء، تدق الساعة العاشرة، ثم يرتفع أذان الظهر، أتفقد الباب مرات ومرات، لم تنقطع عني منذ أن وصلت، عشرة أيام وهي تأتيني كل صباح، بوجهها الذي يشبه وجه أمي وخبزها الساخن، لم تأخرت اليوم؟ هل ملت حديثي وحزني الذي لا ينتهي؟!هل هي مريضة؟ أم ذهبت كما ذهبت أمي بلا رجعة؟

أفتح الباب وأخطو نحو الحارة لأول مرة، أشعر بدفء الشمس ونسيم الهواء، أتنفس بعمق، أخطو نحو بيت الخالة القريب، أرى الوجوه حولي تنظر لذلك القادم من العدم، أتجاهل كل تلك النظرات، أصل لباب البيت وأتردد قليلًا! ماذا لو خرج لي أحد أبنائها وأزعجه سؤالي؟! ماذا لو لم تكن بالبيت أو مريضة أو رحلت، ماذا لو..؟!

أدق الباب بتوتر، أنتظر لحظات دون رد، أهم بالمغادرة فيأتيني وجهها من خلف الباب المشرع، أصرخ كالطفل:

- ليلى!

(٧١)
كيفك؟

لا أعرف هل مرت دقائق أم ساعات أم أيام؟ هل أشم رائحة الياسمينة المزهرة عند سور بيتنا، هل هذا هو البلبل الذي انقطع غناؤه منذ زمن وقد عاد الآن يصدح؟! هل زاد دفء الشمس، ونسيم الهواء، وصوت مذياع قريب يدندن:

- (بعدك على بالي)؟!

هل أقف حقًّا عند عتبة دار الخالة الطيبة؟! تبتسم ليلى وتمد يدها، يرتاح كفي البارد المتعرق براحة يدها، تدور الأرض، ويأتي نهار جديد وسماء جديدة، وعالم آخر، أتلعثم، تخرج الحروف متقطعة كطفل يتعلم الهجاء، تتبعثر حروفي، تنظر لي طويلًا دون أن تتكلم، أسرح بوجهها الذي ما يزال شابًّا، إلا من بعض الشعيرات البيضاء الخجلى، تختبئ وسط شعرها الأسود الفاحم، المعقود للخلف كما كان دومًا، عيناها ما تزالان جميلتين، بحرين من السواد الذي كنت أغرق فيه، فتتلقفني أهدابها الطويلة الناعسة، ساد الصمت طويلًا، خرج صوتها مرتعشًا رقيقًا:

- كيفك يا سالم!

ارتوت عروقي العطشى، دخل الهواء عميقًا جدًّا فتنفست أخيرًا، دق قلبي المعلق على جدران الصمت والخوف والوحدة أكثر من عشرين سنة، ذابت كل خلاياي، فلم يعد هناك إلا ذلك القلب الذي يدق بلا توقف، وكأنه عرف أخيرًا أن بإمكانه أن يدق حبًّا؛ لا خوفًا وهلعًا وتوترًا، كيف حالي؟! ألا تعلمين كيف كنت يا بنت؟! كنت ميتًا، ملقًى بجب لا قرار له، خلف أسوار السجن، وأسوار الخوف، وأسوار الوحدة، وأسوار العزلة، وأسوار المجهول الذي لا ملامح له، هل تعلمين أن صوتك قد حطم كل تلك الأسوار، وبعثني من تحت التراب، بإكسير حبك ووجهك وصوتك؟!

يأتي صوت الخالة من الداخل واهنًا تسأل:

- من بالباب يا ليلى؟!

ينقطع الصمت الطويل، ويعيدنا للساعة الأولى التي التقينا بها، ننتبه أننا ما نزال عند عتبة الباب وأن يدي ما تزال براحة يدها، وأنني لم أجب عن سؤالها حتى الآن!

(٧٢)
استعد

يباغتني الصباح بعد نوم متقطع فوق الأرض الخشنة، وأضغاث أحلامي، وإسماعيل يحبو عند البئر فيكاد يسقط، أحاول أن أمد يدي لأنتشله فأجدني بكهوف البشرات، وحولي الرجال والبنادق، والثلوج تحيطنا، ثم يروعني صوت ماريا، ورائحة شواء لحمها تقبض على عنقي، وأحس بقبضة قوية عملاقة تخنقني، تريد أن تقضي علي، يملؤني الفزع، وأفتح عيني على ظلام يلف المكان، وصوت الجرذان تعبث أسفل الجدار.

تتواصل كوابيسي، وينفتح باب القبو، والوحش الملثم عند الباب يوقظ الرجل المتكوم من البارحة، يجره نحو الخارج فألمح وجهه، شابًّا صغيرًا في أوائل عشرينياته، قد تورمت عيناه، وازرقَّ ما حولهما، شعره الأسود الفاحم يغطي جبينه وينسدل نحو كتفه، التفت نحوي وهو عند الباب، التقت عيوننا للحظة قبل أن يأخذه الملثم، وهو يوجه حديثه لي:

- اليوم الأحد؛ سينتهي المبجل من القداس، ويأتي ليستجوب المذنبين الهراطقة، استعد؛ فإنه إذا لم تقنعه أجوبتك فلن ترى الشمس ثانية.

يتهكم ويغلق الباب بقوة، وعينا الشاب تتعلقان بي، يخفق قلبي بقوة، ويمر الوقت وأنا أفكر في الشاب المسكين، ترى أين سيأخذونه؟ هل يكملون تعذيبه، أم يذهب ولا يعود؟

(٧٣)
الأحاديث المؤجلة

أخطو نحو غرفة الخالة الطيبة، يأتيني وجهها الذي يشبه وجه أمي، ممددة فوق سريرها، تبتسم ابتسامة واهنة، وعيناها الذابلتان تشيان بأنها ليست بخير، أقترب منها وأقبل يدها ورأسها، تلفني رائحة الأم التي رحلت، وتجتاحني رغبة في البكاء، أقاومها وأقول مداعبًا:

- أراك بخير يا أمي؟ هل تختبرين محبتنا لك؟

ألتفت لليلى التي ما تزال عند باب الغرفة، وعيناها ما تزالان متعلقتين بي، تبتسم وتقبل نحونا، تجلس عند طرف السرير صامتة، تعبث بشعرها، وكأنها طفلة تحاول أن تخفي خجلها، وحمرة وجهها، تلتفت للخالة الطيبة، وتعدل وضع الوسادة خلف ظهرها، تبتسم العجوز وهي تدير البصر بيننا، كأنها تقرأ ما يجول بخاطرينا، وتفهم ما نود أن نقول، تسعل وتلتقط أنفاسها، ويخرج صوتها مرتعشًا، لا يخفي فرحة أكاد أستشعرها بين حروفها، تقطع الصمت المنساب بيننا، تلتفت لليلى وهي تقول:

- هيا يا ليلى فلتعدي فنجان قهوة لسالم، أعتقد أن هناك الكثير من الأحاديث المؤجلة، هيا يا ولدي، الجو يبدو مشمسًا اليوم

والشرفة بالتأكيد ستكون مناسبة لفنجان القهوة، وخصوصًا من يد ليلى، هيا لا تضيع الوقت مع عجوز مثلي.

قبلت رأسها واتجهت للشرفة، أرتب الكلمات بعقلي، وكأني مراهق يدق قلبه لأول مرة.

(٧٤)
ذنب أردت أن يُغفر لي

كيف برجل مثلي قد أجاد فن الانتظار لأكثر من عشرين عامًا أن ينهزم أمام عشر دقائق؟! عشر دقائق فقط من الانتظار وحدي، بشرفة مزهرة، ونسيم الهواء يداعب المزهريات المرصوصة بعناية عند حافة السور، فيحمل رائحة الياسمين والفل والجوري؟! كيف بي لا أشعر بروعة المكان، وأنا الذي اعتقدت أني قد هزمت الساعات والدقائق والأيام، تلك التي قضيتها متدليًا مرات عديدة من سقف الجب العفن، والدم يكاد ينفجر من رأسي؟! قضيتها معصوب العينين، أو مكبل اليدين، أو ملقًى كجيفة بقبو عطن، كنت دومًا أهزم الوقت، أنتصر عليه، أدندن، أستغفر، أحوقل، أتمتم بالآيات، أتغنى بأغنيات الحب والحرية، أغمض عيني فأرى وجه أمي وليلى والحارة والصخب البعيد، كيف برجل مثلي تهزمه عشر دقائق وأنا أنتظر فنجان القهوة السخيف، أحاول أن أرتب الكلمات، أتلعثم كالأطفال، كيف أبدأ؟

هل أقول إني غبت بلا وداع، ولا رسالة، وبلا أمل للعودة؟ وهل كنت أملك حيلة أو أملًا ؟ هل أقول لها إني كنت أراك كل يوم،

عندما أغمض عيني، وعند الزاوية، وعند الكوة المفتوحة على سماء تمتد لشرفتك؟! هل أقص الحكاية من أولها؟ هل أعتذر، أبكي، أصمت، أم أشرح كل شيء؟! هل أقول إنك كنت رفيقتي طوال عشرين سنة، عندما يصعدون بي الدرج أو يهبطون نحو القبو؟ كنت أغمض عيني، وأسرح بوجهك، أسمع صوتك وضحكاتك، ألمح خجلك عندما ألمس يديك الباردتين وأضمهما بين كفي، أتحسس أنفاسك الدافئة على وجهي وأنت تقتربين بفنجان القهوة ونحن عند الطاولة، والأوراق مبعثرة أمامنا ونحن ندرس، أسمع دقات قلبك وأنا أعترف لأول مرة لك، يومها ظللت صامتة إلا من ابتسامة ومسحة فرح عبرت مقلتيك، وحمرة علت وجهك، يومها ودعتني عند الباب وأنا أهم بالرحيل، وكلماتك ما تزال عالقة بذاكرتي للآن: كم انتظرت طويلًا يا سالم كي تقولها، ربما استجاب الله لي أخيرًا.

خرجت يومها وأنا لا أعلم أينا كان هدية السماء للآخر، والآن عرفت أنك كنت هديتي التي تصبرت بها عشرين سنة، هديتي التي كنت أقتات على نورها كل يوم فتمنحني الطاقة لأكمل، يشرد بي ذهني قليلًا، أرتب الكلمات، أداعب أوراق الجوري الخجلى، أراها أمامي تحمل فنجان القهوة، أرتشفها بصمت، أحاول أن

أخرج الكلمات فلا تطاوعني، أسعل فترفع عينيها الجميلتين، تشعر بارتباكي، تبتسم بهدوء ويأخذني صوتها الهادئ:

- لا تقل شيئًا يا سالم، يكفيني أنك عدت، يكفيني أن انتظاري لم يذهب هباء، يكفيني أنهم اتهموني بالجنون، وأنا التي آمنت بعودتك، كنت أعلم أنك هناك، في مكان ما، تنتظرني، فكيف لي ألا أنتظرك؟! رغم كل تلك السنوات، لم أشك لحظة واحدة في أنك ستعود، كان يقيني بعودتك أكبر من كل شيء؛ وكأني أحس بأنفاسك، وأسمع وقع قدميك تقتربان، لم أعد بحاجة لأن أشرح وأعتذر وأبكي، لم أعد بحاجة لأرتب الكلمات، لم أعد بحاجة لأفسر غيابي، لم أعد بحاجة إلا لعناق طويل، لغُسلٍ طال انتظاره، وذنب أردت أن يُغفر لي.

(٧٥)
عيون كأنها لأبي

ذهب الشاب ولم يعد، انقضى النهار وحل الليل، تسربت أضواء الشموع الهزيلة من بين ثقوب الباب الخشبي، ينساب صوت الحراس كل فترة وهم يتبادلون النكات، أو يقفون لتحية قائدهم، ثم يعود السكون يلف المكان، ليت الشاب يعود ليقاسمني بعضًا من تلك الظلمة والسكون، ترى ما هي تهمته؟ هل تعاون مع الثوار؟

أي ثوار الآن وقد قضى عليهم فيليب، وشتتهم ولاحقهم نحو الجبال والشواطئ والكهوف؟ وهل كان غيابي كل تلك الفترة إلا محاولة للاختباء! ولكن كيف لشاب صغير مثله أن يأتي هنا، وقد انقضت الثورات، واستكانت الهمم، واستتب لهم الأمر؟ هل ما تزال عيون رجال التفتيش تراقب وتتلصص وتعد الأنفاس؟ ربما اتهموه بالهرطقة والكفر كعادتهم، أو سيق بمكيدة دبرها له نذل يتربح من تلك المصائب، ويشي بهذا وذاك مقابل بعض النقود، لا أعرف من يكون، ولكن من هيئته التي لمحتها على عجل وسط تلك الظلمة وكأنه من أهلنا! ذلك الشعر الأسود الفاحم يذكرني بإيزابيلا العزيزة، وتلك العيون وكأنها لأبي، ليته يكون قد سكن

البيازين، أو قابل ولدي إسماعيل، إنه تقريبًا بمثل عمره، قد يكون صديقه أو رفيق عمل، أو عرفه من قريب أو بعيد، ليتني أعرف أي خبر، أحادث أي شخص يدلني عليهما، ليت الشاب يخفف عني تلك الوحدة والهواجس التي لا تنتهي.

يا الله كم باتت ديارنا غريبة .. وأنفسنا معذبة وقلوبنا حزينة ..

يا مفرج الهم أخرجنا من هذا الظلام .. واجمعني بولدي وزوجي ..

(٧٦)
وصية أمي

ابتسمت الخالة بوهن وأنا أودعها، همست بأذني سائلة:

- هل سارت الأمور على ما يرام؟

نظرت لي بعينين مبتسمتين، هززت رأسي، وعلت وجهي ابتسامة ربما لم ترها السيدة منذ أن عدت بوجه غير الذي رحلت به، ربتت على كتفي وهي تهمس بصوت متهدج:

- اسمع يا سالم، لقد انتظرتك ليلى كثيرًا، وأنت أيضًا، فلا داعي لمزيد من الانتظار، رحلت أمك قبل أن ترى عرسك وتحمل أطفالك، الدنيا لا تمهلنا كثيرًا يا ولدي، فلا تجعلني أرحل أنا الأخرى قبل أن أطمئن عليكما، تلك كانت وصية أمك قبل أن تغمض عينيها للأبد، وأنا التي عاهدت نفسي إن امتد العمر بي، ورأيتك ثانية، أن أحقق وصيتها، فلا تخذل الفتاة المسكينة، ولا تجعل انتظارها يذهب سدى.

هززت رأسي ولم أجب، باغتتني الكلام، وكأني أسمعه لأول مرة، استأذنت بالانصراف، ودعتني ليلى عند الباب بعينين تلمعان فرحًا، قبلت رأس الخالة وهربت من عيون ليلى اللامعة المبتسمة،

أسرعت الخطى نحو البيت، لم ألتفت للدكاكين التي بدأت أنوارها تضيء الحارة، لم ألتفت للمارة والشرفات التي تطل منها النسوة ينظرن إلي هامسات، لم ألتفت للصغار يتقاذفون الكرة التي كادت تصطدم بي، لم ألتفت إلا للمسافة المتبقية حتى عبرت الشارع الضيق وأنفاسي تتلاحق وأخيييييرًا....أدرت المفتاح، واحتميت بباب الدار المغلق، وقفت أمام الشرفة أنظر نحو الشارع الذي تغير، أكثر من عشرين عامًا كانت كفيلة بتغير كل شيء!

نحن نتغير، نعم، ومثلي ظل يقاوم التغيير، يقاوم الغلظة والقسوة والوحدة هناك، مثلي ظل يقاوم نسيان وجه أمه، وليلى، وصخب الحارة، ومزهريات الورد، وصوت العصفور، ورائحة القهوة، وصوت المذياع، مثلي ظل يقاوم وحيدًا، لا يعلم هل سيعود لوجه أمه ووجه حبيبته، مثلي ظل يعد الأيام! يتساقط الرفاق حوله، ويتمتم كل يوم بالدعاء قبل أن يستسلم للإجهاد والنوم، هل سيأتي الغد أم سيسقط هو الآخر كغيره، هل يتخطاه الموت أم يدق بابه قريبًا! مثلي ظل يقاوم التغيير، ولم يلحظ أن داخله رغم -كل تلك المحاولات- ظل يتبدل سريعًا جدًّا؛ كدوران الأرض؛ لا نشعر به، ولكنه يأتي بالليل والنهار، ويبدل الصيف والخريف والشتاء، كنت كتلك الأرض؛ أدور سريعًا جدًّا، أخاف أن أنسى حياتي خارج

الأسوار، لم ألحظ أني بت أخاف الناس، والتغيير، والعالم البعيد الذي ما تزال تفصلني عنه أسوار منيعة من الخوف والشك والريبة، والنظرات التي تخترقني بلا تردد، ما ذنبها إذن؟ ما ذنب تلك التي انتظرتك حتى ذبل شبابها، ولم تفقد الأمل؟ ما ذنبها الآن وهي تنتظر منك أن تفي بوعدك؟ تفي بعهد قطعته على نفسك منذ أكثر من عشرين سنة؟! وما ذنبي أنا إن كنت قد عدت مشوشًا، مشوهًا، متأرجحًا بين عالمين لا أنتمي لكليهما؟ ما ذنبي وقد فارقت عالمها حتى عدت غريبًا، أرتعب من أصوات السيارات، وأضواء الشوارع، وصخب العالم، ونظرات المارة، وتهكم الصغار منك هل أصبح يفزعه ما يفزع الصغار؟! ما ذنبي يا حبيبتي؟ وما ذنبك أنك انتظرت رجلًا عاد من العدم؟!

(٧٧)
الخالة

أفيق على دقات الباب، دقات سريعة متتابعة، الساعة لما تتجاوز السابعة صباحًا، أقفز متجهًا للباب، آملًا أن تكون خالتي الطيبة قد عادت، بوجهها الصبوح، وابتسامتها ورائحة خبزه، أعدو نحو الباب، يأتيني وجه ليلى الباكي، وكلماتها التي تختلط بدموعها، ماتت الخالة، رحل الوجه الذي يشبه وجه أمي ..

- هل ستأتي لتلقي عليها نظرة أخيرة يا سالم.

صفعني صوت ليلى الباكي الراجف المرتعش، تذكرت أمي، هي الأخرى ذهبت دون أن أودعها، أو أحمل جسدها نحو المقابر البعيدة، حيث يذهب الأحبة ولا يعودون، تنهدت، التفت نحوها متسائلًا:

- وما الجدوى يا ليلى؟ هل ستشعر بي عندما أقبل رأسها للمرة الأخيرة؟ ما الجدوى إن وقفت الآن فوق رأسها أبكي؟ هل البكاء يعيد الأحبة؟!

توقف نحيبها، وجفت أهدابها، سقطت على الكرسي، تشبثت عيناها بي، تحاول أن تقرأ ما حل بسالم الذي عرفته قديمًا، هالها

ذلك المسخ الذي يقف أمامها غير مبال بالموت، والرحيل والفقد، ساد صمت حاولت أن أقطعه بكلمات لم تطاوعني، وبعيون حاولت أن أهرب منها، فخرجت كلماتي متوترة، حانقة:

- أرجوك يا ليلى، أريد أن أستريح، فلم أنم الليلة جيدًا!

اتجهت للباب وهي تمسح دموعها وتقول:

- أرجوك، أعد لي سالمًا الذي اختفى منذ عشرين عامًا!

(٧٨)
فات المعاد .. وبقينا بعاد

قبيل المغيب، أقف هناك عند الشاهد وأقرأ الفاتحة، ترى هل تشعر أمي بوقع أقدامي وهمسي وكلماتي؟ هل تشعر الخالة الطيبة، أني جئت أودعها؟! ليتها تعلم فقط أني أخاف الناس، أخاف الفقد والوداع، وأخاف العالم، عدت أحاول النوم، متظاهرًا بأنني بخير، حاولت أن أتناسى وجه ليلى الباكي، ووجه العجوز المبتسم، أغمضت عيني فجاءتني كل الوجوه، جميعها جاءت تقرع أبواب عقلي، الشاب النحيل صانع الشاي، أبو رامي بشاربه الكث، أمي بعينيها الزرقاوين، والخالة الطيبة بوجهها الضاحك، وليلى المسكينة التي رحلت وهي تلعن سالمًا والأيام التي انتظرتها.

حاولت أن أدندن كما كنت أفعل دومًا في ليالي السجن الطويلة، انقطع اللحن فجأة، وعلا نحيب داخلي يهزني، أشعلت سيجارتي الأخيرة بالعلبة، تذكرت الأوراق التي تركتها لي أمي، هممت بفضها؛ ولكن وجه ليلى أبى أن يرحل من عقلي، أمسكت بقلمي وشرعت اكتب:

ليلى، عصفور الحرية الذي كان يتسلل يوميًّا لعقلي، نجمة السماء التي كانت تضيء؛ رغم العتمة الموحشة التي كانت حولي! صغيرتي التي كبرت أمام عيني، أعلم أنك مصدومة، مبهوتة، وربما

حانقة وخائفة، أعلم أن عقلك لا يتوقف عن التفكير، وقلبك يغلي كمرجل من الغضب، أعلم أني خذلتك ألف مرة، برحيلي المفاجئ وغيابي الذي طال أكثر من اللازم، وعودتي المبهمة الباردة المشتتة. ليلى الأثيرة العزيزة الغالية: هل أطلب صفحًا عن ذنب لم أقترفه، عن ألم تقاسمناه سويًّا، عن عمر ذهب بلا عودة، وأيام رحلت ولن تعود، إن كان أسفي سيعيدنا، سيعيد الأيام والشهور والسنين، فسأقدم ألف ألف اعتذار واعتذار، ولكن ما الذي سيقدمه ذلك الأسف لرجل عاد بلا هوية، وبلا أمل، وبلا هدف؟! ما الذي ستقدمه تلك الاعتذارات لرجل عاد بعقل مشتت، وقلب محطم، وخوف سيطر على مشاعره. عزيزتي ليلى؛ هل أطلب منك أن تبتعدي؟ هل سأكون جاحدًا إن طلبت مثل هذا الهراء الذي أقول؟ أم تراني أخاف عليك من رجل مثلي، يخشى العالم، ونظرات العابرين، وضجيج الشارع، هل أقول إني أحبك للحد الذي فيه أخاف عليك مني، ومن تخبطي، وحيرتي، وقلة حيلتي؟ هل أقول إني أريدك بجانبي رغم كل شيء؟! أريد أن أقص عليك كل شيء؟ أن أغتسل عند قدميك، أخلع كل الأثواب البالية الممزقة، أن أقص عليك بلا خجل وبلا خوف كل الأشياء التي حاولت جاهدًا أن أنكر حدوثها، أن أعترف لك بضعفي وخوفي وحاجتي إليك، هل أقول إني ما أزال أحبك، رغم كل شيء، وما أزال أنتظر عودتي لنفسي كي أستحقك، فقط أريد صفحًا لكل الذنوب التي لم أقترفها، فقط

أريدك أن تتفهمي، تصفحي، وتصبري، لعل الغائب يعود والمريض يشفى..

طويت الورقة وأطفأت سيجارتي، أغمضت عيني ولم تزل الأشباح تزورني، عدت أدندن أغنيتي والأشباح تتراقص حولي مبتسمة، وأنا أنوح نواح جريح:

فات المعاد .. وبقينا بعاد ..
والنار بقت دخان ورماد ..
تفيد بإيه يا ندم ..
وتعمل إيه يا عتاب ..
طالت ليالي الألم ..
واتفرقوا الأحباب ..
وكفاية بقى .. تعذيب وشقا
ودموع في فراق .. ودموع في لُقا
تعتب عليا ليه؟ أنا في إيديا إيه؟
فات المعاد

(٧٩)
إسـمـاعـيـل

ابتسم القس بخبث، وارتسمت علامات التشفي على وجهه! راح يخطو أمامي بخطوات بطيئة، ملوحًا بعمود حديدي بيده، يقترب من الإناء الحديدي المشتعل داخله جمرات حمر تصل حرارتها إلى خلاياي وأعصابي، يدس العمود الحديدي بين الجمرات، ويعاود النظر إلي والابتسامة ذاتها ما تزال فوق وجهه، يبتعد عاقدًا يديه خلف ظهره؛ ليعود ويدور بشكل ساخر، وكأنه يؤدي دورًا هزليًّا أمام الملك وحاشيته، ترتفع نبرة صوته الرفيع وهو يوجه حديثه إلي:

- اسمع يا خوان، هل تظنني ساذجًا لأصدق تلك الأكاذيب التي ترددها؟! هل تعلم أني أستطيع أن أشم الكذب، وأفتش داخل روحك؟

يدنو مني، ويعود ليهمس باصطناع أكاد أتبينه:

- يا ولدي، نحن أبناء الرب جميعًا، وهو الذي يريد لنا الخلاص، والمحبة والطهر، لم تصر على الكذب وهو ملعون صاحبه كما تعلم؟ أنا أريد أن أخلصك من ذنوبك تلك، فقط إن أقررت

بذنبك، وتخليت عن عنادك! اسمع يا خوان، رغم أنك مثلت أمام القساوسة من قبل، وأطلعوك على تهمتك، وأعطيناك فرصة كي تقر وتعترف، فإنك ما تزال تصر على عنادك، ألا تعلم يا ولدي أنك إن اعترفت فقد توفر على نفسك المزيد من العذاب، وأنك باعترافك هذا ستخلص نفسك، وتذهب للرب بلا خطيئة.

أبتسم من الألم، من السخرية أو عدم التصديق، بأي ذنب يريدني أن اعترف؟! وهل امتناعي عن تناول كأس من الخمر تهمة أساق من أجلها نحو الخازوق أو المحرقة؟ وهذا الواشي اللئيم، ألم يجد تهمة أكثر سخرية من تلك؟ ألم أكن مسيحيًّا مخلصًا أذهب للقداس كل أحد، وأقف أمام القس أتبرك به؟ ألم أخف اسمي؟ إسماعيل بن سليم المرسي؟ ألم أكن بعيدًا عن المشاكل والمناوشات التي يثيرها القشتاليون كل فترة؟ ألم أصمت حين اجتاحوا البيازين، وكنت وقتها دون العاشرة؟!

اقتحموا أبواب الربض بخيولهم، والأسلحة المشرعة بوجوهنا، ودار المنادي بمرسوم فيليب اللعين، آمرًا بطرد أهل الربض، وتشريدهم خارج غرناطة، بعد أن فشل الثوار هناك بالبشرات، وبعد أن رحل أبي ولم يعد.

ألم أصمت كل تلك الأوقات، ولولا أن أمي ظلت على اسمها القشتالي- إيزابيلا بدرو -ولولا أن زواجها من أبي ظل سرًّا، كتمه الشيخ، وأهل الربض المقربون؛ وكأنها قشتالية جاءت وسكنت البيازين كغيرها، لولا هذا كله لكنا رحلنا كما رحل غيرنا، كانت أيامًا مشحونة بلهيب الرحيل والغضب والمعاناة، آلاف الأسر تحزم متاعها على عجل، النسوة الباكيات، والرجال قليلو الحيلة، الأطفال الذين لا يعلمون شيئًا مما يدور حولهم، والثلوج تتساقط، والجوير زمهرير، وطوابير النازحين يتقدمهم الجند، ويحيطون الركب كأن من فيه أسرى حرب، نحو المنفى البعيد يتجهون، أقف كغيري ممن لم يشملهم قرار الترحيل أعلى التلال، أشاهد الجموع الراحلة صوب المجهول.

أنظر لأمي الباكية التي أخفت إسلامها كل تلك السنوات، وأضحت وكأنها موريسكية مثلهم، هزمها رحيل أبي، وذهب ببعض جمالها الذي كان يأخذ كل من يراها، ولكنها ظلت تحتفظ بتلكما العينين السوداوين، وهذا الشعر الأسود الفاحم الطويل، تعقده ضفيرة طويلة خلف ظهرها، كان يحلو لي دومًا أن أعبث بشعرها وهي منشغلة بأعمال البيت، فتنهرني برفق وابتسامة رقيقة ما تزال تخصني بها، أمي الصامدة أكثر من عشرين عامًا بعد رحيل أبي المفاجئ،

بعد أن انقطعت أخباره، وتوالت أخبار فشل الثورة، وتشتيت أهل البشرات، ومرسوم فيليب بإخلاء البيازين، أمي التي فجعت بموت الشيخ، بعد رحيل أبي بخمس سنوات، الرجل الذي كان يحميها من عيون الناس وتلصصهم، أمي التي اضطرتها الحاجة للتكسب، والذهاب للسوق تفرش بضاعتها الزهيدة؛ لتسد جوعي وحاجتي، متحملة سخافات المارة، وعيون العسكر، ورجال الديوان، ووشايات الأنذال الذين ينتهزون الفرص لكسب ود رجال الديوان. أمي التي تركتها الآن لا أعلم عن حالها شيئًا، سوى صورتها الباكية خلفي، ورجال الديوان يقتادونني نحو المجهول.

(٨٠)
هل ستقبلين اعتذاري؟!

توقفت عن الكتابة قبيل الفجر، تذكرت الرفاق وعيونهم تتشبث بي وهم يتحلقون حولي؛ حتى انتهي من الكتابة لأقص عليهم حكاية سليم وماريا، ابتسمت بأسًى وطويت أوراقي، رحت أنظر للشارع الساكن، أقلب نظري بين البيوت، أنظر لبيت ليلى البعيد عل شرفتها تضيء، فتبدد عتمة قلبي، لعلها هناك جالسة ورسالتي أمامها، تفضها بغضب وحدة، أو لعلها قد مزقتها ما إن سلمها لها الغلام الذي دفعت الورقة إليه ليوصلها، أو قد تكون قد عادت وجمعتها، وشرعت تقرأ بعينين دامعتين، وقلب قد أشفق علي، أو لعلها قد لعنتني ألف مرة، ولعنت ذلك الانتظار المرير، بلا جدوى.

والآن أنا من أنتظرك يا ليلى! فهل ستقبلين اعتذاراتي، أم ستغلقين شرفتك أمامي للأبد؟!

(٨١)
بوينا استاردس

أصوات المزلاج الصدئ تقطع الصمت المنساب بين جنبات المكان، الباب الحديدي الصغير يفتح فتتسلل أضواء الشموع نحو الغرفة الضيقة المعتمة، يتراءى شبح هزيل عند الباب، ومن ورائه آخر أكثر ضخامة، يدفع الهزيل نحو الداخل، ويعود ليغلق الباب، وصوت المزلاج ينحشر بالحائط مجددًا، أقترب منه، لعله نفس الشاب الذي اقتادوه منذ الصباح، أحاول تبين ملامحه وسط العتمة وخيوط الضوء الهارب من فتحات الباب، متكوم هو على نفسه، يخبئ وجهه بين كفيه، ألقي التحية، وأنا أهزه برفق:

- بويناستاردس .. صباح الخير.

يرفع وجهه نحوي فتلتقي عيناه بي، ألمح زرقتهما الصافية.

- بويناس ..

يرد السلام بوهن وانكسار، يعود ليخفي وجهه، أقترب أكثر وأجلس بجواره، أربت على كتفه، أبدأ حديثي بالعربية فأنتبه، وأتلعثم وأعود لأحادثه بقشتالية سليمة واضحة:

- هل تتألم يا ولدي، ما الذي فعلوه بك؟ وما تهمتك؟ كيف جئت لهنا؟

يرفع رأسه، ينظر لعيني مباشرة، أسرح وسط تلك الزرقة التي تذكرني بأبي، بأمي، بالبيازين العزيزة وماريا التي أوحشتني.

- أحدهم وشى بي، وشاية سخيفة، كلما تذكرتها لا أعلم هل أضحك أم أبكي، تشاجرت مع أحدهم، بعد أن اعترض طريق أمي وهي عائدة من السوق، حاول أن يغازلها، رفعت صوتها، فخاف قليلًا ثم عاد لفعلته، ظل ينتظرها كل يوم عند مدخل السوق، ومع هذا فلم تخبرني بذلك خوفًا عليّ، ولكني عرفت بالصدفة، انتظرته وتشاجرت معه، لكمته، وكأي جبان ذهب بوشاية سخيفة، وجلب معه شهودًا، واتهمني أمام رجال الديوان بدعوتي للعشاء، ورفضي تناول الخمر معهم، ورجال الديوان جاهزون دومًا لمثل تلك السخافات، حتى يثبتوا أنهم حماة التاج والملك والدين، يريدون اعترافًا، بأي شيء أعترف؟ هل هناك ذنب لأعترف به؟ ما هذا الهراء! وماذا لم لو لم أشرب؟! يريدون فقط توريطي!

توقف قليلًا، أحس بغصة كانت تمنع خروج حروفه، عاود الكلام بحدة أكثر هذه المرة:

- أمي قشتالية وأنا كذلك قشتالي وابن قشتالي، فأي تهمة تلك التي يتحدثون عنها.

لا أعرف ما الذي يمكن أن أقول لهذا الشاب، هل أواسيه أم أقص عليه قصة الهارب منذ عشرين سنة، الهارب منهم، وإذا به يساق بسبب حماقته إلى هنا، يجتر ذكرياته وحسرته، جلست بجواره، أسند رأسه على كتفي، وأغمض عينيه كطفل هارب من عالمه، وكأنه يحتمي بشيخ مثلي، ربما يذكره بأبيه، لم أجرؤ على سؤاله عنه، اكتفيت بذلك الطفل الكبير المحتمي بي، وكأن إسماعيل عاد ليرتمي بحضني، ولعل الله أراد أن يواسيني قليلاً.

(٨٢)
أين كنتِ يا بنت؟

مر أسبوع، سبعة أيام وأنا على حالتي تلك، أكتب عن سليم وإيزابيلا وإسماعيل، وأعود لأقف أمام الشرفة، أتلمس ضوء شرفتها البعيدة، أتلمس طرقًا على الباب، أتلمس صوتها، ووجهها بين المارة، أوشكت قروشي القليلة على النفاد، تبقى القليل من خبز الخالة الطيبة، ألوك اللقمة بمرار شديد وأنا أفكر بليلى، هل سترحل هي الأخرى؟ ألا يكفي رحيل أمي والخالة المبتسمة؟ ألم تكتف الدنيا من هزيمتي؟! ألم تشبع من إيجاعي بسياطها وبلاياها؟!

أمسك القلم لأعود لحكاية سليم فتتراءى ليلى الباكية، كسيرة القلب وهي ترحل، ونظراتها المحفورة بقلبي للآن، هل أذهب إليها! وهل يليق أن أفعل ذلك، هل أرسل لها رسالة أخرى، هل أخرج للشارع وأقف عند المنتصف تمامًا، ألوح لها، جاثيًا على ركبتي وأطلب صفحًا، ما الذي يمكن أن أفعل وأنا الذي ما أزال مقيدًا، وكأن أغلال الزنزانة تطوق بمعصميّ!

هل هذه حقًّا طرقات على الباب، أم إنها أضغاث أحلامي اليومية، أسرع نحو الباب، أفتحه على عجل، أهذا ضوء النهار أم إشراقها هي! أهذا دفء الشمس أم دفء ذراعيها الممدودين لي، ارتميت كالطفل، احتواني ذلك الحضن الطويل الدافئ.

- أين كنت يا بنت؟ أين كان ذلك الدفء والملجأ والملاذ؟!

(٨٣)
هل أرحل بسهولة هكذا؟!

تجلس بجواري تمامًا، تلتصق بي وكأنها تخشى علي، أو تخاف رحيلي ثانية، تتأبط ذراعي وتستند لكتفي، تنسدل خصلات شعرها فتخبئ جبينها، تغمض عينيها وتتنهد وهي تقول:

هل اعتقدت أني سأرحل حقًّا! كيف لك أن تتصور هذا وأنا التي انتظرتك عشرين سنة؟!

تبتسم ابتسامة ذات معنًى وهي تقول:

- هل أرحل بسهولة هكذا؟! على قلبك ..

أقترب منها، أضم وجهها الصغير بين كفي، أغوص بتلك العيون السوداء الناعسة، تغريني شفتاها المكتنزتان، أقاوم رغبتي الملحة في التهامهما، تنظر ليلى لي طويلًا، تتفحص وجهي وتحاول أن تقرأ أفكاري المشوشة، أضمها وأعتصر خلاياها، أتنفس بعمق وأهمس بأذنها:

- ألا تعلمين أني كنت أحلم بك كل ليلة، كل ليلة وأنا هناك وحيدًا، كان وجهك وصورتك وصوتك وهيئتك تأتيني جميعًا، تفترش الوسادة البالية بجواري، أحادثك طويلًا جدًّا، أقرأ

عليك حصيلة يومي، تقفزين كعادتك واقفة عندما تشاكسين، كأنك ما تزالين تلك الطفلة التي كبرت بين يدي، ورعتها عيناي، وألفها قلبي، وجمعتها قطعًا صغيرة كفسيفساء نادرة الوجود، وكأنك صنعت على عيني ولي، لأجل أن تقاسميني الغد الذي كنا نحلم به، كنت جليسي الذي يأتي عندما ينام الجميع، كل كان ينام على حلم ومع حلم ومع أمل، وأنا الوحيد الذي أقاوم النوم الذي سيحرمني وجهك! ربما عدت متأخرًا، متأخرًا جدًّا، عدت بقلب موجوع، وعقل مشتت، وروح باهتة، ولكني عدت وأنت ما تزالين بداخلي، بذرتك التي تركتها يومًا هناك بمكان ما، لم تزل رغم صحراء روحي، لم تزل برعمًا أخضر، لم تطله يد السجان، ولم تكسره خشونة الأيام، ما تزالين هناك حبيبتي، فقط أريدك أن تعودي لتسقي نبتتك، دعيها تزهر ثانية! ليلى، أريدك بجانبي، أريد أن تلتئم جروحي بين يديك، هل تتزوجيني؟!

(٨٤)
جراح الروح

يأتي النهار محملًا برائحتها، أفتح عيني على وجهها النائم بهدوء بجواري، وخصلات شعرها الهاربة السوداء، التي تتخللها شعرات بيض، كأنها تذكرني بسنوات الانتظار، ما تزال ليلى جميلة رغم كل تلك السنوات، ما تزال هادئة وحيية كبرعم الفل الندي البكر، توجهنا من فورنا بالأمس فعقد الشيخ لنا، كل ما احتجناه شاهدان من الجيران، لم يتبقَ لها أحد ولم يبق لي سوى ذكرى أمي، والخالة المبتسمة، وصورة أبي البعيدة المحفورة بذاكرتي، بكيت كثيرًا على صدرها، ضمتني كأم، وصديقة، وعشيقة، وزوجة، وطبيبة تضمد جراح الروح، مسحت شعري، وابتسمت ابتسامة هزمت كل الخوف بداخلي، اعتذرت لها طويلًا وحكيت كل شيء، قاومت خوفي ورغبتي في الهروب، فتحت كل صفحات كتابي الوجيعة، وجعلتها تقرأ بلا تردد، حتى كل الأشياء المخجلة والتي حاولت أن أمحو ذاكرتها، حتى امتهان رجولتي بين أسوارهم، حتى لحظات ضعفي وانكساري، حتى عندما كنت أبكي كطفل هناك وحيدًا،

أنادي على أمي وأرسم صورة ليلى فوق الحائط، وعلى وجه السماء الهارب من الكوة الصغيرة!

أخذتني من يدي، مسحت دموعي وضمتني، غيبتني بقبل طويلة، انتزعت كل الحزن من داخلي، غبنا حتى تسلل النهار عبر النافذة، أعادت إليَّ سالمًا الذي كان قبل عشرين سنة، تسللت داخلي، وتوغلت داخلها، انتعشت خلايانا العطشى، وارتوت أخيرًا، فاجأتني بهرة مشاكسة رغم هدوئها الخارجي، وكأنها كانت تدخر كل ذلك النزق لي وحدي، التصقنا حتى صرنا جسدًا واحدًا، وروحًا واحدة، صارت ملاذي الذي التجأت إليه، عرفت أخيرًا معنى أن نحتمي بمن نحب، أسرتني تفاصيلها الصغيرة، حبات الخال المتناثرة هنا وهناك وهي تناديني، أسرني شعرها المنساب غجرية مجنونة، أشعلت فتيل الرجل بداخلي، فعاد ينهل بلا توقف، عاد يرتوي بعد سنوات عجاف طالت، فتشقق وجه الأرض داخل روحه.

أعادتني ليلى، أعادت روحي وجسدي ورجولتي، أعادت سالمًا من جديد، سقت برعمها الذي عاد يزهر أملًا وحياة جديدة ..

(٨٥)
مستحيل!

مر الصباح بلا حراس يطرقون الباب؛ إلا من أحدهم ألقى بقليل من الطعام سريعًا، ثم أغلق الباب، وعم الهدوء، حملت طبق الطعام وقربته من الشاب النائم، هزته برفق ففتح عينيه المتورمتين ببطء، وابتسم وألقى تحية الصباح، جلست بجواره، مد يده نحو الطعام، وهمس باسم الله، ابتسمت بدهشة وأنا أنظر إليه وأصيح بفرح طفل:

- بسم الله؟! نعم أنت منا، كنت أعلم ذلك، من أنت يا بني؟ لعلك تعرف ابني، هو في مثل عمرك، لعلك تعرف كيف أصل إليه، لعلك تطمئن الغائب منذ عشرين سنة.

وجل الشاب وتلعثم، نظر إلي طويلًا، لم يجب، ظل صامتًا لفترة يلوك الطعام على مهل، وأنا ما أزال متشبثًا بعينيه، أشاح نظره بعيدًا، نحو سقف الغرفة الواطئ العطن، زفر طويلًا، نظر لي وتبدل بياض عينيه، لاحت سحائب حزن بهما، تبدل وجهه الجميل، وكأنه عجوز افترشت السنوات تجاعيده.

لم يزد عن كلمتين:

- أعرف أنك موريسكي، وأبي كذلك! لقد رحل أبي سليم المرسي صوب الجبال، وأنا في الرابعة ولم يعد!

ثم أجهش ببكاء مرير.

أظن أن الشمس توقفت عن الدوران .. المجرات .. الكون كله .. دهشة مضحكة مبكية .. هذيان، وغليان في الروح .. أحاسيس يستحيل أن توصف .. يعجز عن إيرادها أفصح الناس، وأعظمهم اقتدارًا، وتمكنًا من ناصية اللغة، توقف الزمن هنا، لاحت لي ماريا وإيزابيلا وأبي والشيخ وبيتنا والبيازين! أمعنت النظر به، هل يكون هو؟ إنه هو .. نعم .. هو .. إسماعيل .. ابني وحيدي ..الذي غاب عني عشرين سنة؟! هل اصطفاني القدر وحمله إلي، بعد كل تلك السنوات؟ يالنعمة الله .. هل يكون السجن أحب إلي الآن من الدنيا وما فيها؛ وهو الذي جمعني بولدي؟! ضممته فجأة وهو ذاهل، قبلت رأسه ويديه، صرخت:

- آااااااااه يا إسماعيل! كم اشتقت إليك يا ولدي!

(٨٦)
يـاااه ..يـا أبــي!

هل يكفي اليوم وغدًا والشهور والسنوات القادمة لأنهل من شوقي المؤجل، وحكاياتي المدفونة داخلي، وقلبي الذي يحمل ألف طعنة، وصفعة، ورغبة في الصفح، أضمه وأعود لأضمه، أقبل عينيه الباكيتين، أمسك بيديه المرتعشتين الباردتين، يزيغ بصره فلا يجيب، وكأنه لا يستمع لي، كان بعالم آخر، ذاهلًا عما أقول، أهزه برفق وأعيد كلماتي:

- نعم يا بني، أنا أبوك، سليم الذي رحل منذ عشرين عامًا ولم يعد، أنا الذي ظل مطاردًا، معذبًا ببعدي عنكم، بشوقي الذي مزقني، وعجزي عن العودة، سامحني يا ولدي، رغم علمي بأن الكلمة فقدت معناها منذ زمن، ولكن لا أملك غيرها، سامحني يا ولدي.

تتوقف دموعه فجأة كأنه انتبه لوجودي الآن فقط، أطال النظر إلي، وقف فجأة، ابتعد، أشاح بوجهه، أدار ظهره، ضرب الجدار بقبضته عدة مرات حتى خفت أن يتأذى، عاد يواجهني، صرخ بوجهي:

- لمَ رحلت يا أبي؟

ثم عاد ليضمني طويلًا وهو يصيح:

- يااااه .. يا أبي، كم اشتقت لتلك الكلمة! كم اشتقت لك!

(٨٧)
لـمـاذا؟!

لماذا رحلت يا أبي؟ سألت أمي مرارًا، عندما كبرت وخرجت ألعب عند باب الدار، عندما كنت أشاهد الآباء قادمين عند مدخل الحارة، وعيون أبنائهم المتعلقة بهم، يتقافزون إليهم، يتركون اللعب، ويغلقون الأبواب، وتتناهى لمسامعي ضحكاتهم من خلف النوافذ، أعود لأمي فترى عيني الدامعتين، ولا تفهم ما حل بي، تعتقد أني تشاجرت، فأخفي حقيقة شوقي إليك حتى لا أزيد ألمها، كنت أراها تقف عند الباب ساعات طوالًا، شاخصة صوب مدخل الحارة الضيق، علها تلمح طيفك قادمًا من بعيد، طالت الأيام، ولم تأت أنت، ولم تكف هي عن الانتظار، كبرت يا أبي وما أزال أسأل: هل كان يجب أن ترحل؟ هل استحق رحيلك كل هذا الثمن الذي دفعناه؟ رفع رأسه وألقى بسؤاله الذي أسكت صوت الفرح قليلًا بداخلي! كان يقولها بمرارة ذاب قلبي معها، تأملت وجهه الذي أعادني للأمس البعيد؛ يوم أن خرجت متسللًا والدموع بعينيها لم تجف، والسماء لا تتوقف عن النحيب، يومها قلت لها:

- لن أتأخر.

قبلتك وأنت لا تعي من الأمر شيئًا، ورحلت صوب الجبال، أردت أن أحميك يا ولدي، ظننت أنني برحيلي هذا وانضمامي لثورة بدأت في المهد تحتاج لمن يقويها، ظننت أني سأعود بحريتك وحرية أهلي، ظننت أننا قادرون على محاربة العرش والملك والكنيسة المتغطرسة المتآمرة، ظننت أن الغد يمكن أن يكون كما كان بالأمس القريب: أن ترتفع المآذن، أن نصلي صوب القبلة، نغتسل يوم الجمعة، ننادي بعضنا بأسماء أصبحت محرمة بين يوم وليلة، نقرأ القرآن بصوت عال، نضرب الدفوف، ونرقص الزمرة، تخضب النساء أيديهن وأرجلهن؛ دون أن يخرج معتوه يصيح بأنه يتمنى أن يسلخ جلود هؤلاء النسوة.

ظننت يا ولدي أن النصر قريب، ولم أكن أعلم أن الحرب قذرة، وأنهم استباحوا كل شيء، وظللت أنا المطارد بين الكهوف والمغاور والجبال! هل تسامحني يا ولدي إن قصصت عليك كل شيء؟! لعل ما سأرويه لك يشفع لي عندك، ولعلي أخفف بعضًا من أثقال أحملها كل تلك السنوات.

(٨٨)
القبض على الجمر؟!

بدأ الأمر مريبًا، كنا قد ارتضينا بما وقع علينا منذ سبعين عامًا، توارث الآباء ما اضطر إليه الأجداد، تنصروا كراهية، ذهبوا زمرًا نحو الكنائس، كانوا يتخلون عن أسمائهم، ويتسمون بأسماء قشتالية، أحرقوا كتبنا، طمسوا هويتنا، كنا نتخفى من أجل أن نقيم شعائرنا.

نقضت إيزابيلا الكريهة العهود، كانوا أحيانًا يتغاضون عن بعض الأشياء، ليس حبًّا فينا، ولكنه المال؛ كنا ندفع من الضرائب أضعاف ما كان يدفع القشتالي، كان الفساد مستشريًا، حتى القساوسة كانوا يتربحون من ورائنا، آلت الأمور من سيئ لأسوأ، ونحن نقبض على ديننا كالقابض على جمر لاهبٍ لا يعرف متى يخمد لهيبه، تتسرب إلينا الفتاوى عبر البحر، نتناقل الأوراق المطوية المكتوب بها: اثبتوا، وحافظوا على ما تطيقون، وأنتم في حكم المكره والمضطر، والضرورة تبيح المحظور ..

كنا نتبع منهج التقية، نكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم جهرة ونوقره بقلوبنا سرًّا، نتحايل حتى نتوضأ، نجمع الصلوات ليلًا،

نغتسل في النهر حين يتاح لنا، نأكل الخنزير وداخلنا يحرمه، نصارع وحدنا، نتلمس العون والكل منشغل عنا، ولم نكن نعلم أن الأيام ستأتي بما هو أسوأ.

لم يكن موت إيزابيلا خيرًا كما اعتقدنا، تبدلت الأيام يا بني، وجاءنا من هو أسوأ، جاء فيليب وأصدر مرسومه البغيض، أراد أن يفرض مزيدًا من السيطرة على الفئة المستضعفة، كنا دومًا نشكل ذلك الهاجس الذي لم يستطيعوا نسيانه، كنا تلك الفئة المشكوك فيها دومًا، حتى بعد أن تنصرنا، كانوا يفتشون داخل أرواحنا.

دار المنادي بالمرسوم البغيض، منعوا كل شيء، مسحوا هويتنا، حولونا لمسوخ، وبشر بلا هوية ولا لغة ولا دين، حتى حرمات الدور انتهكوها، أمرونا بترك أبواب الدور مفتوحة أيام الجمع والأعياد الإسلامية، كانوا يمرون علينا ليتأكدوا من تنفيذ بنود المرسوم.

انتعشت محكمة التفتيش، واستشرست، حاكمت نصف الموريسكيين بتهم تكاد تذهب بالعقل، انفجر الغضب المكتوم، ظلت النفوس تغلي حتى جاء اليوم الذي اشتعل فيه فتيل الحرب القذرة، ولا سيما عندما انتشرت التوقعات السرية المكتوبة بالألخامية عن غزو الجيوش العثمانية وجيوش شمال أفريقيا في

أعوام السعد في التقويم التنجيمي، وتناقل القرويون البسطاء كثيرًا من الجفور التنبؤية التي ذكرت أن الفتح قادم على أجنحة ملائكة قادمة لنصرتنا، في عصائب من الطير؛ معلنة عن مجيء ملك أندلسي جديد.

هرب الناس نحو الخرافات وكتب التنجيم، تناقلوا الكثير من نبوءات العرافين، كانت الأرض خصبة لإنبات ثورة تخلصنا من الظلم الجاثم فوقنا عشرات السنين، تلمس الناس الخلاص في أي شيء، حتى لو كانت نبوءة عراف، أو خرافات كتبت وتناقلها الناس سرًّا، ولكن الشيء الحقيقي والأكيد يا بني، أن هناك من حارب، وقاوم، ومات من أجل الخلاص.

(٨٩)
الإنكيسيثيان

هل كنت تعتقد يا بني أننا كنا سنقف مكتوفي الأيدي، ونحن نرى كل شيء يزول بهذه السرعة وبخطة محكمة لمحو كل شيء؟! كانت الأندلس العامرة تزول وتختفي، ونحن مقهورون تحت وطأة الأحكام العرفية، ومراسيم الملك، والإنكيسيثيان: المحاكم اللعينة التي نصبت للتفتيش في الضمائر والقلوب، واتهام النوايا، والحرق بالاشتباه، بدأت الثورة تجتاح المدن والقرى، بدأ الغضب يسري رغم كل المحاذير والعوائق.

استيقظنا عشية النابيداد؛ عيد الميلاد المزعوم، وفرقة من الرجال تجوب الربض، يعزفون على المزمار، وينادون باسم محمد، يدقون أبوب البيوت يستحثون الناس على الخروج لمواجهة بطش الكنيسة، وجرائم كهنة محاكم التفتيش.

كان فرج بن فرج قائدهم، الذي التقيته بعد ذلك ونحن محاصرون بالكهوف، وكان أكثرهم جرأة، يتنقل بخفة بين الحواري، يخطب في الناس الذين ظلوا يراقبون من خلف خصاص النوافذ، ولكنهم لم يخرجوا، لم ينضموا لكوكبة الرجال الذين يأسوا من إيقاظ روح

الثورة، فانسحبوا نحو الجبال سريعًا، ولكن الثورة لم تهدأ، وكأنهم أشعلوا الفتيل، وكسروا حاجز الخوف!

كانت الأيام التالية مرعبة، تناقل التجار والقادمين من البشرات روايات عن حروب الشوارع التي اجتاحت قرى البشرات، عن انتقام بعض الموريسكيين، عن تقليدهم لأفعال مجرمي محاكم التفتيش أحيانًا، وانتقامهم من معذبيهم، اجتاح الغضب الجميع، كانت الثورة تنتشر بسرعة حتى كانت أكبر من تصور القصر نفسه.

كنا نترقب، نستعد خفية، نحاول أن نخفي بعض الأسلحة التي كانت ممنوعة بالطبع، نتقابل سرًّا، نتشاور في أمر الثورة القادمة بقوة، محاولين الخلاص من تلك الحالة التي وصلنا إليها، تناقل الرجال الكثير من الروايات، عن الطقوس التي بدأ الناس يمارسوها علانية، عن الصلاة التي أقيمت لأول مرة بإحدى الدور المملوكة لوجيه موريسكي أعلن انضمامه للثورة.

كنا نمني أنفسنا بيوم الخلاص، ولكن في غضون أسبوعين كانت قوات القائد موندخار قد أحكمت قبضتها على غرناطة، التي كانت مشتعلة تحت الرماد، فرضوا طوقًا حول المدينة، وقطعوا الطرق نحو البشرات، ثم اجتاحوا بخيولهم الربض؛ بحثًا عن الثوار المختبئين.

وقتها يا بني لم يكن لي بد من الانتخاء، والمشاركة، كيف كان لي أن أقف بلا حراك؟ أن أقف متفرجًا والكل يشارك؟ بهتت أمك إيزابيلا وقتها من كلماتي، ولكنها لم تجب، كانت عيناها الجميلتان تخفيان دموعًا أبت أن تنسكب، ولكنها لم تعترض، لم تمنعني، كان حبها أكبر من أن تطفئ بداخلي تلك الجذوة التي اشتعلت وتنامت مع الأيام!

لجأت للشيخ الذي لم يجد ما يقوله، أيمنعني وهو الذي رباني على رفض الظلم! وهو الذي كان يتمنى أن يسبقني نحو البشرات؛ لولا رجائي إياه بالبقاء حتى يرعاك وأمك؟! حملت رسالته التي كتبها لابن أمية سلطان أندولوسيا وغرناطة كما لقبوه وقتها!

خرجت يا ولدي والجو عاصف، وثلوج الشتاء تغطي الطرق الوعرة نحو الجبال! كنت أعتقد أني سأستقر ثم أبعث بمن يأتي بكما وبالشيخ، لم أكن أعلم أن الرحلة التي بدأت وأنت لم تتجاوز عامك الثاني بعد، ستمتد بي لأكثر من عشرين سنة ..

(٩٠)
الاعتراف

انقطع الحديث، علا صوت الآمر بالخارج فزمجر المزلاج، واندفع الجندي للغرفة يطلبني، خرجت وعيناي تتعلقان بإسماعيل، اقتادوني نحو غرفة فسيحة، يجلس بها ثلاثة من القساوسة، أوقفني الحارس بالمنتصف حيث العمود الرخامي الضخم، أحكم ربطي بالعمود وكأنني سأفر من أيدي هؤلاء الزبانية الذين يستمتعون بسلخ الجلد، وكسر العظم، وشي اللحم البشري، اعتدل رئيسهم وبدأ يتلو آيات من الكتاب المقدس، نظر إلي بوجه خال من التعابير ثم أردف:

- هل أنت إيرناندو لوبيث، وكان اسمك قبل التعميد سليم المرسي؟
- نعم سيدي.
- هل تقر بالتهم الموجهة إليك الاعتداء على كاثوليكي طاهر، ومغازلة زوجته، ومقاومة السلطة؟

دار السؤال بعقلي، وعادت صورة ماريا تترنح أمامي وهي تقف أمام المحاكمة، لم تقر بأنها ساحرة ولكنهم أحرقوها، لم يكن هناك دليل واحد يؤيد ذلك الحكم، ولكنها ذهبت نحو المحرقة؛ بعد أن

عذبوها طيلة أشهر حتى فقدت عقلها، هل أعترف؟! هل أذهب للمحرقة أنا أيضًا، هل أترك إسماعيل بعد أن وجدته، بعد عشرين سنة من الغياب؟ هل تقسو الأيام من جديد؟!

علا الصوت مجددًا، أعاد السؤال، لم أجد أمامي سوى الاعتراف.

- نعم سيدي، تهجمت على الرجل، كنت أعتقد أنه دييغو المرابي، بحثت عنه طويلًا، ودلني أحدهم على بيته، ويبدو أني أخطأت الدار، أما السيدة التي اتهموني بمغازلتها فأقسم أني لم أرها إلا بالأمس، وكنت أسألها عن الرجل فظنت أني أغازلها، أما مقاومتي للجنود فلم تكن سوى محاولة مني لشرح الموقف.

نظر الرجل لي طويلًا، قبل أن يهمس للجالسين حوله ببعض كلمات، ثم عاد يتفحصني وكأنه يفتش داخل عقلي، ترى هل سيصدق كلماتي؟! أشار للحارس، وأمره أن يعيدني للزنزانة مرة أخرى، وهو يقول:

- سنمهلك بعض الوقت إيرناندو، لعلك تغير موقفك، وتعود لتعترف بذنبك.

(٩١)
الوجيه مندوسا

هل سأفقد إسماعيل كما رحل أبوه من قبل؟ هل سأبقى وحيدة ما تبقى من عمري، ألوك المرار وحدي؟ ألا يكفي رحيل سليم الذي هدني؟ هل ستحرمني الأيام من إسماعيل أيضًا، زهرتي التي عشت من أجلها؟!

حاولت أن أحميه قدر ما أستطيع، أن أجعله بعيدًا عن الأحداث والفتن التي تدور حولنا وتتسلل إلى بيوتنا، عشت دومًا متجاهلة نظرات العيون المتفحصة، أغلقت عيني وأذني عن كل شيء، عن كلمات الإطراء التي تتناهى لمسامعي كلما مررت بالسوق، أو افترشت بضاعتي الزهيدة، حتى الباعة لم أسلم من مضايقاتهم، كان وجود الشيخ يحميني، منعني من الخروج للسوق، كفلني أنا وإسماعيل عندما طالت غيبة سليم، علم ولدي مبادئ دينه، كنت أجلس معهما أستمع وأتعلم أيضًا، وكأن الله أراد أن يواسيني ويربط على قلبي، كانت الآيات تربت على روحي وتمسح حزني، كنت أستفسر عن المعنى الذي يستعصي علي فهمه من الشيخ، فيشرح ويستفيض، وأنا الذاهلة من التيه الذي كنت فيه، المتسائلة عن

الحياة التي كنت أعيش، وعن سليم الذي انتشلني وأهداني حياة جديدة، وأهداني إسماعيل، لولا رحيله المفاجئ الذي هزمني.

أتذكر ذلك اليوم جيدًا، عندما عثر عليَّ خوسيه الكريه صاحب الحانة، لا أعرف كيف وجدني، لم أدر إلا وهو واقف أمامي وأنا أنادي على البضاعة المفروشة أمامي، وابتسامته الصفراء وأسنانه السوداء المتآكلة، وهو يرفع صوته الأجش يستهزئ بي:

- إيزابيلا الجميلة الفاتنة، تبيع الفطائر على قارعة الطريق!

يعلو صوته، ويجول بعينيه نحو المارة مهددًا:

- ألا تريدين أن تعودي يا جميلة لبابا خوسيه، الحانة تنتظرك، أم أنك ما تزالين تهيمين حبًّا بذلك الشاب الهارب!

وقتها، سقط قلبي، ضممت إسماعيل الذي كان يلعب بجواري، لمح خوسيه الفزع بعيني، نظر للولد وهو يضحك بمكر ويقول:

- أرى أن الحب قد أثمر عصفورًا صغيرًا، والعصفور ما يزال ضعيفًا يا جميلة، ألا تخافين أن يطير بعيدًا!

وقفت فجأة وكأن الله قد قذف بقلبي كل الطمأنينة، صرخت بالناس:

- أغيثوني أنا القشتالية الحرة المؤمنة بالرب خيسوس، أنقذوني من ذلك الرجل، يريد أن يخطف ابني ..

امتقع وجه خوسيه، حاول أن يسكتني، اجتمع الناس، وسرعان ما اقترب الجند يستفسرون، علا الصياح وتداخلت الأصوات، عرف خوسيه أنه لا بد سيساق نحو محكمة التفتيش، فأي تهمة -وإن كانت مجرد ادعاء- كفيلة بأن تورط أي شخص، حتى لو كان من الكاثوليك الأقحاح، وسمعة خوسيه صاحب الحانة ليست ناصعة البياض، وسيفتشون وراءه وسيجدون الكثير.

هربت من ذلك الموقف، وعدت للبيت أحتمي بجدرانه وذكرياتي مع سليم، أخرج لوحة أبيه وأسرح فيها كما كان يفعل سليم، أناجيه لعله يستمع لي، متى ستعود لتحميني وتحمي ابنك من خوسيه وأمثاله؟ والآن ماذا أفعل، هل أطرق أبواب المحكمة؟ وهل يسمحون لي حتى بالاستفسار؟ فمنذ أن عين الكاردينال ديثا رئيسًا (لبيت المحنة) وهو ينفذ البنود بحذافيرها، يضيق الخناق سنة بعد الأخرى، هل أطلب مساعدة عائلة الوجيه مندوسا، تلك التي لم تتأخر عن تقديم العون دائمًا، كانوا يقفون كثيرًا أمام تعنت المحكمة وأحكامها المخبولة، أتذكر جهودهم يوم أن لجأ إليهم أحد التجار، حين أخذوا ولده الذي اعترض على سرقة جنود موندخار بضاعة والده؛ بحجة التفتيش عن أسلحة مخبأة، لم يزد الشاب عن اعتراض مهذب؛ لكنهم اقتادوه مكبلًا نحو المحكمة،

ليغيب بأقبيتهم شهورًا، حتى توسط له مندوسا، فأخرجوه بعد أن صادروا بضاعة الشيخ، وأخذوا الكثير من أمواله.

يا الله متى ينتهي هذا الظلم؟ حتى بيتي، بيت سليم خرجت منه، تغيرت البيازين ولم يعد المكان آمنًا لي ولإسماعيل، خلا الحي من الرفقة القديمة، الشيخ والجارات الطيبات اللاتي شهدن عرسي ومولد إسماعيل، وتكتمن على زواجي! حتى بعد رحيل سليم لم يتركن مناسبة إلا وكن دومًا بجانبي، إلى أن جاء اليوم المشؤوم، الذي أمروا فيه جميع الرجال فوق العاشرة بالتجمع أمام الإجليسيا(*)، استيقظنا يومها على المنادي يجوب طرق البيازين، والجنود من ورائه يفتشون البيوت، ويسوقون الرجال أمامهم، مكبلين نحو المجهول، اقتادوهم خارج غرناطة، نحو قشتالة وأندولوسيا؛ تاركين وراءهم وطنهم وعائلاتهم.

علا النحيب، واشتد النهار فوق الرؤوس ونحن نترقب، كان الانتقام عنيفًا، خرج علينا القائد موندخار صباح اليوم الذي يليه، يجوب الطرقات لتهدئة النساء اللاتي رحل أزواجهن وأولادهن، أمهل النسوة بعض الوقت حتى يبعن ما تبقى لهن، ويلحقن بالرجال.

(*) الكنيسة.

كانت الشهور التالية مريرة، ولم يكن الوداع سهلًا، كان النحيب لا ينقطع، والآمال بلقاء قريب تتلاشى، تفرقت الأسر، وخرجت النسوة يحملن ما تيسر لهن حمله.

تنامي لأسماعنا بعدها أن الكثيرات لم يصلن، لم يصلن أبدًا، ولم يجتمع شمل الأسر لاحقًا، فكثير من الجنود قاموا بخطف النسوة، وبيعهن جواري للنخاسين المنتشرين عبر الطرق.

رحلت أنا أيضًا، أغلقت البيت وسكنت حي الوراقين، ولم البقاء وكل شيء هنا يذكرني بالجرح النازف الذي لا يلتئم؟! هربت بولدي بعيدًا، خشيت عليه، وها هو يساق بلا جريرة، سأطرق بيت مندوسا لعلي أجد من يمد يد العون لي.

(٩٢)
إشو ميو برشياد

ما إن دخلت عليه حتى هب واقفًا، يقبل رأسي ويدي ويجلسني قائلًا:

- الحمد لله، خفت ألا أراك مجددًا يا أبي.
- الحمد لله يا بني، ولكن لا أعرف ما الذي سيحدث غدًا، اليوم مر بسلام، ادعيت أني كنت أبحث عن واحد أخذ أموالي، فلعلهم يقتنعون بالرواية، ولكن أخاف إذا فتشوا ورائي أن يعلموا بقصة رحيلي المفاجئ وظهوري المفاجئ، لعل الله يعمي أبصارهم فلا يدققون كثيرًا، المهم يا ولدي أن نجد مخرجًا من هنا، غدًا سيقومون باستدعائك مرة أخرى، أريدك ألا تهتز، وأن تثق بأن الله يسمع ويرى، ولن يضيعنا سبحانه، لقد جابهت الموت كثيرًا يا إسماعيل، كم من المرات قلت إني ميت لا محالة، ويشاء الله أن يردني سالمًا، هناك حيث القتل كان سمة الأحداث التي عشتها، منذ دخولي الأول لقرى البشرات المحررة، حاملًا رسالة الشيخ لابن أمية، التي لا أزال أتذكر

كلماتها، لقد خطها الشيخ بالألخامية؛ خشية أن تقع في أيدي الجنود، فتنكشف العلاقة بين الشيخ وابن أمية:

(إشو ميو برشيادُ المجاهد محمد ابن أمية الله تُغارد .. إشت إش سليم الإشو دمي إرمانُ .. بان أنشوتُرش أفرسندسُ كم سوادا دُلال أُشرُيغُ لَتَنغايش باشو بُيسترَ برُتَكسيُن الله أسبانفيس بُرإجُ ولبرادنُش دالجوغُ دالُشكفارش ولمال دركشون.. . ال كوس....عبد الملك الأشبيلي)(*).

هناك يا بني، حيث الموت يواجهك في كل مكان، والأنباء تتواتر من كل الجهات، أنباء عن الهزائم والانتصارات، عن القتل والانتقام والسلب، عن قرية فليش التي أبادها المرسي دونلويس عن آخرها، عن النساء اللاتي ألقين بأنفسهن من قمم الجبال هربًا من العبودية، عن إعدام المئات من الرجال والنساء والأطفال بلا رحمة ولا شفقة، عن قرية ابن أمية التي انتقم منها الجنود؛ فذبحوا وفدًا من الشيوخ خرج لاستقبالهم، ثم نهبوا البلدة، وغادروها بطابور طويل من النساء المكبلات والبغال

(*)ولدي الغالي المجاهد محمد بن أمية حرسه الله .. هذا سليم ابن أخي .. يأتيكم راغبًا في أن يكون جنديًا مخلصًا لكم فأرجو أن تضعوه تحت جناحكم .. نفع الله بكم واعتقنا من نير الكفر والقهر والضلال .. محبكم عبد الملك الأشبيلي.

المحملة بالأقمشة الحريرية وغيرها، ضمني ابن أمية أولًا لمعسكر التدريب، رأيت هناك مقاتلين جاؤوا من المغرب والجزائر، وحتى من الأستانة، دربونا على حمل السلاح وعمليات الكر والفر، كان العدو يفوقنا عدة وعددًا، وكانت أسلحتنا القليلة لا تكفي على الإطلاق، ولكن رغم ذلك كان الإيمان يملأ قلوبنا.

انضممت أولًا لفيلق كانت مهمته مراقبة الطرق بين الجبال، حيث عصابات العدو المتسللة، كنا نجوب الكهوف وبين التلال والجبال، ننصب الكمائن للأرتال المتنقلة بين القرى، يبدأ بعضنا بدق الطبول ونفخ الأبواق، يتبعها هجوم بما يتيسر من سلاح، كنا في العادة نحرز تقدمًا عليهم بفعل المباغتة، ولكننا كنا كثيرًا ما نفتقد للتدريب والعتاد، فأغلب جيش ابن أمية من الفلاحين والصناع الذين انضموا للجيش على عجل.

لم تكن الحرب متكافئة يا بني، كنا كمن يحارب أوروبا بأكملها، فئة مستضعفة أرادوا اجتثاثها ومسح هويتها، وكل ما أردناه أن يتركونا نمارس شعائرنا في سلام.

(٩٣)
إيزابيلا بدرو

وقفت بالباب أكثر من ساعة، الشمس حارقة وطابور المنتظرين طويل، عند الباب الداخلي وقف أحدهم يدون أسماء المنتظرين، أناس جاؤوا لحاجات مختلفة، همهمات تتناهى لمسامعي؛ شيخ جاء ليتوسط له الوجيه كي يخفض الضرائب المفروضة عليه، وأحدهم جاء يشتكي جاره الذي سرق أرضًا له، كل جاء بشكوى، وجئت بألم بقلبي، وغصة لا تفارقني منذ عشرين سنة، وقفت بالباب أدعو الله في سري أن يجعل الوجيه سببًا في عودة ابني.

- إيزابيلا بدرو.

قطعت الأفكار التي تدور بعقلي، تقدمت نحو الباحة الداخلية للبيت الفسيح حيث الحديقة المثمرة، كانت أشجار التين والسفرجل والبرتقال تمتد عبر الممر المؤدي لقصر كبير على الطراز الأندلسي القديم، صحبني الحارس للبهو الأمامي، كان الثراء يطل من كل ركن، تتوسط البهو الكبير لوحة بطول الحائط للوجيه مندوسا وهو ينحني ليقبل يد الكاردينال، أخذتني روعة المكان فتهت وسط التفاصيل، قطع شرودي صوت الوجيه القادم

من جهة اليمين حيث جلس على كرسي كبير، وحوله وقف اثنان من الحراس، وجلس كاتب على مقربة، يدون ما يمليه عليه الوجيه. تقدمت وأنا أتلعثم، وكلي وجل أن يرفض طلبي، ولكن الرجل على ما يبدو قد أدرك موقفي، فابتسم برفق وبادرني بالسؤال.

- أنا يا سيدي امرأة قشتالية، أعيش على الكفاف أنا وابني، أخرج للسوق أبيع بعض الفطائر، وابني يعمل بسوق الحرير، ليس لنا عداوة مع أحد، أخذوا ابني يا سيدي دون أن أعلم السبب، اقتادوه للمحكمة منذ يومين، وأنا سيدة ضعيفة، وقد توفي زوجي منذ زمن، فهل تتكرم بأن تنظر في مسألتي.

انهمرت دموعي، ورأيت التأثر قد ارتسم على وجه الرجل، أمر الكاتب أن يدون ما سمعه، ودعاني للعودة بعد أسبوع، وقبل أن أرحل دس بيدي بعض النقود وهو يبتسم، اتجهت للباب وأنا أدعو الله: ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾.

(٩٤)
خوان بيدرو

لم يكن صباحًا عاديًّا، كنت يومها قد سهرت مع أبي حتى الشروق، أتأمل تفاصيل الرجل الذي رحل منذ عشرين عامًا، قبل أن تنحفر ذكرياتي معه بعقلي، والآن بعد أن تجاوزت العشرين، الآن فقط بدأت أتعرف على والدي، ذلك المندفع، الثائر دومًا، العطوف على الإطلاق، لا أستغرب الآن رحيله المفاجئ وعودته المفاجئة، فمثله لا يقوى على المكث طويلًا بمكان واحد! حكى لي عن أيام صباه، عن مشاجراته ونزقه، ومشكلاته التي لم تنته، عن ماريا التي أحرقوها أمام عينيه، عن هروبه بعدها، وزواجه من أمي الذي ظل سرًّا، عن اللغز الذي حاولت أن أفهمه طيلة تلك السنوات، والآن فقط عرفت لِمَ تبتعد أمي عن المشكلات، وتتخفى من العيون.

فهمت إصراراها على الرحيل من البيازين، كنت بعقل الطفل لا أعي شيئًا سوى أمي التي تخفي دينها، وتقف لتصلي نحو القبلة، قبلة المسلمين، ثم أجدها تمسك بيدي، ونحن نتجه لكنيسة سان سلفادور أيام الآحاد، نقف في خشوع والراهب يرتل المزامير، وعند عودتنا، تصر أمي على أن تغسلني بماء البئر، تمسح رأسي ووجهي

وجبهتي، تلوذ بصمت طويل، وأنا الذي اختلط عليه الأمر فلا أجد بدًّا من السؤال، تبتسم ابتسامة حنونة، ولا تجيب إلا بإجابة حفظتها عن ظهر قلب:

- أنت خوان بيدرو يا صغيري، ولا أريد لأحد أن يعلم باسمك الآخر! هو سر بيني وبينك فقط، حتى تلك الصلاة التي تراني أقوم بها هي أيضًا سر بيننا، هل يمكن لصغيري أن يحتفظ بالأسرار من أجل أمه؟!

تطبع قبلتها الحانية على وجهي، تضمني فأشم رائحة الفل تلفني، أشعر بالزهو وأنا أمتلك بعض الأسرار التي لا يمكن لأحد غيري أن يعرفها، تعود لتؤكد علي، وهي تبتسم لي وتغمز بعينيها الجميلتين، أقف على أطراف أصابعي صائحًا:

- هيا يا أمي؛ ألا ترين أني قد كبرت، فكيف لرجل شهم أن يفشي الأسرار؟

نعم كبرت يا أبي وأنت بعيد، غمرتني أمي العظيمة إيزابيلا بحنان لا تتخيله، ولكنني كنت أحتاج لأبي، حتى الشيخ الذي كان يعطف علي ويعاملني كولد له، مات قبل أن أتم الثامنة، حزنت أمي كثيرًا، وانطفأ بريق كنت أراه بعينيها! ولكنها لم تكف عن انتظارك. كبرت

يا أبي وجاء اليوم الذي أجلستني أمامها، روت كل شيء، كانت منكسة الوجه وهي تروي لي عن الحانة والرقص وخوسيه.

انهمرت دموعها، ولكنها ظلت تحكي للنهاية، خَشِيت أن أكرهها، ولكني أحببتها أكثر، أحببت تلك المرأة التي ظلت وفية رغم كل تلك الظروف التي مرت بها، رغم بعدك، رغم ضباع الإنكيسيثيان الذين يجوبون الطرقات يفتشون عن النوايا، رغم وحدتها وغربتها واحتياجها لك، رغم أنها لم تكن تعلم شيئًا من أمور دينها، سوى ما علمتها إياه والشيخ، تخفي كل ذلك وتخرج للطرقات قشتالية، تتظاهر بممارسة طقوس الكراهية المنتشرة بالأجواء.

كبرت يا أبي لأراك لأول مرة ونحن هنا وسط هذا الجحيم، تحت الأقبية المظلمة، وآلات التعذيب التي تنتظرنا إن لم ننجح في إقناع هؤلاء المهووسين بالحقيقة التي يريدون سماعها، أتأمل وجه أبي لأول مرة، أتأمل وجهه الذي كنت أحمل قسماته دون أن أدري، فهل سيحرمني القدر منه بعد قليل!

(٩٥)
هل سترفض الكأس؟!

أحكموا وثاقي بالعمود الرخامي بمنتصف القاعة الفسيحة، فوق المنصة يجلس ثلاثتهم كالعادة، بوجوه شمعية، وعيون صغيرة ماكرة، برؤوس محلوقة من المنتصف، وأنوف معقوفة، ودم بارد، أعادوا أسئلتهم السخيفة:

- هل تؤمن يا خوان بالرب خيسوس؟ هل تحضر القداس بانتظام؟ ولم رفضت كأس الخمر الذي قدمها لك غوميثسانشو الذي دعاك للعشاء تلك الليلة؟ كيف تفسر لنا تلك الكلمات المسجلة أمامنا هنا، أنك أبعدت الكأس عندما قدمها لك غوميث، وقلت له بالنص: الخمر محرم؛ فكيف تريدني أن أشربه؟! ألا تعلم أن هؤلاء الموريسكيين البرابرة لا يشربون الخمر؟ ألا تعلم أن عقيدتهم الفاسدة تحرمه؟ تحرم دم خيسوس الطاهر؟ أراك تتفق معهم خوان!

صمت القس، نظروا إلي ثلاثتهم بعيونهم الصغيرة الماكرة، تذكرت كلمات أبي، يجب أن أقنعهم، تذكرت أمي الوحيدة بالخارج، تذكرت كلماتها لي: أخف عقيدتك، وتظاهر كأنك منهم، استجمعت شجاعتي، تمتمت بكل الأدعية التي كان الشيخ يحفظني إياها، همست داخلي: يا رب، يا رب الكون، أنت تعلم أني مؤمن

بك وبسيدي محمد، وبالمسيح المنزل بالإنجيل، أنت تعلم يا إلهي أني مكره فلا تؤاخذني.

- سيدي، كيف لي أن أفعل ذلك وأرد يده، وهو الذي دعاني لمنزله وتناول العشاء معه؟ هل يفعل رجل كريم مثل تلك الأفعال؟ وكيف يا سيدي وقد استحال الخمر والخبز لدم الرب خيسوس الطاهر وجسده؟ أنا خوان بيدرو يا سيدي، وأمي إيزابيلا بيدرو قشتالية حرة، أنشأتني نشأة دينية خالصة، وألحقتني باللاإسكويلا خيسْويتا(*) حينما كنا نسكن البيازين، لم أنقطع عن القداس يومًا، ولم أصادق سوى القشتاليين الخالصين.

تركوني أتحدث، لم يقاطعوني، كانوا يتابعون خلجاتي، ارتعاش صوتي، تعرقي، نظراتي، تشاوروا، ساد الصمت إلا من أصوات تتناهى لسمعي من الغرف المجاورة، أنينًا وصراخًا، ورائحة لحم يحترق! نادي القس في المنتصف على الحارس، أتى حاملًا كأسًا مملوءًا بالنبيذ، وقف أمامي وحل وثاقي، قرب الكأس مني، وبصوت ساخر علا صوت القس:

- هيا يا خوان، هل سترفض الكأس هذه المرة أيضًا.

(*) La escuela jesuita المدرسة الخيسوسية/ اليسوعية.

(٩٦)
المبجل

اهتزت الستارة الحمراء الحريرية التي تغطي المدخل الجانبي للغرفة الداخلية في مهجع المبجل، هبت رائحة آسرة من خلاصة البنفسج الأخاذ التي يحبها، دخلت كارمن تحمل طبق الفاكهة، وعليها غلالة رقيقة تتهدل على تفاصيل جسدها الفاتن، وقد سترت بعض غلالتها بعباءة من المخمل النبيذي اللون، وهي تسير في دلال، اقتربت من المبجل الممدد على الكرسي الجانبي، يطالع بعض الاوراق وهي تهمس:

- أبي المبجل، كم اشتاقت كارمن لك!
- مي إنكانْثادورا إيخا كارمِن، ابنتي كارمن الحلوة، لماذا تأخرت على؟ ألا تعلمين أن الطين يشتاق للطين.

- وهل أستغنى أيها المبجل عن لمستكم السماوية؟ إني كلي في خدمة الرب، روحي وجسدي وكياني كله في خدمة خيسوس، كم أشتاق لروحه الدافئة السارية في قداستكم، وأنت أيها المبجل، لقد أتعبكم قداستكم هؤلاء الموريسكيون الهمج، وشقوا على روحكم

السماوية الطاهرة طوال الأيام الماضية، لقد حان الوقت لكي تستريح قليلًا.

- صدقت يا ابنتي جميلة، لقد أتعبوني، وأتعبني عنادهم.

أشار بيده بحركة تعرفها جيدًا، وهو يهمس:

- تعرفين أننا خلقنا من الطين وإلى الطين نعود، ومن حق الطين أن يستريح قليلًا.

- هذه بديهي يا سيدي المبجل، إذن فدعني أرح قداستكم قليلًا، لكن قبل ذلك: هل لكم في بعض النبيذ المعتق سيدي.

- نعم كارمن، ولتقتربي قليلًا .. اشتقت لسماع غنائك الملائكي.

تقدمت بدلال لتنحني أمامه وهي تصب النبيذ بالكأس، تطلع إليها يتأمل تفاصيل جسدها، ليهتف في نشوة:

- قدوس الرب الحي، الذي خلق كل هذا الجمال.

دفع الكأس إلى فمه وصبه دفعة واحدة، ثم قام مسرعًا إلى الشموع المتوهجة بطرف الغرفة وأطفأها، وعلت ضحكات كارمن الأنثوية الماكرة.

(٩٧)
أصــل الـــحـــكـــايـــة

أعادوني للقبو المظلم، كان أبي ينتظر قلقًا، عدت والانكسار يرتسم على وجهي، وقف الحارس عند الباب وهو يقول:

- من الغد سيكون كل منكما بزنزانة منفصلة، هذه تعليمات الآمر.

ارتميت بأحضان أبي ما أن أغلق الحارس المزلاج، بكيت كالطفل، أحاطني بذراعيه القويين، أحسست لأول مرة بالأمان رغم ضيقي الشديد، رغم انكساري وشعوري بالعجز والخيبة والقهر، رغم المكان الذي نحن فيه، والغد الذي لا نعلم كيف سيأتي، رغم الأهوال التي لم تبدأ بعد، أناس لقوا حتفهم هنا، ألوف احتجزوهم هنا بلا سبب ولا جريرة سوى أنهم استمسكوا بدينهم، الآلاف الذين اختفوا بتلك الأقبية العفنة المظلمة! رغم كل ذلك أحسست بالأمان بين ذراعيه، وكأني طفل من المهد يحمله أبوه ويهدهده.

ربت أبي على كتفي، مسح فوق شعري، وقرأ ما تيسر من الآيات بصوت هامس، دخل الحارس مجددًا بفتات الطعام الرديء، ابتسم

أبي رغم غيمة الحزن التي سكنت عينيه منذ أن قال الحارس إنه سيحتجز كل منا وحيدًا، وهو يقول مازحًا، يحاول أن يسري عني:

- هيا يا ولدي فالوليمة تنتظر، سيبرد الطعام! ابتسمت رغم حزني، جلست بجواره أمضغ الطعام القليل، قال أبي:

- هيا لأكمل لك باقي الحكاية، ألا تريد أن تعرف المزيد من حكايات العشرين سنة؟ ابتسمت متلهفًا كطفل ينتظر حكايات ما قبل النوم من أبيه، اعتدلت، وبدأ أبي يسرد أيامه الماضية.

(٩٨)
كيف وقد علمناهم؟!

تعلم يا بني؟ كانت الحرب التي امتدت أربعة أعوام لعبة سياسية بالمقام الأول، كان النزاع بين القادة واضحًا، وبدا كل منهم يحاول السيطرة على مقاليد الأمور؛ أحاط الملك فيليب نفسه بثلة من المتشددين، الذين كانوا لا يرون فينا إلا حفنة من البرابرة الهمج، والذين يتوجب عليهم أن يجتثوا نسلهم، أو أن يجبروهم على التنصر! حتى إن أحدهم خطب أمام الملك قائلًا:

- إن غالبيتهم أناس لا يعرفون القراءة ولا الكتابة، ولا يعرفون أي شيء عن الرب أو السماء والأرض، يجوبون الريف كالبهائم، كما يفعل العرب في شمال أفريقيا، ذلك الشعب الهمجي البدوي الذي لا قانون له، ولا سلام عنده، ولا إقامة دائمة، يعيش اليوم هنا، وغدًا في مكان آخر، وهم أناس غادرون ولصوص، وميالون للواط مثل كل المغاربة بشمال أفريقيا. تلك كانت نظرتهم إلينا يا ولدي، نحن من صنعنا حضارة الأندلس التي دامت ثمانية قرون، تشهد العمارة القائمة للآن على حضارتنا، تشهد ألوف الكتب التي أضرموا فيها النار

بساحة الرملة، وتصاعدت أدخنتها تغطي سماء غرناطة الباكية، نحن من يتهموننا بالهمجة والبربرية! وهم الذين أرادوا سحقنا لمجرد اختلافنا! أي عقل يستطيع أن يستوعب كل ذلك؟! تعلم يا ولدي، لقد مرت الأيام بي وأنا أنظر للأحداث بقلب المحارب، وعقل المطارد، وإحساس المتأمل! لم تكن الحرب إلا ذلك النزاع بين معسكر متسامح بعض الشيء، وهؤلاء المتشددين لحد الهوس، والذين -للأسف الشديد- كان الملك يستمع إليهم بدعوى الغيرة على الدين وخدمة المسيحية الكاثوليكية، وربما منحنيًا أمام سطوة بابا الكنيسة وسلطانه الغالب .. وأثره في نفوس الرعية!

كانت الأحداث سريعة وهمجية وقاسية، كنت وقتها ما أزال بغرناطة حين نمي لعلمي فشل الثوار في السيطرة على المدينة العاصمة، وانسحابهم نحو البشرات، لحق بهم موندخار بفيلق يفوقهم عددًا، لتنشب معارك ضارية فوق الجبال، وعند السفوح المليئة بمياه الثلوج الذائبة والأمطار! كان الثوار لا يملكون الكثير أمام غلبة جيش موندخار، فتمكن الأخير من إحراز تقدم واضح، وفرض سيطرته على بعض القرى. فر

الثوار للجبال والكهوف، حتى أخذ بعض كبار قادتهم في التفكير بالاستسلام.

ويبدو أن موندخار كان قد استجاب للسلام، وعرض عفوًا عن الذين لم يشتركوا في القتال، لكن معسكر المتشددين نفخوا في النار أكثر، ووصلت الرسائل للملك متهمة موندخار بالفشل، واللين في التعامل مع الثوار، ويبدو أيضًا أنهم نجحوا في إطالة أمد حرب دموية انتقامية، ربما ليزيدوا مكاسبهم، وربما بدافع انتقام لا أعلم ما الذي جعله يتنامى لهذا الحد.

بعدها استطعت يا بني التسلل خارج غرناطة، واتجهت عبر الطرق الوعرة نحو البشرات، حيث وصلت لقرية الوجيه الذي أرسلني الشيخ له. كانت إحدى القرى التي استقلت تقريبًا، سمعت هناك لأول مرة صوت الأذان، وصليت خلف الجماعة، قابلت ابن أمية وضمني لجيشه، التقيت مقاتلين أمازيغ وأتراكًا، كانوا يرتدون البياض دومًا، ويضعون أكاليل الزهور حول أعناقهم؛ رغبة منهم في الاستشهاد.

اعتمدت حربنا على الكر والفر، مع الوقت بدأنا ننتظم أكثر، أصبح لدينا قادة وسرايا ومناطق عسكرية، اعتمدنا الهجوم على الفيالق المتحركة دومًا بين الجبال والأودية، كنا أكثر دراية بالشعاب والكهوف والتضاريس، وكانت غنائمنا تتمثل في

اختطاف الجنود، والاستيلاء على أسلحتهم، نضمها لعتادنا القليل! واشتهرت وقتها المقولة الشهيرة (نصراني واحد في مقابل بندقية واحدة)؛ حيث ظل القراصنة ينزلون بانتظام على الشواطئ لتبادل الأسلحة والمؤن والذخيرة مقابل الأسرى النصارى.

وظل هؤلاء القراصنة شوكة بظهر الملك، كما كنا نحن، وكما كانت الدولة العثمانية بأسطولها المسيطر على البحر شوكة أخرى، جعلت الملك يبذل كل وسعه للتخلص من تلك الثورة المقلقة داخليًّا، خاصة أننا كنا موضع اتهام دومًا بمساعدتنا للأسطول العثماني، ويبدو أن ذكرى عروج وخير الدين باربار وسّا ظلت تؤرقهم طويلًا، وخصوصًا أنهم ساعدوا أهلنا كثيرًا على الفرار نحو شمال أفريقيا، ولم تتوقف هجماتهم على السواحل طيلة سنوات عمرهم.

هل تعلم يا ولدي أن أعمامك قد تركوا غرناطة، وأنا طفل لم أتجاوز العاشرة، وانقطعت أخبارهم من يومها؟!

حاولت أن أسأل عنهم من قابلت من المجاهدين، ولكن لم يشأ ربك أن أعرف شيئًا عن أخبارهم، لعل الله أن يجمعنا بهم جميعًا!

(٩٩)
إيرناندو لوبيث

- إيرناندو لوبيث.

علا صوت الحارس بالخارج، انزلق المزلاج، ودخل الحارس يأمرني بالخروج، تعلقت عينا إسماعيل بي، تقدمت نحو الحارس، ورجوته أن يمهلني دقيقة لأودع رفيقي، فلربما لا أراه مرة أخرى، ابتسم الحارس بسخرية وهو يقول في تشف:

- بالتأكيد لن تراه.

تقدمت نحو إسماعيل أحتضنه، همست بأذنه:

- اثبت يا بني، لا تدعهم ينالون منك، سنلتقي لأكمل لك حكاية العشرين سنة.

خرجت وقلبي ما يزال بالداخل، أدعو سرًّا بأن يحفظ الله ولدي، وأن يجمعني به ثانية.

(١٠٠)
لا غالب إلا أنت

انتهى قداس الأحد منذ قليل، القساوسية سيصلون في أية لحظة! هيا استعدوا، تناهي لسمعي الأصوات بالخارج، وصوت الأقدام تروح وتجيء، بعد أن عزلني الحارس بزنزانة أخرى، وهو يبتسم بشماته واضحة ويقول:

- هنا ستظل وحيدًا إلى أن تتعفن جثتك، أو تموت هناك بغرف التعذيب، أرى أن صداقة قد جمعتك بالشاب هناك، تلك الأيام قد خلت إيرناندو، والآن جاء وقت الجد، سيتم استجوابك الآن ريثما يصل القساوسة، وإن لم تستطع إقناعهم، فوقتها ستبدأ حفلتك، التي لن تنتهي إلا وأنت فوق الخازوق، أو مسحوق العظام داخل آلاتنا الرهيبة.

ضحك ضحكة عالية شامتة، ثم أشاح بوجهه وأغلق الباب وأحكم القفل، أظلمت الغرفة حتى لم أكد أتبين أصابع كفي، المكان ضيق لا يتسع لي إلا واقفًا، تذكرت ظلمة القبر، ولهج لساني بالدعاء والاستغفار.

أغمضت عيني لعلى أهرب من ذلك الواقع الذي جاء مباغتًا، جاء وجه أبي وهو يلومني على سوء حفظي: ألا ترى ماريا وهي تحفظ أكثر منك؟ تذكرت وجهه الصارم والحنون، رددت كل ما أحفظ، دعوت الله كثيرًا، انفطر قلبي على إسماعيل:

- ترى هل سيأخذونه هو الآخر لجب كهذا الذي ألقوني به؟ يا الله، أرنا قدرتك، لا غالب إلا أنت!

(١٠١)
العذاب

عدت لنفس الوجوه الكريهة، شدوا وثاقي ككل مرة للعمود الرخامي، جلس ثلاثتهم يحدقون بي بوجوههم الشمعية التي لا تشي بشيء، تلا كبيرهم الاتهامات مرة أخرى، ثم رفع عينيه إلي:

- ألا تعلم إيرناندو أن الاعتداء على نصراني قديم من التهم الموجبة للعقوبة؟ قمنا بالتحقق من كلماتك المرة السابقة، هل كنت تكذب على المحكمة يا إيرناندو؟ لقد قلت إنك اعتقدت بأن الرجل الذي ضربته هو دييغو المرابي، يا كاذب! هل تظن أنه سيخفى علينا أن دييغو قد مات منذ عشر سنوات؟ أتراوغنا أيها الموريسكي القذر؟ أين كنت كل هذه المدة؟ ثم إننا تحققنا جيدًا من سجلات الضرائب، لقد انقطعت أخبارك إيرناندو فجأة منذ عشرين سنة، والآن عدت للظهور فجأة، فهل تستطيع أن تفسر غيابك طيلة تلك السنوات؟ ومن إيزابيلا التي كنت تنادي بها المرأة التي كنت تلاحقها، والتي قالت إنك غازلتها؟

يبدو أنك بحاجة لأكثر من دليل اليوم، هل ستجيب! أم ننعش ذاكرتك قليلًا؟ أنت أيها الموريسكي المهرطق متهم بالاعتداء على

كاثوليكي حر، وتضليل المحكمة الموقرة، والكذب علينا نحن رهبان كنيسة سان سلفادور وأعضاء المجلس البابوي، والموكلين بالتحقيق في جرائمكم التي لا تنتهي، كيف تجرؤ على الكذب أمامنا؟!

لم أجب! ظلت الأسئلة تدور بعقلي دون جواب، ما الذي يمكن أن يقنعهم؟ كيف أفسر غيابي؟ كيف أفسر ضربي للرجل، ومناداتي للمرأة بإيزابيلا! صمتّ، ظلوا يحدقون بوجهي، ارتسمت الشماتة على وجوههم، تشاوروا قليلًا، أومأ كبيرهم للحارس، ففك وثاقي من العمود، وأعاد القيود لمعصمي ورجلي، دفعني خارج القاعة الفسيحة نحو سلم يفضي لقبو تحت الأرض، الرائحة لا تحتمل، والأصوات تملأ المكان، الغرف المتلاصقة لمظلمة، تتعالى الصيحات من داخلها، صيحات هستيرية، وأخرى خافتة، أنين وبكاء، أصوات نساء ورجال.

دفعني الحارس لإحدى تلك الغرف، غرفة تخلو من كل شيء عدا كرسي بالمنتصف، أجلسني عليه، قيدني جيدًا بالكرسي الخشبي الضيق، خرج ثم عاد ومعه آخر أكثر ضخامة، يحمل آلة حديدية بيده، اقترب بطوله الفارع فحجب بعضًا من الضوء الشحيح لشمعة تتراقص أعلى الجدار، ثبت الحارس يدي اليمنى بكلتا يديه، ثم بدأ

الجحيم، دوت صرختي فملأت المكان، أخذ ينزع أظفاري بكل همة وكأنه يقوم بعمل روتيني، انقطع نفسي، غلا الدم بشرايين دماغي، أحسست أن قلبي سيتوقف مع كل مرة ينزع فيها أحد أظفاري، ارتسمت الشماتة على وجه الحارس، بينما الرجل الضخم ما يزال يعمل بتلك الهمة دون تأثر، تعالت ضحكات الحارس ودمي يسيل، والعرق يملؤني، سكت عن الضحك ثم أشار للرجل الضخم:

- يكفي اليوم يا لورنثو، ودعني أعيده لزنزانته، ولنكمل غدًا.

خرج الرجل الضخم وأنا أكاد أغيب عن العالم، جرني الحارس نحو القبر الضيق، أغلق الباب، وعمت الظلمة، تباعدت الأصوات، وجاء صوت ماريا وهي تدندن على عودها الصغير:

يا سالب القلب مني عندما رمقا

لم يبق حبك لي صبرًا ولا رمقا

(١٠٢)
بيت بربض البيازين

مر الأسبوع بطيئًا جدًّا، وكأنه سبعة أعوام لا أيام، أفعل ما كنت أفعله منذ خمس عشرة سنة، أذهب للسوق بفطائري وأعود بقروشي القليلة، أغلق الباب على نفسي والهم يأكلني، وصورة إسماعيل تتجسد أمامي بكل ركن بالبيت، أراه ما يزال بالمهد يتعلق، وهو يحبو، ممسكًا بضفيرتي الطويلة يداعبني، أراه شابًا يافعًا يشبه أباه، يحمل عني بعضًا من هموم الحياة، نتقاسم اللقمة والفرحة والبسمة والدموع، إسماعيل الذي أصبح كل دنياي بعد غياب سليم، آاااااه يا ولدي، متى تعود؟!

طرقت باب الوجيه، أقف بطابور المنتظرين على بابه، أدعو واستغفر وأتلو الآيات سرًّا، أقف بين يدي الرجل، فيبتسم بوجهي:

- ليست بالتهمة الكبيرة، ولكن كما تعرفين عداء المحكمة مع الموريسكيين القديم، تريد أن تطمئن بأن ابنك ليس له صلة بهم، فإن كانت له بهم صلة، فلن أستطيع أن أفعل شيئًا؛ تعرفين الكنيسة والمحترمين!

- وكيف يكون يا سيدي، وأنا قشتالية، وأنشأت ابني على حب الدين والكنيسة، وإن كان يختلط أحيانًا بهؤلاء الزنادقة، فما الذي يمكن أن نفعل؟ البيوت متلاصقة، والأسواق تعج بهم، كيف ننعزل عنهم؟ باركك الرب أيها السيد المبجل، فقط أرح قلب أم ينفطر على ابنها، هل ستطلق المحكمة سراحه؟ وأي تهمة تلك التي يريدون أن يتأكدوا من براءته منها؟
- تهمة بسيطة كما قلت لك، يبدو أن أحدهم قد وشى بابنك، دعاه للعشاء، واتهمه بأنه قد رفض مس كأس النبيذ، ورفض تناوله، وأنه متأثر بشريعة محمد، ولم يذق إلا القليل من الطعام، وأن الرجل خاف من أن يكون قد دعا لبيته واحدًا من هؤلاء المهرطقين، فذهب للمحكمة بشكوكه ليتأكدوا منها.

زفرت:

- وأنا أحمد الله أن الأمر لا يتعدى تلك التهمة المخبولة، ولكن المحكمة تفتش وراء كل شيء، داخل الصدور وبين جنبات النفس، يا رب كن عونًا لابني.
- سيدي ما العمل، هل سيفرجون عنه قريبًا؟
- المسألة تحتاج بعض الوقت.

سكت هنيهة، وأكمل:

- وبعض النقود أيضًا.

أسُقط في يدي، النقود؟! وتمتمت:

- من أين لي بالأموال يا ربي لكي أدفعها لهؤلاء المرتشين، ليخرجوا ابني.

تفحصني الرجل بعينين مشفقتين، قرأ ما يجول بعقلي والهم الذي ارتسم مجددًا فوق وجهي، فأردف قائلًا: أعلم أنك لا تستطيعين تدبير الأموال، ولكن تعلمين أن الأمر دومًا يحل بهذه الطريقة، يصادرون الأموال والدور وغيرها؛ في سبيل الإفراج عن المحكومين!

- سيدي أنا امرأة فقيرة، لا أملك من حطام الدنيا إلا بيتًا بربض البيازين كنت قد اشتريته من موريسكي قديم، والآن بعد أن تغير الحي وأصبح مصدرًا للمشكلات أغلقت الدار، ورحلت لأطراف السوق، هذا ما أملك، فليأخذوا الدار ويعيدوا ابني.

صمت الرجل، نظر لي طويلًا، زفر وأشار برأسه وأردف:

- سأحاول مجددًا اليوم، سأجتمع ببعض القساوسة على العشاء، وسأثير موضوع ابنك مرة أخرى ولعل الأمر يحل قريبًا.

خرجت والهم يفترش فؤادي، حتى بيت سليم الذي جمعني به، والذي ما تزال رائحته عالقة بالأرجاء هناك، حتى ذكرياتي معه

سيصادرونها، بعد أن صادروا حلمي، وأخذوا ولدي، وأجبروني على الهروب خشية أن يفتشوا داخلي.

وجدتني أتجه لهناك، لاحت الزيتونة من بعيد، ضربها الجفاف كما ضرب روحي، تغيرت البيوت والوجوه، مررت ببيت الشيخ الذي تحول لدكان لبيع الخمور، مررت ببيت ماريا فقرأت الفاتحة بسري، وأنا أرى ياسمينتها ما تزال تطل من فوق السور، لاح لي الباب متربًا.

أدرت المفتاح المعلق بعنقي دومًا، لفتني رائحة سليم، وصوت إسماعيل وهو يحبو، جف البئر وتناثرت أوراق الزيتونة الجافة، وقفت أمام غرفتي أنا وإسماعيل، فرأيتني هناك وأنا أقترب منه، وأهمس بأذنه بدلال فيضحك، أراه هناك وهو يصلي بثوبه الناصع شديد البياض، يقف بخشوع مرددًا الآيات، رأيت الشيخ يجالسنا ويبتسم لي، شاهدت الجارات اللاتي ذهبن جميعًا بلا عودة، رأيتني وأنا أدور بينهن بشراب اللوز، وعيون النسوة الحانية تتابع تلك القشتالية التي فرت والتجأت إليهم.

درت بين الجنبات أتشمم رائحة زوجي وابني، ودعت البيت، وأقرأت سليمًا السلام، خرجت للطريق لا أعلم إلى أين تسوقني قدماي.

(١٠٣)
لا غالب إلا الله

الجب ضيق، تكاد أنفاسي تخرج بلا عودة، أشعر بالجرذان ترتع بين قدمي، آلام يدي لا تحتمل، أحاول أن أفكر بعيدًا، أذهب حيث لا أشعر هناك بألم، أتذكر وجه ماريا، وجه إيزابيلا، إسماعيل وهو طفل متعلق بيدي، الشيخ، وابن أمية ورفاق الكهوف والجبال والهروب، رغم كل المصاعب التي مررنا بها، كانت هناك لحظات من الفرح والبهجة، نطرح فيها كل الأوجاع جانبًا، لحظات انتصاراتنا القليلة المفعمة بكل الزهو والعناق والشكر، لحظات السلام القليلة التي عشناها، لحظات الاحتفالات التي كان ينظمها ابن أمية لنا، بعضًا من المرح القليل الذي يشحذ هممنا من جديد.

أذكر تلك الليلة جيدًا، كنا قد أحكما سيطرتنا على بعض المدن القليلة، عم سلام داخلي لفترة مؤقتة لم تتجاوز العام، ما سمح لنا ببعض الاستقرار.

تلك الليلة أعادتني لحضن غرناطة العاصمة البهية، كنا ببلدة برشانة الصغيرة، كان الطقس ربيعيًّا لطيفًا، والقمر قد اكتمل لتوه فأضاء صفحة الأرض السهلية الفسيحة المغطاة بالعشب الأخضر، اكتست

البلدة كلها بالأقمشة الحريرية والأعلام المنقوشة بلا غالب إلا الله، برقْمها الأندلسي البهي، ونقشها الأخاذ.

اجتمع ابن أمية وسكان البلدة بالميدان الفسيح، يشاهدون الجنود العثمانيين والموريسكيين يتبارون في الفروسية والمصارعة. رصد ابن أمية جوائز للفائزين، وأخرى لأفضل من يرقص الزمرة، ابتسم وأنا أتذكر أني حصلت يومها على إحدى تلك الجوائز وكانت سيفًا لأحد القادة القشتاليين كنا قد غنمناه من إحدى معاركنا، كان السيف مطعمًا بالأحجار الكريمة على الطراز الأندلسي، لم أستطع يومها أن أصف فرحتي بتلك الهدية، وبعدها للأسف خسرت السيف في إحدى المعارك، حينما دبر لنا العدو كمينًا، وهجموا على الكهف الذي كنا نختبئ به، ولولا مساعدة القرويين لما نجونا.

كانت النهاية قريبة، أقرب مما نتصور، استطاعوا بث الفتنة داخلنا، أشاعوا أن محمد بن أمية يهادن من أجل الاستسلام، في سبيل الإفراج عن والده وأخيه المحتجزين لديهم، زَوَّرَ دييغو الوزير المتعاون مع رجال القشتاليين رسالة ابن أمية لقائده ابن عبو، قتل ابن أمية على يد وزيره وآلت الأمور لابن عمه، ورغم الانتصار البسيط الذي حققناه معه، فإن الأمور باتت على حافة الهاوية، كان الانتقام رهيبًا، ورغبة الملك في إنهاء تلك البلبلة الداخلية سريعًا،

تناقصت أعدادنا بصورة كبيرة، قتل الكثيرون، وهرب آخرون، عاد المقاتلون الأمازيغ والعثمانيون إلى ديارهم، انتهى كل شيء، ساد الهرج، وعمت الهزيمة، وخلت القرى من ساكنيها، وأجبروا الجميع على الرحيل، أخذوا الأطفال من أسرهم، صادروا الدور والمحاصيل وأشجار الزيتون.

كان الوضع كارثيًّا، اختفيت بين الكهوف والجبال، مطاردًا، أقوم ببعض الغارات المتفرقة بين الحين والآخر، أنا وبعض الرجال الذين بقوا معي، أساعد من أراد الهرب نحو السواحل، أصبحت خبيرًا بالدروب والشعاب وطرق الفرار، ولكنني لم أستطع العودة يومًا، كانت المخاوف تحاصرني، والرغبة في مساعدة هؤلاء المشردين تفرض علي أن أبقى.

عشرون سنة من الفرار، والهروب، والبعد، أما آن الأوان للراحة!

(١٠٤)
ســرقــة الــدار والــتــاريــخ

وقفت مشدوهة وهم يتجولون بالبيت يحملون دفاترهم المنتفخة، يسجلون كل شيء، تفاصيل البيت، عدد حجراته، والحوش الفسيح، البئر التي تتوسط الفناء، شجرة الزيتون الذابلة.

أقف والدموع تتحجر بعيني! ألمح أطياف من سكنوا الدار، وتربعوا هناك على الأريكة يتسامرون ليلًا، أتذكر بعض أحلامهم التي نسجوها تحت الشجرة، وعند البئر، وخلف الأبواب، آمالهم التي ذهبت وبعثرتها العنصرية المقيتة.

درت بالبيت أودع آخر ذكرياتي مع سليم وإسماعيل، نظر لي الجنود بغلظة وأنا أسلمهم صك البيت، والمفتاح المعلق برقبتي! وقف كبيرهم يتلو علي ما كتبه مرافقه:

- إنه في يوم الأحد الموافق الثامن عشر من خونيو من سنة ١٥٨٨ من ميلاد الرب خيسوس، وبناء على تعليمات المبجل بيدرو دي ديثا، رئيس الديوان الملكي السابق، الذي قضى بمصادرة ممتلكات كل من ترى المحكمة الموقرة إدانته بشكل من الأشكال، أو تبرئته بعد اعترافه بذنبه، والرجوع لحظيرة السيد

المسيح، أو نفيه للتهم، واقتناع المحكمة بصدق نواياه، تم مصادرة البيت المملوك لإيزابيلا بيدرو، لصالح تاج ملك قشتالة وأراجون.

أنهى الرجل ما كان يتلو، دفع إلي بالريشة وجعلني أوقع أسفل الورقة، ألقيت النظرة الأخيرة على الدار.

أعتذر لك يا سليم –أيها الغائب الحاضر– فلم أستطع الحفاظ على إرثك وإرث إسماعيل، وماذا عساي أن أفعل، أريد أن يعود ولدي، هل ستمانع لو كنت مكاني؟!

خرجت للشارع لا أعرف ما الذي يجب علي أن أفعل، هل أتوجه لبيت مندوسا، أم نحو المحكمة أقف عند الباب أنتظر ولدي.

(١٠٥)
أوراق أمــي

كنت قد نسيت أمر الاوراق التي تركتها لي أمي، مرت الأسابيع مع ليلى كالحلم، عوضتني ملاكي الجميل عن الأيام التعيسة المتعسة، عن كل سنوات الألم الذي عانيته، دللتني كطفل أهداها القدر إياه، وكأني قد وجدت بحياتها للتو، تناست كل شيء، ولم تعد تجيد إلا فن إسعادي، عدت لنفسي، لسالم الذي فقدته هناك، خرجت للناس والعالم، عدت أبحث عن رفقاء الدراسة والجامعة، لعلي أستطيع العودة لحياتي القديمة.

وجوبهت بصدمة أعادتني قليلًا للانزواء والكآبة، فقد تنكر بعضهم، وهرب آخرون من مقابلتي، وضاقت علي الدنيا، ساندتني ليلى ملاكي الحارس، أحاطتني بقلبها الذي أغناني عن العالم، ولكن ظلت المشكلة قائمة: كيف لي بإيجاد وظيفة؟! كان راتب ليلى الزهيد كمعلمة بالمدرسة القريبة يكفينا بالكاد، وتلك كانت أزمة أخرى، أن تقوم هي بذلك الدور بديلًا عني.

كنت أجوب الشوارع منذ الصباح، أطرق الأبواب، لم أترك شركة ولا إعلانًا بجريدة إلا وسارعت بالذهاب، ولكن تبقى العقبة والغصة التي تقف بحلقي تكاد تخنقني، سنواتي الماضية، الوصمة التي ظلت فوق جبيني، والمرض العضال الذي يهرب الجميع مني

عند ذكره، أعود بخيباتي المتكررة كل يوم، فلا أجد إلا ابتسامتها الحانية، ويدها التي تربت على روحي، وحضنها الذي يستوعب كل ألمي، مرت الأيام، شهران وأنا أدور في دائرة مفرغة من اليأس وقلة الحيلة والعجز، هل أستسلم؟!

كنت كلما ضاقت الحلقة حول عنقي، أهرب لسليم وإيزابيلا وإسماعيل وقصتي، أفرغ هناك كل آلامي ووجعي، وأملي، أجدهم يشبهونني، وكأني أعاني معهم ويعانون ما أقاسي، ضياع العمر والأمل، الظلم الذي لا ينتهي من العالم، يتوارثه الأجيال، إرث من العنصرية المقيتة تجاه كل شيء مختلف، وكأن العالم وجد من أجل حفنة من البشر، يملكون أرواح الآخرين وأحلامهم وآمالهم، وكان العالم كله سيضيق إن تقاسمه الجميع.

يخرجون علينا ليتحدثوا عن حق الجميع في العيش بكرامة، ثم وراء كل الأبواب المغلقة ينتهكون كرامتنا؛ فقط لأننا لا نشبههم، أو لأننا نخالفهم الرأي.

وسط كل ذلك تناسيت أوراق أمي، حتى عثرت عليها بالصدفة وأنا أقلب أوراقي، لأنفتح على عالم عجيب، صادم، بحلاوته وبقبحه، بأفراحه وأتراحه، ولم أكن أتخيل ما كتب فيها، وكيف لم أعرف بذلك الأمر من قبل؟!

(١٠٦)
لقد قابلت أبي

مر يومان دون أي خبر، طرقت باب مندوسا فطلب مني الانتظار، ذهبت لبوابة المحكمة فمنعني الحراس عند الباب، أزاحوني بغلظة ورفضوا سماعي، عدت للدار أحمل خيبتي وهمي، وعند الباب وجدته، يستند للجدار، ذاهلًا، شاخصًا ببصره نحو السماء، هتفت بلهفة:

- خوان، ولدي الحبيب.

انتبه من شروده، فقام مسرعًا نحوي، ضممته وقبلته، أخذ يقبل رأسي ويدي، أدخلته الدار، بينما يستند علي كأنه شيخ لا يقوى على السير، أجلسته على الأريكة وسقيته بعض الماء.

- ما هذا يا ولدي! ما الذي فعلوه بك؟ ما هذا الهزال الذي أصابك!

أدار وجهه، دون أن يجب؛ بل أغمض عينيه وراح بسبات عميق، جلست عند رأسه أتلو الآيات ودموعي تنسكب، لا أعلم، أفرحة هي أم شفقة على صغيري الذي عاد بوجه غير الذي ذهب به؟!

ظل يهذي، وينتفض:

- أبي، البشرات، سأجيب عن كل شيء، اتركوني أعود لأمي.

هززته برفق، ضممته وجعلت أقرأ الآيات، فتح عينيه ببطء، ونظر لي وهو يقول بصوت مرتعش:

- أمي، لقد قابلت أبي بالسجن!

(١٠٧)
الذاهلة

لم أجب، ظللت أنظر إليه لعله يفيق من هذيانه، عاد ليكرر الكلمات: أمي، قابلت أبي، اعتدل، أسند رأسه للجدار، ثم نظر لعيني مباشرة، أراد أن يقنعني بكلماته:

- أمي أنا لا أهذي، نعم قابلت أبي. أخذوني مقيدًا بعربة تجرها البغال خارج المدينة، حيث أسوار السجن التي كانت فوسيليثادوكومو إل كوراثون دي فرناند(*) .

عبرنا البوابات الضخمة، وهبطنا درجات نحو قبو مظلم، سرنا بممر طويل، أدخلوني إحدى الغرف على جانبي الممر، كنت وحيدًا وقتها، كانت الغرفة رطبة تملؤها الجرذان، ظللت أصارع الأفكار التي تدور بعقلي، وأحاول أن أعرف لمَ أقتادوني هكذا!

غفوت قليلًا، حل الليل فزادت عتمة المكان إلا من بعض الأضواء المتسربة من الرواق الخارجي، فتحوا الباب فجأة، وألقوا بآخر نحو الغرفة! تكوم الرجل عند الزاوية، لم أتبين ملامحه وسط العتمة، ولم أكن وقتها منتبهًا إلا لأفكاري التي تدور بعقلي بلا توقف، اقتادوني للتحقيق، وعدت لأجد الرجل يسألني عن تهمتي، تبادلنا

(*) Fosilizadocomo el corazón de Fernand متحجرة مثل قلب فرناند.

الحديث، سألني عن أبي، ولا أعلم ما الذي دفعني لقول الحقيقة أمامه، تلك التي جاهدت دومًا على إخفائها، الحقيقة التي كنت يا أمي تخافين علي منها، ضمني، اعتذر وقبل رأسي ويدي، وجدت نفسي أمام أبي، أمام الحقيقة التي كنت أخفيها، رأيته ولمسته وتحدثت معه، وضمني لصدره وبين ذراعيه، شممت رائحته، وسمعت نبض قلبه، وعرفت لون عينيه، عرفت أبي أخيرًا يا أمي.

المشكلة الآن أنهم أخذوه، سمعت من الحراس أن تهمته كبيرة، وأنهم يعذبونه من أجل أن يعترف، أمي، لا بد أن نجد طريقة لإنقاذه، أية طريقة، نعرض عليهم بيتنا القديم، معظمهم مرتشون، ولا بد أن نفعل، ظل إسماعيل يتكلم، وأنا الذاهلة، وكأني بعالم آخر، لا أعرف هل أبكي أم أضحك، كيف أقول له إن البيت كان ثمن حريتك الغالية يا ولدي؟ هل أفرح أم أصرخ غضبًا؟! هل عاد بعد عشرين سنة ليقبع هناك بأقبيتهم؟ هل سأراه مجددًا لكي أرتمي بين ذراعيه أبكي فراقه الذي هدني، أم سأصرخ بوجهه: لم تركتنا محرومين منك عشرين سنة كاملة؟!

(١٠٨)
أنويسترُس إرمانُس

دلف أكبرهم سنًّا للغرفة الفسيحة الفخمة، وقف الاثنان احترامًا، انحنيا يقبلان يده، أشار لهما بالجلوس، دخل الحارس يحمل أكواب الشراب، التفت القس الكبير نحو الاثنين الآخرين قائلًا:

- أرى أن الأمر أصبح الآن أكثر وضوحًا، فإن هؤلاء الموريسكيين الهراطقة ما يزالون بشكل أو بآخر يؤثرون في الحياة العامة! أرى أثرهم المقيت كلما استجوبنا مذنبًا؛ أقر بالتهمة أم لم يقر، إنهم أناس ماكرون للغاية، بعضهم ما يزال يتبع دين محمد، ويتحدث العربية سرًّا؛ بل ويقومون بأداء شعائرهم خلسة، رغم أن الحمامات قد منعت.

جاءنا كثير من التقارير التي تفيد أنهم ما يزالون ينزلون بالنهر بين الحين والآخر، أو يقومون بغسل أعضائهم المخزية أوقاتًا معينة، كما أن التقارير ما تزال تردنا عن هؤلاء النسوة اللاتي ما يزلن يستخدمن الملاحف لتغطية وجوههن، ربما يستخدمن الملاحف ستارًا لأعمال شائنة، ورفض الكثير منهم دعوات الطعام في نهار شهرهم الذي يصومونه، بل تعدى الأمر لإشهار

ذلك علانية، والتفاخر بأنهم موريسكيون، وسيظلون كذلك.
أيها المحترمون، رغم كل الإجراءات التي اتخذناها لاجتثاث تلك الفئة المقيتة فإنهم نجحوا في الاحتفاظ بدينهم، وتقاليدهم العربية الهمجية، وتلك اللغة التي يتحدثونها بينهم، والتي أصبحت وسيلة مراسلاتهم، لقد استطعنا أن نضع أيدينا على الكثير من الكتب والرسائل المتبادلة بينهم، ورسائل أخرى جاءت عبر البحر، كتلك الأوراق التي عُثر عليها أثناء هدم إحدى الدور التي كان يملكها وضيعٌ منهم، يبدو أنها كانت مخبأة بالجدار.

قام القس الأكبر وفتح خزانة بالحائط المقابل، أخرج مجموعة من الأوراق المطوية، وضعها فوق الطاولة وأشار للمبجلين، قائلًا:

- هذه رسالة من مفتي وهران، يدعوهم للتمسك بدينهم وإخفاء مظاهره.

فتح الأوراق أمامهم وشرع يقرأ منها:

أَنْوِيسترُس إرمانُس، لِس كِي إستان إنكوخِبدُس سُبْرِ سو الدين، كُمُ كِيَن إستا إنكوخيدو سُبْرِ لَسَ بَراسَس. مَنْتِينِد الصلاة أونكِ سيا بُر مِيدو دي سِنِيَس. باركُمبْلِير كُن الطهارة أُس بَنِيَريس إن إلمار أو الريو..هَثِيد التيمم، أونك يولو سِيا فُرُتاندُ لس مانُس إن الباريد..

سي أ الهور دي الصلاة سي سي أش أُبْليغاسِ أير أ أدُرار سي إدُلُس دي سي لس كِرِسْتيانُس، فُرماريس النية دي هثِير تكبير الإحرام.

سي أُس فُيرتَن أبِبير الخمر بِبيدْل، أبَرتاندُ تودا النية دي كُميتِر بِيثِيو..

إسي أُس ديثِن كي دينوسْتايس أ محمد، دينو ستادلُ دي بلابرَ إ أمادلُ مُن الكُراثون، أترِبوِيندُ لو مالُ أ الشيطان.

يقول لهم:

إخواننا القابضين على دينهم، كالقابضين على الجمر: الصلاة ولو بالإيماء، والغسل من الجنابة، ولو عومًا في البحور. وإن مُنعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار، وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسحًا بالأيدي للحيطان، وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام، أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية، وإن أجبروكم على شرب خمر، فاشربوه لا بنية استعماله، وإن قالوا اشتموا محمدًا فإنهم يقولون له مُمَدْ، فاشتموا مُمَدًا، ناوين أنه الشيطان.

أرى أيها المبجلان أن الأمر الآن يحتاج لأكثر من جواسيس وعمال للتفتيش، سأرفع تقاريري للمبجل ديثا قريبًا، أرى أنه يجب علينا طرد كل هؤلاء الذين لا تتضح نواياهم بشكل سليم، فبعد كل تلك السنوات التي تجاوزت التسعين؛ ومنذ أن أنشأ المبجل توركيمادا

محكمة تفتيش غرناطة، وأرسى قواعدها، أرى أننا ما نزال بعيدين كل البعد عن تحقيق مآربنا من تخليص مملكتنا من هذه الشرذمة المشكوك في عقيدتها!

والآن هيا لنكمل استجواب إيرناندو، أرى أن هذا الرجل يخفي سرًّا كبيرًا.

(١٠٩)
هيا إيرناندو

حملوني نحو القاعة الفسيحة حيث جلس ثلاثتهم عند المنصة الرخامية، لم يشدوا وثاقي ذلك اليوم للعمود بالمنتصف، وقفت متحاملًا، فيداي متورمتان من أثر ما حل بهما، وقدماي محترقتان ملتهبتان من الجمر الذي أرغموني على السير فوقه بالأمس صباحًا، عندما حاولوا انتزاع اعتراف مني بمكاني الذي اختفيت فيه طيلة السنوات الماضية، وعندما يئسوا أعادوني للقبو، ألقوني وسط الجرذان وقليل من فتات الطعام، واليوم دفعوني لها مجددًا، بدأ كبيرهم يتلو الاتهامات من جديد، أضاف لها وجودي خارج غرناطة دون إذن، وعدم دفعي للضرائب سنين عديدة، وعدم الإفصاح عن مكان وجودي، وعجزي عن إثبات عدم تعاوني مع القلة المارقة المحاربة للتاج، بدأ الرجل من جديد:

- هيا إيرناندو، ألا تريد أن تدلنا على مكان وجودك الفترة الماضية؟ لقد ذكرت لنا أنك كنت تطارد رجلًا سرق مالك، وتبين لنا من التحقيقات أن الرجل مات منذ عشر سنوات، هل تستطيع أن تخبرنا أين كنت؟ وكيف خرجت من غرناطة دون

إذن خطي؟ لقد راجعنا سجلات الضرائب، وتبين أنك منقطع منذ عشرين سنة، وأنك تركت بيتك بحي البيازين، وبعته بصك صحيح للمدعوة إيزابيلا بيدرو، فهل لديك تفسير لكل تلك الأسئلة؟!

لم أجب! كانت الأسئلة أشبه بفكي الأسد، إن أجبت بالنفي توجب علي أن أثبت مكان وجودي، وإن أقررت بالهرب فسأثبت التهم علي! كيف السبيل للنجاة إذن؟ يا الله كن معي ..

ظللت صامتًا، لم أجب، وظلت العيون ترمقني بلا توقف، يئسوا من أن أجيب، أعاد علي القس الأسئلة وأنا صامت كحجر، نظر بعضهم لبعض، تهامسوا، انسحبوا للغرفة المفتوحة على القاعة الفسيحة! تناهي لي صوتهم من الداخل، وتسربت بعض الكلمات لمسامعي:

- نعم هو مذنب بلا شك، ربما يخفي الكثير؛ فدعونا نستجوبه أكثر!
- وما الفائدة! وهو كالصخرة، لن يجيب، الأفضل أن نحكم عليه، سنحيل أوراقه للسلطة العلمانية حتى تتخذ الحكم المناسب للتهم المنسوبة إليه.

(١١٠)
هل سيضيع للأبد؟!

تغيرت أمي، أصبحت شاردة طيلة الوقت، تأكل القليل من الطعام، ترعاني وكأني عدت طفلًا من جديد، ولكنها لا تتكلم، تظل صامتة طيلة النهار، تعجن فطائرها بعد الفجر، تخبزها وتخرج نحو السوق وسلة الفطائر فوق رأسها، لم أستعد عافيتي بعد حتى أخرج للعمل، يداي وقدماي متورمتان، الزرقة لا تزال تحيط بعينيّ، ورأسي يدور من أقل مجهود، ظل الوضع هكذا طيلة أسبوع كامل وأنا بالفراش، وأمي لا تتكلم إلا قليلًا، اقتربت منها وهي تستند للجدار بساحة الدار شاخصة ببصرها نحو السماء:

- أمي، ما بك؟! هل فعلت شيئًا أغضبك؟ لم هذا الصمت والشرود والحزن!

أخرجها صوتي من شرودها، نظرت إلي بعينيها الجميلتين، وسحائب الحزن ترتسم بهما، خرجت حروفها مرتعشة، متوترة، تحاول أن تستجمع الكلمات:

- ما الذي تريدني أن أقول يا إسماعيل، وأنا المرأة التي ظلت تحارب أكثر من عشرين سنة، ذهب أبوك فجأة، وتركني بعالم

يموج بالدسائس والخوف والقلق، تركني وحيدة، لا أهل لي ولا سند؛ إلا شيخًا تجاوز الثمانين، كنت عبئًا عليه، ولكنه لم يقصر معك ومعي، رحل أبوك وكان من الممكن أن أعود لطريق الحانات، أن أطعمك برقصي وتسكعي مع هؤلاء المخمورين، ولكني ظللت على العهد. أحببت أباك وكنت وفية كل تلك السنوات، أحببت ذلك الدين الذي دلني عليه أبوك والشيخ، والذي حماني من نفسي وشيطاني، أحببتك أنت يا ولدي بكل ما في قلبي المعذب من حرمان، وحاولت جاهدة أن أحميك وأبعدك عن أي مشكلة كان من الممكن أن تضرك. والآن، بعد كل ما عانيته، تعرضت أنت لخطر كاد أن يضيعك مني، وجئت تقول لي إن أباك عاد وهو الآن يعذب، وربما يموت هناك بأقبيتهم، أو يحرق وسط الساحة أمام أعيننا؟! كيف لي باحتمال ذلك كله، وأنا التي عشت كل تلك السنين أحمل من الهم ما لا أطيق؟! كانت كلماتك يا بني قشة قصمت ظهري، وألجمت لساني، وضيقت الخناق حول عنقي، ماذا أفعل وأنا التي تنازلت عن بيت أبيك من أجل أن يفرجوا عنك؟ كيف السبيل لإنقاذه؟ هل سيضيع مني للأبد؟ ليتني ما عرفت

بعودته، ليتني سلمت بفقده للأبد بدلًا من معرفتي أنه هناك، وأنا العاجزة عن أن أراه أو أنقذه، ما العمل يا بني؟!

قام إسماعيل وعاد بإبريق الماء وهو يقول:

- هيا يا أم لنتوضأ ونصلي ركعتين لله، نسأله فيهما أن يلهمنا الحل والصواب، ولنستخِره في أمرنا، فهو خير من يدبر الأمر وبيده كل شيء، هيا يا أمي..

قمت ووقفت خلف ابني، وهو يصلي بصوت هامس، دعونا الله كثيرًا، بكيت وابتهلت وسلمت أمري لله، لعل الغد يأت بفرج قريب!

(١١١)
التكريم

إنه في يوم الأحد الموافق الثاني من تموز عام ٢٠٣٥، أقف بينكم اليوم، لنكرم رجلًا ربما لم ينل حقه من الثناء والتكريم والشهرة، نقف اليوم ونحن على أعتاب عهد جديد من الحرية والفكر والمساواة، حيث إنه قد أهدانا رائعته (القشطالي) ورحل دون أن يعلم أنها ستحدث تلك الضجة بعد أكثر من أربعين عامًا من كتابتها، وها أنا اليوم أقف بين أيديكم لنخبر العالم عن ذلك الرجل ذي القلم الثائر رغم رقته، المناضل بريشته ومحبرته، الذي أسقط الضوء على مأساة كل من وجد نفسه مختلفًا، وعانى من أجل اختلافه، من أجل أن تحترم عقيدته، وهويته وأفكاره.

كتب البروفيسور سالم القشطالي بمقدمة روايته:

لم أكن أعلم أنني أكتب عن ذاكرتي أنا، عن ماضيَّ الذي طوي منذ مئات السنين، عن الهاربين من الجحيم نحو المجهول، لم أكن أعلم أني أكتب عن نفسي، حين نسجت حكاية سليم وإيزابيلا، وحين فضضت أوراق أمي المتآكلة، أوراقًا صفراء كتبت بحروف متعرجة، أخذتني الدهشة حين رأيت المخطوط القديم لشجرة عائلتي الضاربة نحو الماضي البعيد، المسافرة نحو الغرب، حين رأيت الجزء المتبقي من لوحة أبي سليم الخضراء المزدانة بخيوط

الذهب ، والتي لم يتبق من حروفها إلا لفظ الجلالة وقد اهترأت حوافها ، وطواها أبي بعناية تليق بكنز لا يقدر بثمن.

هناك حيث إسماعيل وأبوه وأمه، هناك حيث الأندلس المنسي، المندثر إلا من ذاكرة تأبي الرحيل، أخذتني الدهشة حين عرفت أخيرًا معنى القشطالي الذي كان محل سخرية الجميع دومًا، عرفت أخيرًا لم امتلأت مكتبة أبي بكل الكتب التي تحكي تاريخ الأندلس والسقوط والمآسي، لِمَ كان دومًا يقص علي تلك الحكايات قبل أن يرحل، عرفت لمَ استبد بداخلي ذلك الشغف العجيب نحو تلك الأرض وذلك التاريخ.

والآن بين ذلك المخطوط الذي احتفظ به أبي رغم كل تلك السنوات، وخبأته أمي وجداتي قبلها عقودًا طوالًا، والآن عاد ليظهر، ممهورًا بكلماتها المرتعشة: ذلك إرثك من أبيك، خبأته حين مات، ولم يسعفني الوقت لأظهره لك.

ثم أكمل سالم نسج حكاياته الحالمة والثائرة حول أبطاله، وهو لا يعلم أنه ينسج حكايته الخاصة، ويربط كل خيوط الحاضر والماضي، وربما المستقبل البعيد..

(١١٢)
البشرى

قبل المغيب بقليل وجدتني أخرج نحو دار مندوسا ثانية، أعلم أنه توسط حتى أفرجوا عن إسماعيل، ولكن كيف لي أن أذهب لهناك ثانية أطلب منه أن يخرج زوجي؟! كيف أقص عليه الحكاية؟! كيف أرمي بسليم نحو المحرقة بيدي؟ أثبت التهمة التي يحاول نفيها؟

وقفت عند منتصف الطريق، لم أكمل السير، عدت نحو البيت فلم أجد إسماعيل، ظننته خرج لبعض رفاقه، انتصف الليل ولم يعد، طار عقلي، وداهمتني كوابيس اليقظة، أيكونون قد أخذوه ثانية!

خرجت للحارة، وقفت عند الباب لا أعرف ما العمل، عوت الكلاب البعيدة فزادت رهبتي، أين ذهب ذلك الولد يا ربي.

قاربت الشمس على الطلوع، لم يغمض لي جفن وأنا بين الباب ودعائي، ولهفتي، دخل علي أخيرًا وهو يلهث، فاستقبلته بغيظ كبير ولهفة أكبر:

- أين كنت يا بني؟! لم تجعلني أموت رعبًا هنا، وأنا لا أعلم أين أنت؟!

اعتذر، قبل يدي ورأسي، كان مهمومًا لدرجة تناسيت معها غضبي، أجلسته بين يدي أستفسر عن سر غيابه.

- كنت على موعد يا أمي مع أحدهم، رفيق قديم تذكرته منذ أيام، وانقطعت الصلة بيننا منذ أن تركنا البيازين، يعمل عمه حاجبًا بالديوان، وخادمًا لدى القس الذي يباشر تحقيقات المتهمين، ذهبت إليه منذ يومين وفاتحته بأمر أبي، قلت له إن هناك شخصًا أوصاني أن أستطلع أخبار سجين بالديوان يهمه، دون أن أذكر بالطبع أنه أبي، وعدني أن يسأل عنه، وضرب لي موعدًا البارحة ليلًا، آسف لأني سببت لك ذلك القلق، خفت إن ذكرت لك محاولتي أن تمنعيني، أو أن يتسلل الأمل لقلبك، ثم يخيب إن لم أفلح في مهمتي. الأمر يا أمي معقد، جاءني صديقي هذا بوجه غير الذي أعرفه، قال لي إن تهمة المتهم الذي أسأل عنه ليست بالبسيطة، وقد حاولوا انتزاع اعترافات منه بتعامله مع الثوار، ولكنهم فشلوا، عذبوه كثيرًا دون فائدة حتى خارت قواه، وقد صدر بحقه الحكم النهائي.

توقفت هنا، تلعثمت، وأخفيت رأسي، هربت من عيني أمي اللتين تتابعان بشغف وحزن، وهي تمسك بكلتا يدي تهزني:

- هيا أكمل يا إسماعيل، ما ذلك الحكم؟! هل سيقضي ما تبقى من أيامه بأقبيتهم حتى يتعفن، ويموت هناك دون أن يعلم أحد به؟! تكلم يا بني..
- لا يا أمي، بل سيحرقونه بالساحة بعد يومين، بالعرض الأسبوعي للمتهمين، وسيحضر الأساقفة كلهم وعلى رأسهم ديثا شخصيًّا .. يقولون إنه مهتم بنفسه بتلك القضية، فنصرٌ لهم أن يقبضوا على أحد الذين شاركوا بالثورة. نعم، لم يعترف أبي؛ ولكنك تعلمين يا أمي أن صمته وعدم اعترافه لدى المحكمة، معناه أنه أقر بكل التهم.

أُسقط في يدي، ساد الصمت طويلًا، تعلقت عيناي بإسماعيل، انهالت دموعي فضمني، خرج صوتي المختلط بنحيبي!

- ما العمل يا بني! هل سنتركه هكذا؟! لقد مر زمن طويل وانقضت الحرب، ورحل من رحل، ومات من مات، ألا تكفي كل تلك السنوات لكي ينسوا ثأرهم الملعون؟! ألا يكفيهم أنه مطارد منذ أكثر من عشرين سنة؟! ألا يكفيهم أننا حرمنا منه وحرم منا؟! أليست هذه عقوبة كافية! هل يستطيع صديقك هذا أن يفعل شيئًا! لعلنا نستطيع أن نرشو الحراس. سأستدين، سأطرق بيت مندوسا ثانية أطلب بعض النقود لأي سبب،

سأفعل أي شيء يا بني، ولكني لن أستطيع أن أفقده للأبد. لقد عشت كل تلك السنوات على أمل عودته، على أمل أنه هناك بمكان ما، وأنه سيعود مهما ابتعد وغاب، ولكن كيف لي أن أذهب لهناك، أشاهدهم وهم يحرقونه وسط انتشائهم المسعور وتهليلهم؟! لن أحتمل ذلك يا ولدي ..

أسندت رأسي المتعب وأغمضت عيني، تمدد إسماعيل على الأريكة بجواري يحاول أن يغمض عينيه فلا يستطيع، تداخلت الأفكار بعقلي المشتت، أحاول أن أجد مخرجًا لما نحن فيه، أخذني وسن خفيف، جاءني الشيخ فيه بهيئة جديدة، ووجه شاب مبتسم يعيد كلماته التي قالها لي منذ عشرين عامًا؛ حينما كانت الشكوك تعصف بي، جاء يعيد كلماته وتحيطه هالة من نور:

- الله دومًا يختبر عباده إيزابيلا؛ حتى يعلم من يصبر ومن يقنط، حتى يستبدل أيام شقائك بأيام أخرى، وها أنت الآن هنا، قد أبدلك الله بتعاستك زوجًا يحبك، وأهلًا يلتفون حولك، الرب دومًا موجود، يسمع ويرى؛ إنه لا يعاقبنا بقدر ما يمتحن قدرتنا على الصبر. يمتحن رغبتنا في التوجه إليه، يرسم لنا الطرق: طرق الخير والشر والضعف والقوة والهزيمة والنجاح، ونحن علينا أن نختار. الرب دومًا يغفر إيزابيلا، يرحم ويجبر كل

كسر! ألا تعلمين أن الأم أحيانًا تقسو على صغيرها؛ لتهذب لا لتنتقم؟ الرب أحنى على عباده من الأم الرؤوم على صغيرها، فقط يريد منا أن نتوجه له وحده بالسؤال والمذلة والدعاء، استبشري يا أم إسماعيل، فربك سيأتي بالخير.

قمت من نومي ولساني يلهج:

- يا الله.

وإذا بطرق على الباب خفيف، وإسماعيل يهب من نومه ليفتح للطارق، الرب دومًا موجود، يسمع ويرى ويستجيب، هل كنت أظن أنه سيستجيب بهذه السرعة؟!

عند الباب يقف إسماعيل، يتهامس مع أحدهم ثم يدعوه للدخول، أسدل خماري فوق رأسي وأقف بالزاوية أستطلع الأمر، الضيف ليس بالشاب، رجل ربما يقترب عمره من عمر سليم، يجلسه إسماعيل مرحبًا، وقد علت وجهه ابتسامة رضا، يستأذنه ويأتي إلي ووجهه يشي بالكثير، يصيح بفرح:

- أمي هيا؛ تعالي بسرعة.

وأنا بين الدهشة والفرح والدموع تنساب، أستمع للرجل وكأن السماء ترسل عطاياها تباعًا، تضمد جرحي النازف منذ عشرين عامًا، جلست التقط أنفاسي المتتابعة من الدهشة والمفاجأة، الرجل رفيق سليم، رفيقه وسط الدروب والكهوف والاختباء والحروب، اختبأ كما اختبأ سليم ولكنه كان قد فقد أهله عندما اجتاحت فيالق

العدو القرى، حارب مع سليم، ساعد الكثيرين على الهرب نحو البحر، علم برغبة سليم في العودة إلينا، حذره كثيرًا ومنعه مرات أخرى، ولكن سليم أصر على المخاطرة. قلت له: يا أبا إسماعيل، المخاطرة كبيرة وغرناطة لم تعد آمنة، ولكن شوقه إليكم كان أكبر من أي محاولة للإقناع، ذهب على أمل أن يعود بكم، ونرحل جميعًا نحو فاس، ولكن غيبته طالت، وكنت قد عاهدته أن ألحق به في حال تأخره، فلربما دفعت عنه مكروهًا أصابه، أو ضيقًا وقعتم به. سألت كثيرًا حتى عرفت طريق بيتكم، ولكن أين سليم؟

حكى إسماعيل كل شيء للرجل، أطلعه على تهمة أبيه، والحكم الصادر بحقه، أخبره أن الوقت ضيق والمحاكمة بعد يومين، وأنه لا حيلة أمامنا لإنقاذه.

ابتسم الرجل ابتسامة هادئة، لم يزد عن أن قال بهدوء:

- الله غالب ..

توجه نحو الباب وصافح إسماعيل، وهمس له:

- سأعود غدًا عند منتصف الليل، وكن مستعدًا..

(١١٣)
الرغبة الأخيرة

لم تعد العتمة تخيفني، لم يعد للألم مكان، ولم يعد للمكان هيبة بداخل روحي، أشعر أني أصبحت فارغًا من كل شيء، أصبح داخلي كالبيت الخاوي، منذ أن علمت بوقت المحاكمة ولم تعد الدنيا تعني سوى أن أرى وجهي ابني وإيزابيلا، أراهما مرة واحدة، تكتحل عيني بوجهها المستدير كبدر، ووجه ابني الذي يشبه جده، وقتها فقط أستطيع أن أذهب مبتسمًا.

ليت الجند يطوفون بالمدينة يعلنون كما هي عادتهم عن اليوم المشهود، فيجتمع الناس بالساحة الكبيرة يتوافدون لرؤية المذنبين، حيث القشتاليون المهووسون بالدم والقتل والتشفي، والقلة الباقية منا، من جاء يستطلع خبر قريب أو حبيب اختفى دون سبب، ولعله يظهر يوم المحاكمة، يسير بصف المذنبين، يتجه نحو المحرقة أو الخازوق، أو لربما نجا بعفو من الملك إن كان موجودًا كعادته حين ينزل بالقصر المطل على الساحة أيام الصيف، فيشير للقساوسة حين يلعب الخمر برأسه، فيعفو عن هذا، ويرسل غيره للجحيم، وهو يضحك عاليًا، والجماهير خارج أسوار القصر تهتف بحياته.

ليتهم يعلنون ذلك فيهرع إسماعيل نحو الساحة، وتأتي إيزابيلا لتلقي علي سلامها الأخير. أشتاق إليهما، وأريد أن أغمض عيني للمرة الأخيرة على صورتيهما، يكفيني أن أعلم أنهما بخير، وأن إسماعيل قد خرج دون محاكمة، قالها لي الحارس وهو يتشفى بي، ولا يعلم أن قلبي سجد لله شكرًا وقتها، كل ما في الأمر أني أريد وداعهما، فهل يأذن الله لي!

(١١٤)
زوار الفجر

انتصف الليل، سكنت الحارة وخف وقع الأقدام، يأتيني نباح كلب كل فترة يقطع سكون الليل، أو صوت أحدهم وقد أكثر من الشراب، فتعالى صياحه وهو يدندن بأغنية تداخلت حروفها حتى يخف صوته وهو يبتعد، قمت أتجول بين الرواق وباب الدار، أحاول الاستماع لخطوات المارة، تكومت أمي عند الزاوية فوق الأريكة، تغالب النعاس، وتنتظر مثلي ذلك الذي ضرب لنا موعدًا ولم يظهر للآن.

قطع شرودي طرق خفيف، فتحت الباب بحذر، فإذا برجل ملثم عند الباب يهمس ويرفع لثامه، فسحت له طريق الدخول، وإذا بثلاثة رجال من ورائه، دلفوا نحو الداخل مسرعين، ووقفت أمي عند الرواق الداخلي تستطلع الأمر، عرفني الرجل على صحبته، جميعهم من رفقاء أبي، سلموا علي بحرارة، وجلسنا جميعًا.

أتت أمي ببعض الطعام والشراب للضيوف، وعادت تتابع حديثنا من بعيد، بصوت خفيض قال أبو أحمد صديق أبي الذي جاء بالأمس:

- اسمع يا بني، لم يتأخر أبوك لحظة في مد يد العون لأحد، مهما كلفه ذلك، عاشرته سنوات طويلة، كان رغم صمته وحزنه دومًا على فراقكم، نعم الأخ والمعين والسند لهؤلاء الرجال وغيرهم، ومئات العائلات التي نجت وعبرت البحر بفضل حنكته، وإصراراه على الاستمرار رغم كل الصعاب، والآن يا ولدي ليتنا نستطيع أن نرد بعضًا مما قدمه أبيك لنا. نعم إن المخاطرة كبيرة والوقت ضيق، ولكننا لن نتركه يواجه ذلك المصير وحيدًا، لعل الله يكتب لنا وله النجاة ..

(١١٥)
الحدث الكبير

استعدت الساحة منذ الصباح الباكر للحدث الكبير، نصب الجند المنصة الخشبية الكبيرة بالناحية الشمالية، رفرفت البيارق الحمراء المنقوشة بالصلبان الذهبية تلمع تحت أشعة الشمس، انتشر الجند بين الأرجاء، وفوق أسطح المباني القريبة، كان المنادي قد أعلن البارحة عن وقت المحاكمة، وأن الكاردينال ديثا سيحضر شخصيًا.

توافد الناس نحو الساحة مبكرين، آملين في حجز موقع قريب من المنصة لعلهم يحظون ببركة الكاردينال الأعظم، أو لعل الملك يخرج للشرفة كعادته أيام الصيف ليشهد المحاكمات، أو ينزل للساحة وسط حراسه، فينالهم بعضًا من عطاياه التي يغدقها أحيانًا في صورة عملات ذهبية ينثرها فتهتف الرعية:

- بيبا إل رِي.. بيبا إل رِي(*) ليحيَ الملك.

تسلل الرجال خفية مع أول خيوط الفجر، تواعدنا أن نلتقي هناك، خرجت مبكرًا، أصرت أمي أن تصحبني، رغم محاولاتي منعها خوفًا عليها، أجلستها عن طرف الساحة واندسست بين الجموع

(*) Viva el rey.

التي اكتظ بها المكان، حاولت أن أقترب نحو المنصة التي بدأت تستعد لاستقبال المحترمين.

العاشرة تمامًا دقت الطبول، تعلن عن قدوم موكب ديثا، العربة الخشبية المزدانة بالنقوش والخيول التي غطتها الأقمشة الحريرية الحمراء، يخرج ديثا يده لتحية الناس، فينحني الجمع كلما مرت العربة بهم، الحراس الملثمون الذين التفوا حول العربة من الجهات الأربع، القساوسة خلف العربة فوق خيولهم، والناس حول الموكب يتصايحون، يطلبون بركة من مر بهم.

توقف الموكب، وترجل ديثا من عربته مشيرًا للجمع، جثوت على ركبتي كما فعل الجميع، رسم الكاردينال صليبًا كبيرًا بالهواء وأخذ يرتل أدعيته، أممنا خلفه، اعتلى القساوسة المنصة، وظهر صف المذنبين من بعيد، يحيطهم الحراس من كل جانب، اقتربت أكثر لعلي ألمح أبي وسط هؤلاء، راعني منظرهم وقد بدت آثار التعذيب على وجوههم وأجسادهم النحيفة وملابسهم المهترئة، يمشون نحو المنصة، والجموع تتصايح في سعار وقَرَم للدمِ، ورائحة الشواء البشري:

- كِيمارْلوس..كيمارلوس..أحرقوهم..أحرقوهم!

علا صوت الكاردينال بالأدعية والترانيم فسكت الجميع، بدأ الحراس يحررون الصف الطويل من قيودهم، يتقدم المذنب نحو المنصة عند سماع اسمه، يجثو على ركبتيه، يستمع للحكم الصادر

ضده، يجره الحراس نحو نهايته، يقاوم، يستجدي، يصرخ، ثم تهوى عزيمته، ويستسلم أخيرًا لقدر محتوم، يعلو الصياح الفرح، ويبتسم الكاردينال في انتشاء وتشفٍّ مجنونين.

صاح الحارس، إيرناندو لوبيث، تقدم أبي من وسط الصف يجر قدميه المتورمتين، هالتني هيئته، ارتعبت عندما رأيت ما حل به، من هزال عجيب، طالت لحيته، واصفر وجهه، يسند يده اليمنى بيسراه، ويمشى بوهن كبير، ينظر نحو الساحة وكأنه يبحث عنا، حاولت أن أقترب أكثر، وأشير له ولكني تراجعت في اللحظة الأخيرة مخافة لفت الانتباه.

جثا أبي على ركبتيه أمام المبجل، وراح القس يتلو قائمة الاتهامات وأبي منكس الرأس، يرفع عينيه كل فترة وقد ذهب بريقهما، يدور بهما بين الجموع المكتظة بالساحة، ثم يعود منكس الرأس ثانية.

عم هرج مفاجئ خلف منصة القساوسة، توقف القس عن الحديث، تهامس الناس ثم علت الأصوات مع أصوات فرقعات البارود، وارتفاع ألسنة نيران مفاجئة، غطى الدخان الكثيف الساحة الكبيرة فحجب الرؤية، إلا من البيارق الملونة التي ما تزال ترفرف فوق المنصة.

تلك كانت الإشارة التي اتفقنا عليها، تسلل بعض الرجال في زي الحراس خلف المنصة وفي الشوارع القريبة، وأشعلوا بعض البارود، فترددت فرقعات مزعجة، وارتفعت ألسنة النيران والدخان

الذي أربك كل من بالساحة، هرع الجند نحو المنصة لحماية الكاردينال والقساوسة، والإسراع بنقلهم إلى مكان آمن بعيد عن المنصة.

لم يتبق سوى بعض الجنود حول المذنبين، والدخان يعمي الجمع ويحجب الرؤية، وقتها تسلل أبو أحمد، ومعه رجل آخر نحو منتصف الساحة حيث المذنبون ما يزالون هناك، تقدموا من أبي الذي ما يزال مأخوذًا بفزع الموقف، لحقت بهم من وسط الجموع، غطى الدخان الكثيف الساحة، وهرب الكثير ممن جاء للمشاهدة، وصلت لأبي سريعًا حللت وثاقه، قبل أن يظهر جنديان أحاطا بي وبأبي، شاهرين سلاحيهما، هممت بسحب سيفي، لكن أعجلتهما ضربات من خلفهما، سقطا معها دون حراك.

رفعت اللثام عن وجهي، وعانقت أبي الذي كان مبهوتًا مما يحدث، حملته على كتفي، واتجهت ركضًا لطرف الساحة الشمالي، لحق بنا الرفاق بعد معركة صغيرة مع بعض الجند الذين بقوا في الساحة، حملوا أبي المتعب فوق الحصان المنتظر عند زاوية الطريق، وعدت عجِلًا أبحث عن أمي التي وقفت عند الزاوية كما كانت، تدمع عيناها من شدة الدخان، أسرعنا السير نحو أبي والرفاق، كانوا قد ابتعدوا مسرعين ولم يتبق سوى أحدهم ينتظرنا، حملت أمي على ظهر الحصان، وأركضناه خلف أبي ورفاقه، مبتعدين عن

الساحة التي تعج بالأصوات والهرج، وهول المفاجأة، وألسنة النيران والدخان.

اقتربنا من مشارف غرناطة، ووقفنا فوق التلال الشاهدة على المدينة العامرة، نزلت أمي من فوق الحصان مسرعة نحو أبي، تعانقا طويلًا، أحاط وجهها الباكي بيديه كلتيهما، وأخذ يعتذر ويقبل يديها ووجهها، ودموعه تنساب، ابتعد الرجال قليلًا، ووقفت مشدوهًا تنساب دموعي، اقتربت أعانقهما وأضم أبي وأمي لأول مرة بحياتي، جاءنا أبو أحمد ينبهنا بضرورة المواصلة.

توقفت فجأة بعد أن تذكرت شيئًا مهمًّا، أدرت لجام فرسي واتجهت صوب المدينة من جديد، حاول الرجال اللحاق بي وإثنائي، علا صوت أبي أحمد:

- إسماعيل!!! ما الذي تفعله، هل جننت!

لا أستطيع يا عمي أن أغادر قبل أن أحمل لوحة جدي ومصحفه الذي خبأه منذ أربعين سنة بساحة البيت، لن أرحل بدونهما، دعوني أعود ولتكملوا المسير ..

(١١٦)
رسالة

ولدي الحبيب، إسماعيل، حفظك الله أينما كنت، مرت سنتان يا ولدي منذ أن خرجت بتجارتك نحو الشام، وأنا أنتظر رجوعك، وقد طالت غيبتك، ومرت الأيام وأنا أتلمس أخبارك مع العائدين كل يوم، وقد علمت أنك ألفت المكان هناك، فلعله ذكرك بغرناطة الحبيبة، بقصورها العامرة وبساتينها الوارفة، وقد وصلني خطابك الذي بشرتني فيه برغبتك في الزواج من بنت أحد التجار هناك، وقد أسهبت في وصف حسنها وأخلاقها ونسبها، ولا يسعني إلا أن أوافق إن كنت ترى أن في ذلك مصلحة لك.

ورغم أني وددت لو تزوجت بيننا، وملأت الدار بالأحفاد، فلم يعد لي ولأمك من بعدك من أحد، ولعلنا نستطيع أن نلحق بك كما طلبت برسالتك، ولكني وأمك قد اعتدنا المكان هنا، ولا نريد أن نجازف مثلك بالسفر، ولعل الله يقدر الخير لك ولنا.

وإن كنت قد عزمت على بقائك ببلاد الشام، فتلك وصيتي لك، فأنت تعلم جيدًا ما قد حدث لنا من قتل وتشريد، وطرد بلا جريرة ولا إثم، وأن هروبنا كان فضلًا منّ الله به علينا، وإني لأتذكر كل يوم

عودتك من أجل لوحة جدك ومصحفه، ومخاطرتك بحياتك من أجل خاطر أبيك، فهذا يا ولدي جميل أحمله لك بعنقي حتى أموت، ولتكن وصيتي لك أن تحفظ أسماء جدك وأبيك وعائلتك من الاندثار، فلتجعلها في أوراق لا تمسها يد إنسان، وليكن ذلك عهدك لي، ووصيتك لولدك، ووصية ولدك لولده، يتناقلونها حتى قيام الساعة؛ إذ يكفينا ما حل بنا يا ولدي، وليكن ذلك إرثنا الذي نحمي، ونسبنا الذي نصون.

واعلم يا بني أني أدعو الله لك في كل صلاة أن يحفظك ويوسع رزقك ويبارك ذريتك.. إيثابلا تدعو لك كثيرًا، وترسل لك قبلاتها، كل فجر. حفظك الله يا ولدي ورعاك وسدد خطاك.

أبوك المحب

سليم بن عبد الله القشطالي المرسي

الرابع من إينيرو من العام ١٦٠٠م

تمت بحمد الله